الجواب الكافي

لمن سأل عن الدواء الشافي

تأليف

الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد

شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي بكر

المعروف بابن قيم الجوزية رضي الله عنه

الطبعة الثالثة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

طبع على نفقة ملتزميه

أبي السمح عبد الظاهر بن محمد
إمام ومدرس وخطيب الحرم المكي

محمد صالح نصيف
من أعيان ووجهاء جدة (الحجاز)

مطبعة أمين عبد الرحمن بشارع محمد علي نمرة ١٤١ بجوار سوق الخضار بمصر

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أخرجنى من ظلمات الشرك والتقليد ، إلى نور العلم والتوحيد . ووفقنى من غير حول ولا قوة للاعتصام بالكتاب والسنة. ونفخ في روح العمل بهما ، والدعوة إليهما ، والتفقه فيهما

أحمده وأشكره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فى ربوبية ولا ألوهية ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خير البرية . صلى الله عليه وعلى أصحابه صلاة دائمة زكية ، وسلم تسليما كثيراً

أما بعد : فلما كان الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي للامام العلامة العارف بربه أبي عبد الله بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية من أهم الكتب النافعة فى تقويم الأخلاق وتثقيف العقول وشفاء النفوس من أمراض الجهالة وشبهات الضلالة التى هلك بها كثير من الناس كمسائل القضاء والقدر ، والاغترار والاتكال بغير عمل على رحمة الله

وكان هذا الكتاب أول كتاب هداني الله به وأنقذني من الضلال باسلوبه
وقد نفدت نسخه واحتاجت النفوس إليه حاجتها إلى الآسى أو أشد .
قمت بحول الله وقوته باعادة طبعه وشاركني في ذلك الصديق الفاضل
الشيخ محمد صالح نصيف أحد أعيان الحجاز ورزقنا الله باستاذ فاضل
وعدني بتصحيحه وشرح غريب ألفاظه وعزو الآيات إلى سورها
وغير ذلك من ضبط الجمل ، والترجمة لكل موضوع . وقد
عنينا نحن بورقه وطبعه بحروف كبيرة ليسهل على المطالعين ويعجب
الناظرين . وإن كان ذلك يكلفنا أضعاف ما ينفقه تجار الكتب الذين لا
يهمهم إلا الربح العاجل . وحسبنا الله ونعم الوكيل . والله نسأل أن
يجعل عملنا لوجهه خالصاً وينفع به كما نفعني، إنه سميع قريب. وصلى الله
على محمد وآله وسلم

[illegible]

[illegible]

ترجمة المؤلف

من كتاب زاد المعاد. نقلا عن جلاء العينين

لابن نعمان الالوسي البغدادي

قال : هو العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ابى بكر بن أيوب ابن سعد الزرعي ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي المفسر النحوي الاصولى المتكلم الشهير (بابن قيم الجوزية) . قال فى الشذرات : بل هو المجتهد المطلق

قال ابن رجب : ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائه . ولازم الشيخ تقي الدين بن تيميه . وأخذ عنه وتفنن فى كافة علوم الاسلام . وكان عارفا بالتفسير لايجارى فيه . وبأصول الدين ، واليه فيه المنتهى . وبالحديث ومعانيه وفقهه . ودقائق الاستنباط منه ، لايلحق فى ذلك . وبالفقه . وبالأصول والعربية ، وله فيها اليد الطولى . وبعلم الكلام والتصوف

حبس مدة لانكاره شد الرحل إلى قبر الخليل . وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى . ولم أشاهد مثله فى عبادته وعلمه بالقرآن والحديث وحقائق الايمان . وليس هو بالمعصوم . ولكن لم أر فى معناه مثله . وقد امتحن وأوذي مرات . وحبس مع شيخه شيخ الاسلام تقي الدين فى المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه . ولم يخرج عنه الا بعد موت الشيخ . وكان فى مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القرآن وبالتدبر والتفكر . ففتح عليه من ذلك خير كثير وحصل له جانب عظيم من الأذواق

والمواجيد الصحيحة . وتسلط بسبب ذلك على الكلام فى أهل المعارف والخوض فى غوامضهم وتصانيفه ممتلئة بذلك ، وحج مرات كثيرة وجاور بمكة . وكان أهل مكة يتعجبون من كثرة طوافه وعبادته . وسمعت عليه قصيدته النونية فى السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها . وأخذ عنه العلم خلق كثير فى حياة شيخه والى أن مات . وانتفعوا به :—

قال القاضى برهان الدين الزرعى : وما تحت أديم السماء أوسع علماً منه. ودرس بالصدرية . وأم بالجوزية. وكتب بخطه مالا يوصف كثرة وصنف تصانيف كثيرة جداً فى أنواع العلوم وحصل له من الكتب مالم يحصل لغيره ــ فمن تصانيفه

كتاب تهذيب سنن أبى داود وايضاح مشكلاته

» الهجرتين

» الوابل الصيب شرح الكلم الطيب

» زاد المسافرين

» زاد المعاد اربع مجلدات: وهو كتاب جليل

» نقد المنقول

» اعلام الموقعين عن رب العالمين ثلاث مجلدات

» بدائع الفوائد ــ مجلدان

» النونية . الشهيرة بالشافية الكافية

» الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة

» حادى الأرواح الى بلاد الأفراح

كتاب نزهة المشتاقين

« الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ـ وهو هذا ـ

« مفتاح دار السعادة . مجلد ضخم غريب الأسلوب

« تحفة الودود فى احكام المولود

« الطرق الحكمية . فى السياسية الشرعية وهو من أنفس ماألف فى بابه

« عدة الصابرين

« اغاثة اللهفان

« الروح

« الفتح القدسى

« التحفة المكية

وغير ذلك : توفى رحمه الله ثالث عشر رجب سنة إحدى و خمسين وسبعمائة ؛ ودفن بمقبرة الباب الصغير بعد أن صلي عليه بمواضع عديدة وكان قد رأى قبل موته شيخه تقى الدين فى النوم وسأله عن منزلته فأشار الى علوها فوق بعض الأكابر ثم قال له : وأنت كدت تلحق بنا ولكن أنت الآن فى طبقة ابن خزيمة رحمهم الله تعالي؛ انتهى باختصار

كتاب

ى لفظ « إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء . أو دواء . الا داء واحد

سول الله ما هو؟ قال . الهرم » قال الترمذى هذا حديث صحيح

م أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها . وقد جعل النبي صلى

لمن سأل عن الدواء الشافى

تأليف

﴿ الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقـد ﴾

﴿ شمس الدين أبى عبد الله محمد ابن الشيخ أبى بكر ﴾

﴿ المعروف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه ﴾

الطبعة الثالثة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

﴿ طبع على نفقة ملتزمه ﴾

﴿ أبى السمح عبد الظاهر بن محمد ﴾

﴿ امام ومدرس وخطيب الحرم المكى ﴾

مطبعة أمين عبد الرحمن شارع محمد على رقم ١٤١ بجوار سوق الخضار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل الشيخ الامام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبي بكر عرف « بابن قيم الجوزية » رضى الله عنه . ماتقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين فى رجل ابتلي ببلية وعلم أنها إن استمرت به أفسدت دنياه وآخرته ؛ وقد اجتهد فى دفعها عن نفسه بكل طريق فما نزداد إلا توقداً وشدة ؛ فما الحيلة فى دفعها ؟ وما الطريق إلى كشفها ؟ فرحم الله من أعان مبتلى . والله فى عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . أفتونا مأجورين : —

فكتب الشيخ رضى الله عنه تحت السؤال.الجواب : —

الحمد لله ﴿أما بعد﴾ فقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عايه وسلم أنه قال « ماأنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء (١) برأ باذن الله» وفى مسند الامام أحمد من حديث أسامة بن شريك عن

(١) اذا وجد الدواء الذى يتناسب مع مزاج المريض وحالة مرضه ووافق الوقت الذي قدرالله نهاية المرض فيه برأ باذن الله

النبي ﷺ قال . « إن الله لم ينزل داء الا أنزل له شفاء ؛ علمه من علمه وجهله من جهله » وفى لفظ « إن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء . أو دواء . الاداء واحداً » قالو ايارسول الله ماهو ؟ قال . الهرم » قال الترمذى هذا حديث صحيح .
وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها . وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الجهل داء وجعل دواءه سؤال العلماء . فروى أبو داود فى سننه من حديث جابر بن عبد الله قال . خرجنا فى سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؛ قالوا مانجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك . فقال « قتلوه قتلهم الله الا سألوا إذ لم يعلموا . فانما شفاء العي السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده » فأخبر أن الجهل داء وأن شفاءه السؤال . وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء فقال تعالى(١) (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمى وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) وقال(٢) (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض فان القرآن كله شفاء كما قال فى الآية المتقدمة . فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع فى إزالة الداء من القرآن . وقد ثبت في الصحيحين من حديث

---

(١) سورة فصلت
(٢) سورة الأسراء

أبي سعيد قال « انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى سفرة سافروها؛ حتى نزلوا على حي من أحياء العرب . فاستضافوهم فابوا أن يضيفوهم . فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء . لاينفعه شيء . فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا ، لعله أن يكون عند بعضهم شيء . فأتوهم فقالوا ياأيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لاينفعه . فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم : نعم ، والله إني لأرقي ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا . فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا . فصالحوهم على قطيع من الغنم . فانطلق يتفل عليه ويقرأ (الحمد لله رب العالمين) فكأنما نشط من عقال . فانطلق يمشي ومابه من قلبه (١) قال فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقسموا فقال الذى رقى لاتفعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذى كان ، فننظر مايأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى عليه وسلم ، فذكروا له . فقال : وما يدريك أنها رقية . ثم قال : قد أصبتم . اقسموا واضربوا لي معكم سهماً فضحك رسول الله ﷺ » فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء وأزاله حتى كأن لم يكن . وهو أسهل دواء وأيسره . ولو أحسن العبد التداوى بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً فى الشفاء . ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواء . فكنت أعالج نفسى بالفاتحة

---

(١) بحركات أى علة وسميت بذلك لان الذى تصيبه يتقلب من جنب الي جنب . وقيل هو داء مأخوذ من القلاب يأخذ البعير فيشتكي منه قلبه فيموت من يومه

فأرى لها تأثيراً عجيباً . فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً . وكان كثير منهم يبرأ سريعاً

ولكن ههنا أمر ينبغي التفطن له ، وهو أن الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية . ولكن تستدعي قبول المحل وقوة همة الفاعل وتأثيره . فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل . أو لعدم قبول المنفعل . أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء . كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية . فان عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء . وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره . فان الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول . وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء . وكذلك الدعاء فانه من أقوى الاسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب . ولكن قد يتخلف عنه أثره ، إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاءً لايحبه الله لما فيه من العدوان ، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء . فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا . فان السهم يخرج منه خروجا ضعيفاً ، وإما لحصول المانع من الاجابة من أكل الحرام والظلم ورين الذنوب (١) على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها . كما في مستدرك الحاكم من

---

(١) الرين الطبع والدنس . يقال ران على قلبه أى طبع عليه وغلب . وفي قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم) هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب

حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة . واعلموا أن الله لايقبل دعاء من قلب غافل لاه » فهذا (١) دواء نافع مزيل للداء . ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته . وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها ، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة . قال قال رسول الله ﷺ « أيها الناس . إن الله طيب لايقبل الا طيباً . وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (٢) (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم) وقال (٣) (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم). ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء ، يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك » وذكر عبدالله ابن أحمد في كتاب الزهد لأبيه « أصاب بني إسرائيل بلاء فخرجوا مخرجا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون الى الصعيد بأبدان نجسة وترفعون إلي أكفاً قد سفكتم بها الدماء وملأتم بها بيوتكم من الحرام ، الآن حين اشتد غضبي عليكم (٤) ولن تزدادوا مني إلا بعداً » وقال أبو ذر : يكفي من الدعاء البرأة (٥) مايكفي الطعام من الملح

---

(١) أي الدعاء (٢) سورة المؤمنون (٣) سورة البقرة
(٤) أي . الآن تدعوننى حين اشتداد غضبى عليكم بما ارتكبتم الخ
(٥) البرأة كالجرعة القليل

فصل

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل . وهو سلاح المؤمن كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه . قال قال رسول الله ﷺ « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض » وله مع البلاء ثلاث مقامات . أحدها أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه . الثاني أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً . الثالث أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه . وقد روى الحاكم فى صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها ؛ قالت قال رسول الله ﷺ « لايغنى حذر من قدر . والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل . وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامه » وفيه أيضا من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال « الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء » وفيه أيضا من حديث ثوبان عن النبي ﷺ « لايرد القدر إلا الدعاء ولايزيد في العمر إلا البر . وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »

فصل

ومن أنفع الادوية الالحاح في الدعاء . وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة

قال قال رسول الله ﷺ « من لم يسأل الله يغضب عليه » وفى مستدرك الحاكم من حديث أنس عن النبي ﷺ « لا تجزعوا فى الدعاء ، فانه لا يهلك مع الدعاء أحد » وذكر الأوزاعي عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها . قالت قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب الملحين فى الدعاء » وفى كتاب الزهد للامام أحمد عن قتادة قال قال مورق « ماوجدت للمؤمن مثلا إلا رجل فى البحر على خشبة ، فهو يدعو يارب يارب ، لعل الله عز وجل أن ينجيه »

فصل

ومن الآفات التى تمنع ترتب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطئ الاجابة فيستحسر ويدع الدعاء . وهو بمنزلة من بذر بذراً أوغرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه ، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله . وفى البخارى من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يستجاب لاحدكم مالم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي » وفى صحيح مسلم عنه « لايزال يستجاب للعبد مالم يدع باثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل » قيل يارسول الله ماالاستعجال ؟ قال « يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لى ، فيستحسر (١) عند ذاك ويدع الدعاء » وفي مسند أحمد من حديث أنس . قال قال رسول الله ﷺ « لايزال العبد بخير مالم يستعجل » قالوا يارسول الله ، كيف يستعجل ؟ قال « يقول قد دعوت لربى فلم يستجب لي »

---

(١) يمل ويعيا . ومنه قوله تعالى (ولا يستحسرون)

فصل

وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب. وصادف وقتاً من أوقات الاجابة الستة . وهي : الثلث الأخير من الليل . وعند الأذان . وبين الأذان والاقامة . وأدبار الصلوات المكتوبات . وعند صعود الامام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة. وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم ، وصادف خشوعاً فى القلب . وانكساراً بين يدى الرب وذلاً له وتضرعاً ورقة . واستقبل الداعى القبلة . وكان على طهارة . ورفع يديه إلى الله تعالى . وبدأ بحمد الله والثناء عليه . ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ﷺ . ثم قدم بين يدى حاجته التوبة والاستغفار . ثم دخل على الله وألح عليه في المسئلة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة . وتوسل اليه بأسمائه وصفاته وتوحيده . وقدم بين يدى دعائه صدقة . فان هذا الدعاء لايكاد يرد أبداً . ولاسيما إن صادف الادعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الاجابة . أو أنها متضمنة للاسم الاعظم

فمنها مافى السنن وفى صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول :

« اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله الا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » فقال « لقد سأل الله بالاسم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب » وفي لفظ « لقد سألت الله باسمه الاعظم »

وفي السنن وصحيح أبي حاتم بن حبان أيضاً . من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلي . ثم دعا فقال « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لاإله إلا أنت المنان . بديع السموات والأرض . ياذا الجلال والاكرام . ياحي ياقيوم » فقال النبي ﷺ « لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ». وأخرج الحديثين أحمد في مسنده

وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) (١) وفاتحة آل عمران (الم . الله لاإله إلا هو الحي القيوم) — » قال الترمذى : هذا حديث صحيح

وفى مسند أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس ابن مالك وربيعة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال . « ألظوا (٢) ياذا الجلال والاكرام » يعنى تعلقوا بها والزموها وداوموا عليها

وفى جامع الترمذى من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه إلى السماء . وإذا اجتهد في الدعاء قال « ياحى ياقيوم »

وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك . قال كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال « ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث »

وفى صحيح الحاكم من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال

(١) سورة البقرة (٢) الالظاظ الالحاح

« اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن : البقـرة : وآل عمران . وطه » قال القاسم ، فالتمستها فاذا هي آية (الحي القيوم)

وفي جامع الترمذى وصحيح الحاكم من حـديث سعـد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال « دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت (١) (لاإله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) انه لم يدع بها مسلم في شيء قط الا استجاب الله له » قال الترمذى حديث صحيح

وفي صحيح الحاكم أيضا من حديث سعـد عن النبي ﷺ « ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفـرج الله عنـه ؟ دعاء ذى النون »

وفي صحيحه أيضاً عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول « هل أدلكم على اسم الله الاعظم ؟ دعاء يونس » فقـال رجل يارسول الله هل كان ليونس خاصـة ؟ فقـال« الا تسمع قوله تعالي (١) (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) فأيما مسلم دعابها فى مرضه أربعين مرة فمـات فى مرضه ذلك أعطى أجر شهيد ، وإن برىء برىء مغفوراً له »

وفى الصحيحين من حـديث ابن عبـاس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الـكرب « لا آله الا الله العظيم الحليم، لا آله الا الله رب العرش العظيم ، لاإله الا الله رب السموات ورب الارض رب العرش الكريم »

وفى مسند الامام أحمد من حديث علي بن أبى طالب رضي الله عنه قال علمنى رسول الله ﷺ اذا نزل بى كـرب أن أقول « لاإله الله الحـليم

---

(١) سورة الانبياء

الكريم . سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم . والحمد لله رب العالمين »

وفى مسنده أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود . قال قال رسول الله ﷺ « ماأصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك . ناصيتى بيدك . ماض في حكمك . عدل في قضاؤك . أسألك اللهم بكل اسم هولك سميت به نفسك . أو علمته أحداً من خلقك . أو أنزلته فى كتابك . أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى . إلا أذهب الله همه وحزنه . وأبدله مكانه فرحا » فقيل يارسول الله : ألا نتعلمها ؟ قال.« بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها »

وقال ابن مسعود « ما كرب نبي من الانبياء إلا استغاث بالتسبيح »

وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب المجانين (١) فى الدعاء عن الحسن قال « كان رجل من اصحاب النبي ﷺ من الانصار . يكنى أبا مغلق وكان تاجراً يتجر بمال له ولغيره يضرب به فى الآفاق . وكان ناسكا ورعاً فخرج مرة فلقيه لص مقنع فى السلاح . قال له ضع مامعك فانى قاتلك قال : فما تريد الادمى ؟ فشأنك والمال . قال : أما المال فلى ولست أريد إلا دمك . قال أما إذا أبيت فذرنى أصلى أربع ركعات . قال صل ما بدا لك . فتوضأ ثم صلى اربع ركعات . فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال : ياودود . ياذا العرش المجيد . يافعال لما تريد . أسألك بعزك الذى

---

(١) كذا بالاصل : وليحرر

لايرام . وبملكك الذى لايضام . وبنورك الذى ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص . يامغيث أغثني . يامغيث أغثني . يامغيث أغثني . ثلاث مرات » فاذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه . فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله . ثم أقبل اليه فقال : قم . فقال : من أنت بأبي أنت وأمي ؟ فقد أغاثني الله بك اليوم . فقال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقعة . ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة . ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لى دعاء مكروب . فسألت الله أن يوليني قتله . قال الحسن : فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب .

فصل

وكثيراً مانجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت اجابة . ونحو ذلك . فاجيبت دعوته . فيظن الظان أن السر في لفظ ذلك الدعاء فيأخذه مجرداً عن تلك الامور التى قارنته من ذلك الداعي . وهذا كما اذا استعمل رجل دواء نافعا فى الوقت الذى ينبغي فانتفع به فظن غيره أن استعمال هذا الدواء مجرداً كاف في حصول المطلوب كان غالطاً . وهذا

موضع يغلط فيه كثير من الناس . ومن هـذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب فيظن الجاهل أن السر فى القبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ (١) الى الله . فاذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله كان افضل وأحب الى الله

فصل

والادعية والتعوذات بمنزلة السلاح . والسلاح بضاربه لابحده فقط . فمتى كان السلاح سلاحا تاما لا آفـة به ، والساعـد ساعـداً قويا ، والمانع مفقوداً . حصلت به النكاية في العدو . ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير . فان كان الدعاء فى نفسه غير صالح . أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء أو كان ثم مانع فى الاجابة لم يحصل الأثر

فصل

وههنا سؤال مشهور . وهو : ان المدعو به ان كان قـد قـدر ، لم يكن بد من وقوعه ، دعا به العبد أو لم يدع . وان لم يكن قـد قـدر ، لم يقع ، سواء سأله العبد أولم يسأله . فظنت طائفة صحـة هـذا السؤال . فتركت الدعاء . وقالت لا فائدة فيه . وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون . فان اطرد مـذهبهم لوجب تعطيل جميع الاسباب . فيقـال لاحدهم : إن كان الشبع والري قـد قدرا لك . فلا بد من وقوعهما ،

---

(١) اللجأ محركة المعقل والملاذ وهي هنا بمعنى الالتجاء

أكلت أولم تأكل . وإن لم يقدرا لم يقعا ، أكلت أولم تأكل . وإن كان الولد قد قدر لك . فلا بد منه وطئت الزوجة والامة أو لم تطأها . وإن لم يقدر لم يكن . فلا حاجة الى التزويج والتسري . وهلم جرا . فهل يقول هذا عاقل أو آدمي ؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الاسباب التى بها قوامه وحياته . فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالانعام بل هم أضل سبيلا

وتكايس بعضهم (١) وقال : الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض . يثيب الله عليه الداعى من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما . ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء والامساك عنه بالقلب واللسان فى التأثير فى حصول المطلوب . وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت ولافرق

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء . بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه أمارة على قضاء الحاجة . فتى وفق العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قضيت . وهذا كما اذا رأيت غيما أسود بارداً في زمن الشتاء . فان ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر . قالوا : وهكذا حكم الطاعات مع الثواب . والكفر والمعاصي مع العقاب ، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب ، لأنها أسباب له . وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار . والحرق مع الاحراق . والازهاق مع القتل . ليس شىء من ذلك سببا ألبتة ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب

(١) ادعى الكيس والفطانة فبالغ في التعمق في الجهل والضلال

عليه الا بمجرد الاقتران العادي لاالتأثير السببي . وخالفوا بذلك الحس والعقل والشرع والفطرة وسائر طوائف العقلاء . بل أضحكوا عليهم العقلاء

والصواب أن ههنا قسما ثالثا غير ماذكره السائل . وهو أن هذا المقدور قدر بأسباب . ومن أسبابه الدعاء . فلم يقدر مجردا عن سببه . ولكن قدر بسببه . فمتى أتي العبد بالسبب وقع المقدور . ومتى لم يأت بالسبب انتفي المقدور . وهذا كما قدر الشبع والرى بالاكل والشرب . وقدر الولد بالوطء . وقدر حصول الزرع بالبذر . وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه . وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال . ودخول النار بالأعمال . وهذا القسم هو الحق . وهذا الذى حرمه السائل ولم يوفق له . وحينئذ فالدعاء من أقوى الاسباب . فاذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لافائدة فى الدعاء كما لا يقال لا فائدة فى الاكل والشرب وجميع الحركات والأعمال . وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ فى حصول المطلوب

ولما كان الصحابة رضى الله عنهم أعلم الامة بالله ورسوله وأفقههم فى دينه . كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم . وكان عمر رضى الله عنه يستنصر به على عدوه . وكان أعظم جنده . وكان يقول للصحابة : لستم تنصرون بكثرة وانما تنصرون من السماء . وكان يقول : إني لا أحمل هم الاجابة ، ولكن هم الدعاء . فاذا ألهمت الدعاء فان الاجابة معه . وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه فقال :

لو لم ترد نيل ماأرجو وأطلبه ☆ من جود كفيك ماعلمتني الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الأجابة . فان الله سبحابه يقول (١) (ادعوني أستجب لكم) وقال (٢) (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب . أجيب دعوة الداع إذا دعان) . وفى سنن ابن ماجه من حديث ابي هريرة . قال قال رسول الله ﷺ « من لم يسأل الله يغضب عليه » وهذا يدل على أن رضاه فى سؤاله وطاعته . وإذا رضي الرب تبارك وتعالي فكل خير فى رضاه . كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه وقد ذكر الامام أحمد فى كتاب الزهد أثراً « أنا الله لآإله إلا أنا ، إذا رضيت باركت وليس لبركتى منتهي . وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد »

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الامم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والاحسان الى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الاسباب الجالبة لكل شر . فما استجابت نعم الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرب اليه والاحسان الى خلقه

وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول السرور فى الدنيا والآخرة فى كتابه على الاعمال ، ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول علي العلة ، والمسبب على السبب . وهذا فى القرآن يزيد على ألف موضع ، فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعى علي الوصف المناسب له كقوله تعالى (٣) (فلما عتوا عما نهوا عنه

(١) سورة غافر (٢) سورة البقره (٣) سوره الاعراف

قلنا لهم كونوا قردة خاسئين)وقوله (١) (فلما آسفونا (٢) انتقمنا منهم) وقوله (٣) (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا) وقوله (٤) (إن المسلمين والمسلمات ـ الى قوله ـ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما)وهذا كثير جدا ، وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى (٥) (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم) وقوله (٦) (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً) وقوله (٧) (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين) ونظائره . وتارة يأتى بلام التعليل كقوله (٨) (ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب) وقوله (٩) (لتكونوا شهداء علي الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) . وتارة يأتى باداة كي التى للتعليل كقوله (١٠) (كيلا يكون دولة (١١) بين الاغنياء منكم) وتارة يأتى بباء السببية كقوله تعالى (١٢) (ذلك بما قدمت أيديكم) وقوله (١) (بما كنتم تعملون) و (بما كنتم تكسبون)(١٣) وقوله (١٢) (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) وتارة يأتى بالمفعول لاجله ظاهراً أو محذوفاً كقوله (٩) (فرجل

---

(١) سورة الزخرف (٢) أي أغضبونا (٣) سورة المائدة
(٤) سورة الاحزاب (٥) سورة الأنفال (٦) سورة الجن
(٧) سورة التوبة (٨) سورة ص (٩) سورة البقرة
(١٠) سورة الحشر (١١) الدولة فى المال بضم الدال أن يكون بينهم يتداولون يكون مرة لهذا ومرة لهذا (١٢) سورة آل عمران
(١٣) سورة يونس

وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل (١) إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) وكقوله تعالى (٢) (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) وقوله ٣ (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) أى كراهة أن تقولوا ، وتارة يأتى بفاء السببية كقوله ٤ (فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) وقوله ٥ (فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية (٥)) وقوله (٦) (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) ونظائره وتارة يأتى بأداة لما الدالة على الجزاء كقوله ٧ (فلما آسفونا انتقمنا منهم) ونظائره . وتارة يأتى بإن وما عملت فيه كقوله ٨ (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات) وقوله فى ضد هؤلاء ٨ (انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) وتارة يأتى باداة لولا الدالة على ارتباط ماقبلها بما بعدها كقوله (٩) (فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) . وتارة يأتى بلو الدالة على الشرط كقوله (١٠) (ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم)

وبالجملة فالقرآن من أوله الى آخره صريح فى ترتب الجزاء بالخير والشر والاحكام الكونية والامرية على الاسباب . بل ترتب احكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الاسباب والاعمال . ومن تفقه فى

---

١ أي تنسى ٢ سورة الاعراف ٣ سورة الانعام
٤ سوره الشمس ٥ سورة الحاقة ٦ سورة المؤمنون
٧ سوره الزخرف ٨ سورة الانبياء ٩ سوررة الصافات
١٠ سورة النساء

هذه المسئلة وتأملها حق التأمل انتفع بها غايه النفع ولم يتكل علي القدر جهلا منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة فيكون توكله عجزاً وعجزه توكلا . بل الفقيه كل الفقيه الذى يرد القدر بالقدر . ويدفع القدر بالقدر . ويعارض القدر بالقدر بل لايمكن الانسان ان يعيش إلابذلك . فان الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر . والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الاخروية بقدر التوبة والايمان والأعمال الصالحة . فهذا هو القدر المخوف (١) فى الدنيا وما يضاده . فرب الدارين واحد وحكمته واحدة . لايناقض بعضها بعضاً . ولا يبطل بعضها بعضاً . فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها ، والله المستعان

لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه (أحدهما) أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير . ويكون له نصيره فى ذلك بما شهده في العالم . وبما جربه فى نفسه وغيره . وما سمعه من أخبار الامم قديمًا وحديثاً . ومن أنفع ماقى ذلك تدبر القرآن ، فانه كفيل بذلك على أكمل الوجوه . وفيه أسباب الخير والشر جميعًا مفصلة مبينة . ثم السنة ، فانها شقيقة القرآن . وهي الوحى الثانى . ومن صرف اليها عنايته اكتفى عن غيرهما . وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما حتى كانك تعاين ذلك عيانًا . وبعد ذلك . فاذا تأملت أخبار الامم وأيام الله فى أهل طاعته وأهل معصيته . طابق ذلك ماعلمته من القرآن والسنة . ورأيته بتفاصيل ماأخبر الله به ووعد به . وعلمت من آياته فى الآفاق مايدلك

(١) الذى يؤتى من

على أن القرآن حق . وأن الرسول حق . وأن الله ينجز وعده لامحالة . فالتاريخ تفصيل لجزئيات ماعرفنا الله ورسوله من الاسباب الكليه للخير والشر .

فصل

(الأمر الثاني) أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب . وهذا من أهم الأمور فان العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولابد . ولكن تغالطه نفسه ، بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة ، وبالتسويف بالتوبة والاستغفار باللسان تارة . وبفعل المندوبات تارة . وبالعلم تارة (١) . وبالاحتجاج بالقدر تارة . وبالاحتجاج بالاشباه والنظراء تارة . وبالاقتداء بالأكابر تارة (٢)

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل مافعل ثم قال أستغفر الله ، زال أثر الذنب وراح هذا بهذا . وقال لى رجل من المنتسبين الى الفقه : أنا أفعل ماأفعل ثم أقول : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، وقد غفر ذلك أجمعه . كما صح عن النبي ﷺ أنه قال « من قال فى يوم سبحان الله وبحمده مائه مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » وقال آخر من أهل مكة : نحن أحدنا إذا فعل مافعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعا(٣)

---

(١) أى بما تعلم من علم يظن معه أنه ذو منزلة لاتلحقه معها تبعة وأنه مغفور له (٢) بالاكابر المفتونين بحب الرئاسة والجاه الذين يختلون الدنيا بالدين الذين قال الله فيهم (وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) (٣) أي سبع مرات

قد محي عنه ذلك . وقال لي آخر : قد صح عن النبي ﷺ أنه قال « أذنب عبد ذنباً فقال أي (١) رب أصبت ذنباً فاغفر لى فغفر الله ذنبه . ثم مكث ماشاء الله ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أي رب أصبت ذنباً فاغفرلى فقال الله عز وجل علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى فليصنع ماشاء » وقال أنا لا أشك أن لى رباً يغفر الذنب ويأخذ به. وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكل عليها وتعلق بها بكلتا يديه . وإذا عوتب علي الخطايا والانهماك فيها سرد لك مايحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته و نصوص الرجاء . وللجهال من هذا الضرب من الناس فى هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم :

وكثر ماستطعت من الخطايا * إذا كان القدوم علي كريم

وقول بعضهم : التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله . وقال الآخر : ترك الذنوب جراءة علي مغفرة الله واستصغار لها . وقال محمد ابن حزم : رأيت بعض هؤلاء من يقول في دعائه : اللهم انى أعوذ بك من العصمة . ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر . وان العبد لافعل له ألبتة ولا إختيار . وإنما هو مجبور على فعل المعاصى . ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الارجاء . وأن الايمان هو مجرد التصديق ، والاعمال ليست من الايمان ، وأن ايمان أفسق الناس كايمان جبريل وميكائيل . ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين ، وكثرة التردد إلى قبورهم ، والتضرع اليهم ، والاستشفاع بهم ، والتوسل

(١) أى مثال كي حرف ينادى به القريب دون البعيد

الى الله بهم ، وسؤاله بحقهم عليه ، وحرمتهم عنده ، ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه . وأن لهم عند الله مكانته وصلاحا ، فلا يدعون أن يخلصوه . كما يشاهد فى حضرة الملوك . فان الملوك تهب لخواصهم ذنوب أبنائهم وأقاربهم . وإذا وقع أحد منهم فى أمر مفظع خلصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته . ومنهم من يغتر بان الله عز وجل غنى عن عذابه ، وعذابه لايزيد في ملكه شيئاً . ورحمته له لاتنقص من ملكه شيأ فيقول : أنا مضطر إلى رحمته وهو أغنى الاغنياء . ولو أن فقيراً مسكيناً مضطراً الى شربة ماء عند من فى داره شط يجري لما منعه منها ، فالله أكرم وأوسع . فالمغفرة لاتنقصه شيئاً . والعقوبه لاتزيد فى ملكه شيئاً . ومنهم من يغتر بفهم فاسد فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة. فاتكلوا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى (١) (ولسوف يعطيك ربك فترضى) قال وهو لا يرضى أن يكون فى النار أحد من أمته . وهذا من أقبح الجهل وأبين الكذب عليه . فانه ﷺ يرضى بما يرضى به ربه عز وجل . والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمه والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر . فحاشا رسوله أن يرضى بما لا يرضى به ربه تبارك وتعالى . وكاتكال بعضهم على قوله تعالى (٢) (ان الله يغفر الذنوب جميعاً) هذا أيضاً من أقبح الجهل . فان الشرك داخل فى هذه الآية وهو رأس الذنوب وأساسها . ولاخلاف أن هذه الآية في حق التائبين . فانه يغفر ذنب كل تائب أي ذنب كان . ولو كانت الآية في حق غير التائبين

---

١ سورة الضحى ٢ سورة الزمر

لبطلت نصوص الوعيد كلها . وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة . وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه . فانه سبحانه ههنا عمم وأطلق فعلم أنه أراد التائبين وفى سورة النساء خصص وقيد فقال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر مادونه . ولو كان هذا فى حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى (١) (ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم) فيقول : كرمه (٢) وقد يقول بعضهم أنه لقن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح . وانما غره به الغرور ؛ وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه . وأتى سبحانه بلفظ الكريم ، وهو السيد العظيم المطاع النسيء لا ينبغي الاغترار به ، ولا إهمال حقه . فوضع هذا المغتر الغرور فى غير موضعه . واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به . وكاغترار بعضهم بقوله تعالى فى النار (٣) (لا يصلاها (٤) إلا الأشقي الذى كذب وتولى) وقوله (٥) (أعدت للكافرين) ولم يدر هذا المغتر أن قوله (٣) (فأنذرتكم ناراً (٦) تلظى) هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم . ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها بل قال (لا يصلاها الا الاشقى) ولا يلزم من عدم صليها . عدم دخولها فان الصلي أخص من الدخول ، ونفي الاخص لا يستلزم نفي الاعم . ثم هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها لعلم أنه غير داخل فيها

---

١ سورة الانفطار ٢ أي غرني كرمه ٣ سورة الليل
٤ صليت اللحم وغيره من باب رمي شويته ٥ سورة البقرة
٦ التلظاء النار التهابها

فلا يكون مضمونا له ان (١) يجنبها

وأما قوله فى النار أعدت للكافرين فقد قال فى الجنة (٢) (أعدت للمتقين) ولا ينافي إعداد النار للكافرين أن تدخلها الفساق والظلمة . ولا ينافى إعداد الجنة للمتقين إن يدخلها من فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ولم يعمل خيراً قط .

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء أو يوم عرفة حتى يقول بعضهم : يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها ويبقى صوم عرفة زيادة فى الأجر . ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء . وهي إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر . فرمضان والجمعة إلى الجمعة لا يقويان على تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر اليها . فيقوى بمجموع الأمرين على تكفير الصغائر . فكيف يكفر صوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مصر عليها غير تائب منها . هذا محال . على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفر لجميع ذنوب العام على عمومه . ويكون من نصوص الوعد التى لها شروط وموانع . ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير . فاذا لم يصر على الكبائر تساعد الصوم وعدم الاصرار . وتعاونا علي عموم التكفير . كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين علي تكفير الصغائر . مع أنه سبحانه قد قال(٣) (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر

---

(١) ينحي عنها (٢) سورة آل عمران (٣) سورة النساء

عنكم سيئاتكم) فعلم أن جعل الشيء سببا للتكفير لايمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التفكير ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما وكلما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل . وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ حاكيا عن ربه « أنا عند حسن ظن عبدى بي،فليظن بي ماشاء » يعنى ما كان فى ظنه فأنا فاعله به ، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الاحسان فان المحسن حسن الظن بربه أن يجازيه علي إحسانه . ولا يخلف وعده، ويقبل توبته ، وأما المسيء المصر علي الكبائر والظلم والمخالفات ، فان وحشة المعاصي والظلم والجرام تمنعه من حسن الظن بربه ، وهذا موجود في المشاهدة فان العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لايحسن الظن به . ولا يجامع وحشة الاساءة إحسان الظن أبداً . فان المسيء مستوحش بقدر إساءته وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له . كما قال الحسن البصري : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل . وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

فكيف يكون حسن الظن بربه من هو شارد عنه ،حال مرتحل فى مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته ، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه ؟ وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة . وعادى أولياءه ووالى أعداءه . وجحد صفات كماله ، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رسله ، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر ؟ وكيف يحسن الظن به من يظن أنه لايتكلم

ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب . وقد قال الله فى حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات وهو السر من القول (١) (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لايعلم كثيراً مما يعملون . كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن . وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله . ووصفه بمالا يليق به . فاذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه . وتسويلاً من الشيطان . لااحسان ظن بربه

فتأمل هذا الموضع وتأمل شدة الحاجة اليه . وكيف يجتمع فى قلب العبد تيقنه بانه ملاقى الله وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه . ويعلم سره وعلانيته . ولا يخفى عليه خافيه من أمره . وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ماعمل . وهو مقيم علي مساخطه . مضيع لاوامره معطل لحقوقه . وهو مع هذا يحسن الظن به وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الاماني . وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف دخلت أنا وعروة بن الزبير علي عائشة رضى الله عنها فقالت : لو رأيتما رسول الله ﷺ فى مرض له ، وكانت عندى ستة دنانير أو سبعة . فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها . قالت فشغلنى وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله . ثم سألنى عنها فقال «مافعلت؟ أكنت فرقت الستة الدنانير ؟ » فقلت : لا والله ، لقد كان شغلنى وجعك . قالت فدعا بها فوضعها في كفه . فقال « ماظن نبي الله لو لقى الله وهذه عنده ؟ » وفى لفظ « ماظن محمد

(١) سورة فصلت

بربه لو لقى الله وهذه عنده ؟ » فيالله ماظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم . فان كان ينفعهم قولهم حسنا ظنونا بك فلم يعذب ظالم ولا فاسق . فليصنع العبد ماشاء . وليرتكب كل ما نهاه الله عنه . وليحسن ظنه بالله فان النار لاتمسه . فسبحان الله؟! مايبلغ الغرور بالعبد. وقد قال إبراهيم لقومه (١) ءإفكا (٢) آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين) أى ماظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه . فان العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه . فالذى حمله علي العمل حسن الظن . فكلما حسن ظنه حسن عمله. والافحسن الظن مع اتباع الهوى عجز . كما فى الترمذى والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ « الكيس (٣) من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والعاجز من أتبع نفسه هواها . وتمنى على الله »

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة . وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى احسان الظن

فان قيل : بل يتأتى ذلك . ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده . وأن رحمته سبقت غضبه . وأنه لاتنفعه

---

(١) سوره الصافات (٢) الافك الكذب ٣ الكيس بتشديد الياء من الكيس بوزن الكيل ضد الحمق

العقوبة ولا يضره العفو . قيل : الامر هكذا . والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم . ولكن إنما يضع ذلك فى محله اللائق به فانه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة . فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك فى ذلك البر والفاجر والمؤمن والكافر ، ووليه وعدوه . فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه . وتعرض للعنته . ووقع فى محارمه وانتهك حرماته بل حسن الظن ينفع من تاب وندم واقلع وبدل السيئة بالحسنة . واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة . ثم احسن الظن . فهذا حسن ظن ، والاول غرور . والله المستعان

ولا تستطل هذا الفصل فان الحاجة اليه شديدة لكل أحد . ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به : قال الله تعالى (١) (ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) فجعل هؤلاء أهل الرجاء لاالظالمين والفاسقين : وقال تعالي (٢) (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) فاخبر سبحانه أنه بعد هذه الاشياء غفور رحيم لمن فعلها فالعالم يضع الرجاء مواضعه والجاهل المغتر يضعه فى غير مواضعه

فصل

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا

(١) سورة البقرة ٢ سورة النحل

أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب . وأنه لايرد بأسه عن القوم المجرمين . ومن اعتمد على العفو مع الاصرار على الذنب فهو كالمعاند . وقال معروف : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق . وقال بعض العلماء : من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لاتأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا ،وقيل للحسن نراك طويل البكاء فقال : أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي . وسأل رجل الحسن ، فقال : ياأبا سعيد . كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تنقطع ؟ فقال : والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمنَا خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف . وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه (١) فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه فيطوف به أهل النار فيقولون : يافلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » وذكر الامام أحمد من حديث أبي رافع . قال : مر رسول الله ﷺ بالبقيع . فقال « أف لك أف لك » فظننت أنه يريدني . قال « لا ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً الي آل فلان فغل نمرة (٢) فدرع الآن مثلها من نار » وفي مسنده أيضاً من حديث أنس بن مالك . قال قال رسول الله ﷺ « مررت

---

١ الأقتاب الأمعاء واحدها قتب بالكسر ٢ غل من المغنم خان والنمرة بردة من صوف تلبسها الاعراب ودرع مثلها اي قمص وألبس

ليلة أسرى بي علي قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار . فقلت من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء من أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون » وفيه أيضاً من حديثه . قال قال رسول الله ﷺ « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم . فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ فقال : « هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » وفيه أيضاً عنه . قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول « يامقلب القلوب والابصار ثبت قلبي على دينك » فقلنا يارسول الله . آمنا بك وبما جئت به . فهل يخاف علينا ؟ قال « نعم ان القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء » وفيه أيضا عنه أن رسول الله ﷺ قال لجبريل « مالى لم أر ميكائيل ضاحكا قط ؟ قال : ماضحك منذ خلقت النار » وفى صحيح مسلم عنه قال قال رسول الله ﷺ « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ (١) في النار صبغة . ثم يقال له : ياابن آدم ؟ هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى باشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة . فيصبغ فى الجنة صبغة . فيقال له : ياابن آدم ؟ هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول . لا والله يارب مامر بي بؤس قط . ولا رأيت شدة قط » وفى المسند من حديث البراء بن عازب . قال خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا الى القبر ولما يلحد . فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤسنا

---

١ يغمس فيها لهم

الطير . وفي يده عود ينكت به فى الارض . فرفع رأسه فقال «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثا . ثم قال «ان العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كان وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان أهل الجنة. وحنوط (١) من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر . ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه . فيقول . اخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان . فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء (٢) فيأخذها . فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به الي سماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التي تليها حتى ينتهي به الى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه الى الأرض فاني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال : فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول :ربي الله عز وجل ، فيقولان له ما دينك ؟ فيقول : ديني الاسلام . فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو محمد رسول الله . فيقولان له وما علمك ؟

١ الحنوط ذريرة يحنط بها الميت ٢ من فم السقاء والسقاء للبن والماء والقربة للماء فقط.

فيقول : قرأت كتاب الله عز وجل فآمنت به وصدقت ، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً الى الجنة . قال : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره.قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير ؟ فيقول أنا عملك الصالح فيقول : رب أقم الساعة ثم رب أقم الساعة حتى أرجع الى أهلي ومالي . قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل اليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح (١) فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي الى سخط من الله وغضب قال : فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود (٢) من الصوف المبتل ، فيأخذها. فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الارض . فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة الاقالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ (٣) (لا تفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله عز وجل :

---

١ جمع مسح وهو ثوب من الشعر غليظ ٢ السفود بوزن التنور حديدة مدببة يسوي بها اللحم ٣ سورة الاعراف

اكتبوا كتابه فى سجين فى الارض السفلى . فتطرح روحه طرحاً . ثم قرأ (١) (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح فى مكان سحيق) فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري . فيقولان له ما دينك ؟ فيقول هاه هاه؛ لا أدري فيقولان له: ماهذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدرى فينادى مناد من السماء : أن كذب عبدى ، فافرشوا له من النار (٢) وافتحوا له باباً الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه (٣) ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح . فيقول : أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول : ومن أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالشر فيقول انا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة» وفى لفظ لأحمد أيضا ثم يقيض له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبلا كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء الا الثقلين » قال البراء : ثم يفتح له باب الى النار ويمهد له فرش من النار

وفى المسند أيضا عنه قال « بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة فقال « علام اجتمع هؤلاء ؟ فقيل : على قبر يحفرونه . ففزع رسول الله ﷺ فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى الى القبر فجثا على ركبتيه فاستقبلته من بين يديه لانظر ما يصنع ، فبكى حتى بل الثرى من

١ سورة الحج ٢ وفى نسخة في النار ٣ وفي نسخة تختلف اضلاعه

دموعه . ثم أقبل علينا فقال « أى أخوانى ، لمثل هذا اليوم فأعدوا »

وفى المسند من حديث بريدة قال : خرج الينا رسول ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات « ياأيها الناس ، أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم . فقال « إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم فأبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه : أيها الناس أتيتم أيها الناس أتيتم ثلاث مرات »

وفى صحيح مسلم من حديث جابر قال . قال رسول الله ﷺ « كل ما أسكر حرام وإن على الله عزوجل عقداً لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال » قيل : وما طينة الخبال ؟ قال « عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار »

وفي المسند أيضاً من حديث أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ « إني أرى مالا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت (١) السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع الا وعليه ملك يسبح الله ساجداً . لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات (٢) تجأرون الى الله تعالى » قال أبو ذر : والله لوددت أنى شجرة تعضد (٣)

وفى المسند أيضاً من حديث حذيفة : كنا مع رسول الله ﷺ فى

---

١ الاطيط صوت الاقتاب . وأطيط الجمال صوتها وحنينها أي ان كثرة مافيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت ٢ الصعدات هي الطرق وهي فناء الدار وممر الناس بين يديه ٣ العضد القطع

جنازة فلما انتهينا الى القبر قعد على ساقيه فجعل يردد بصره فيه ثم قال : « يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله (١) ويملأ على الكافر ناراً» والحمائل عروق الأنثيين (١)

وفى المسند أيضاً من حديث جابر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ الي سعد بن معاذ حين توفى فلما صلي عليه رسول الله ﷺ ووضع فى قبره وسوي عليه سبح رسول الله ﷺ فسبحنا طويلا . ثم كبر فكبرنا . فقيل يارسول الله لم سبحت ثم كبرت ؟ فقال « لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرج الله عنه »

وفى صحيح البخاري من حديث ابي سعيد قال قال رسول الله ﷺ « إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم فان كانت صالحة قالت قدموني قدموني ، وان كانت غير صالحة قالت : ياويلها ، أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الانسان ولو سمعها الانسان لصعق

وفى مسند أحمد من حديث أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد في حرها كذا وكذا. تغلى منها الرؤس كما تغلى القدور ويعرقون فيها على قدر خطاياهم . منهم من يبلغ إلى كعبه ، ومنهم من يبلغ الى سافيه ، ومنهم من يبلغ الى وسطه ومنهم من يلجمه العرق »

وفيه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا »

---

١ وقيل مواضع حمائل السيف أى عواتقه وصدره وأضلاعه

وفي المسند أيضاً عن ابن عمر يرفعه « من تعظم فى نفسه أو اختال فى مشيته لقي الله وهو عليه غضبان

وفى الصحيحين عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ان المصورين يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم »

وفيه أيضاً عنه عن النبي ﷺ « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده من الغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة : »

وفيهما أيضاً عنه عن النبي ﷺ « إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار فى النار جيء بالموت حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد ياأهل الجنة خلود ولاموت . وياأهل النار خلودولاموت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرحهم . ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم »

وفى المسند عنه قال « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه » (١) ثم أدخل أصبعيه فى أذنيه ثم قال . صمتاً (٢) إن لم أكن سمعت النبي ﷺ يقوله

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال « من ترك الصلاة سكراً مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها . ومن

---

(١) هذا الحديث ذكره الحافظ الذهبى في الميزان والحافظ بن حجر في اللسان من رواية عبد الله بن ايوب بن أبى علاج وهو كذاب

(٢) بضم الصاد وتشديد الميم

ترك الصلاة سكراً أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قيل وما طينة الخبال يارسول الله ؟ قال « عصارة أهل جهنم »

وفيه أيضاً عنه مرفوعا « من شرب الخمر شربة لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً . فان تاب تاب الله عليه » فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال « فان عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة (١) الخبال يوم القيامة »

وفي المسند أيضاً من حديث أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ « من مات مدمنا للخمر سقاه الله من نهر الغوطة » قيل وما نهر الغوطة؟ قال « نهر يجرى من فروج المؤمنات يؤذي أهل النار ريح فروجهن »

وفيه أيضاً عنه قال قال رسول الله ﷺ « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات . فأما عرضتان لجدال ومعاذير . وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الايدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله »

وفي المسند أيضاً من حديث ابن مسعود أن وسول الله ﷺ قال « اياكم ومحقرات الذنوب ، فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالبعرة حتى جمعوا سواداً (٢) وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها »

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « يضرب الجسر على جهنم فأكون أول من يجوز . ودعوة الرسل يومئذ

---

(١) ردغة الخبال الردغة الطين والوحل وهي عصارة أهل النار

(٢) أي كوما عظيما

اللهم سلم سلم وعلى حافتيه كلا ليب مثل شوك السعدان تختطف الناس بأعمالهم فنهم الموثق بعمله ومنهم المخدوش ثم ينجو حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوه فيعرفونه بعلامة أثر السجود وحرم الله أن تأكل من ابن آدم أثر السجود فيخرجونهم وقد امتحشوا (١) فيصب عليهم من ماء يقال له ماء الحياة فينبتون نبات الحبة(٢) فى حميل السيل»

وفي صحيح مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ان أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها؟ قال قاتلت فيك حتى قتلت. قال كذبت ولكن قاتلت ليقال هو جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. فقال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال هو عالم. فقد قيل، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار. ورجل وسع الله عليه رزقه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ فقال

---

(١) أي احترقوا والمحش احتراق الجلد وظهور العظم

(٢) الحبة بكسر الحاء بزور البقول وحب الرياحين وقيل هو نبت صغير ينبت فى الحشيش فاما الحبة بالفتح فهي الحنطة والشعير ونحوها

ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، وفى لفظ، فهؤلاء أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»

وسمعت شيخ الاسلام يقول: كما أن خير الناس الأنبياء فشر الناس من تشبه بهم من الكذابين وادعى أنه منهم وليس منهم. فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون. وشر الناس من تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ «من كانت عنده لأخيه مظلمة فى مال أو عرض فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار ولا درهم فان كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا والا أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه ثم طرح فى النار»

وفى الصحيح من حديث أبي هريرة عنه ﷺ «من أخذ شبراً من الارض بغير حقه خسف به يوم القيامة الى سبع أرضين»

وفى الصحيحين عنه قال قال رسول الله ﷺ «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا والله ان كانت لكافية قال «فانها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها»

وفى المسند عن معاذ قال: أوصاني رسول الله ﷺ فقال «لا تشرك بالله شيئاً وان قتلت او حرقت. ولا تعقن والديك وان أمراك أن تخرج من مالك وأهلك ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا، فان من ترك صلاة

مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله . ولاتشرب خمراً ، فانه رأس كل فاحشة . وإياك والمعصية ، فان المعصية تحل سخط الله »

والاحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ماذكرنا فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعامى عنها ويرسل نفسه فى المعاصى ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن. قال أبو الوفاء ابن عقيل : احذر ولا تغتر ، فانه قطع اليد فى ثلاثة دراهم وجلد الحد في مثل رأس الابرة من الخمر . وقد دخلت المرأةالنار فى هرة. واشتعلت الشملة ناراً على من غلها وقد قتل شهيداً . وقال الامام أحمد حدثنا معاوية حدثنا الاعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال « دخل رجل الجنة فى ذباب ودخل رجل النار فى ذباب » قالوا وكيف ذلك يارسول الله ؟ « قال مر رجلان على قوم لهم صنم لايجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً . فقالوا لاحدهما: قرب فقال ليس عندى شيء قالوا قرب ولوذبابا . فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار. وقالوا للآخر : قرب فقال ما كنت لأقرب شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة » وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوي بها فى النار أبعد مابين المشرق والمغرب ؛ وربما اتكل بعض المغترين على مايري من نعم الله عليه فى الدنيا وأنه يغتر به ويظن أن ذلك من محبة الله له وأنه يعطيه فى الآخرة أفضل من ذلك فهذا من الغرور . قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال « إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فانما هو استدراج » ثم

تلى قوله عز وجل (١) (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) وقال بعض السلف: إذا رأيت الله عز وجل يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به. وقد قال تعالى (٢) (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا. والآخرة عند ربك للمتقين» وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله (٣) (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر (٤) عليه رزقه فيقول ربي أهانن، كلا) أي ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد اهنته بل أبتلي هذا بالنعم وأكرم هذا بالابتلاء. وفي جامع الترمذي عنه ﷺ «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطي الايمان إلا من يحب وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم. ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم

---

(١) المبلس الساكت من الخوف والابلاس الحيرة. والآية من سورة الانعام
(٢) سورة الزخرف (٣) سورة الفجر (٤) قدر مثل قتر لفظا ومعنى من التقتير وهو التضييق

فصل

وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها فآثرها على الآخرة ورضي بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء : الدنيا نقد والآخرة نسيئة ، والنقد أنفع من النسيئة . ويقول بعضهم : ذرة منقودة ولا درة موعودة . ويقول آخر منهم : لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة مشكوك فيها ، ولا أدع اليقين للشك . وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله. والبهائم العجم أعقل من هؤلاء فان البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضربت ، وهؤلاء يقدم أحدهم على مافيه عطبه وهو ينظر اليه وهو بين مصدق ومكذب . فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء فهو من أعظم الناس حسرة لانه أقدم على علم. وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له

وقول هذا القائل النقد خير من النسيئة فجوابه : انه اذا تساوي النقد والنسيئة فالنقد خير . وان تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير . فكيف والدنيا كلها من أولها الي آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة كما فى مسند أحمد والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال قال رسول الله ﷺ « ماالدنيا فى الآخرة الا كما يدخل أحدكم اصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع » فايثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل . واذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها الى الآخرة فما مقدار عمر الانسان بالنسبة الي الآخرة فأيما أولى بالعاقل ؟ إيثار

العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم في الآخرة ؟ أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ مالاقيمة له ولا خطر له ولا نهاية لعدده ولاغاية لأمده ؟

وأما قول الآخر : لا أترك متيقناً لمشكوك فيه فيقال له : إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله أو تكون على اليقين من ذلك فان كنت علي اليقين فما تركت الا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب لأنه متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له . وان كنت علي شك فتأمل آيات الرب تعالى الدالة علي وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به عنه ، وتجرد وقم لله ناظراً أو مناظراً حتى يتبين لك ان ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذى لاشك فيه وأن خالق هذا العالم هو رب السموات والارض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه . ومن نسبه الى غير ذلك فقد شتمه وكذبه وأنكر ربوبيته وملكه . إذ من المحال المتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزاً أو جاهلا لا يعلم شيئا ، ولا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يتكلم ، ولا يأمر ، ولا ينهي ، ولا يثيب ولا يعاقب ، ولا يعز من يشاء ، ولا يذل من يشاء ، ولا يرسل رسله الى أطراف مملكته ونواحيها ، ولا يعتنى باحوال رعيته ، بل يتركهم سدى ويخليهم هملا . وهذا يقدح فى ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق ، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين اليه ؟

وإذا تأمل الانسان حاله من مبدأ كونه نطفة الى حين كماله واستوائه

تبين له أن من عني به هذه العناية و نقله إلى هـذه الأحـوال، وصرفه في هـذه الأطوار لايليق به أن يهمله ويتركه سـدى لايأمره ولا ينهاه ولا يعرفه بحقوقه عليه ولا يثيبه ولا يعاقبه . ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل مايبصره وما لايبصره دليلا له علي التوحيد والنبوة والمعاد وأن القرآن كلامه . وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب أيمان القرآن عند قوله (١) (فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون إنه لقول رسول كريم) وذكرنا طرفا من ذلك عند قوله (٢) (وفي أنفسكم افلا تبصرون) وأن الانسان دليل نفسه على وجود خالقه وتوحيده وصدق رسله وإثبات صفات كماله .

فقد بان بان المضيع مغرور على التقديرين: تقدير تصديقه ويقينه ، و تقدير تكذيبه وشكه

فان قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذى لاشك فيه بالمعاد و الجنة والنار ويتخلف العمل ؟ وهل فى الطباع البشرية ان يعلم العبد انه مطلوب غدا الى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أسد عقوبه ، أو يكرمه أتم كرامة . و يبيت ساهيا غافلا لا يتذكر موقفه بين يدي الملك ولا يستعد له ولا يأخذ له أهبة؟ قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد علي أكثر هذا الخلق. واجتماع هذين الامرين من أعجب الاشياء ، وهذا التخلف له عدة أسباب : أحدها ضعف العلم و نقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد

(١) فى سورة الحاقة (٢) في سورة الذاريات

الاقوال وابطلها : وقد سأل ابراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتي عيانا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك ليزداد طمأنينة ويصير المعلوم غيبا شهادة. وقد روي أحمد فى مسنده عن النبي ﷺ انه قال « ليس الخبر كالمعاينة» فاذا اجتمع الي ضعف العلم عدم استحضاره أوغيبته عن القلب كثيرا من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده ، وانضم الى ذلك تقاضي الطبع وغلبات الهوي واستيلاء الشهوة وتسويل النفس وغرور الشيطان واستبطاء الوعد وطول الامل ورقدة الغفلة وحب العاجلة ورخص التأويل وإلف العوائد. فهناك لايمسك الايمان فى القلب الا الذى يمسك السموات والارض أن تزولا . وبهذا السبب يتفاوت الناس فى الايمان والاعمال حتي ينتهي الى أدنى مثقال ذرة فى القلب . وجماع هذه الاسباب يرجع الى ضعف البصيرة والصبر . ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين وجعلهم أئمة فى الدين فقال تعالي(١) (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

فصل

وقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور وان حسن الظن ان حمل على العمل وحث عليه وساعده وساق اليه فهو صحيح ، وان دعا الي البطالة والانهماك فى المعاصي فهو غرور ، وحسن الظن هو الرجاء . فمن كان رجاؤه جاذباً له إلى الطاعة زاجراً له عن المعصية فهو رجاء صحيح .ومن كانت بطالته رجاء ورجاؤه بطالة وتفريطا فهو المغرور . ولو أن رجلا كانت له

(١) في سورة السجدة

أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ماينفعه فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها وأحسن ظنه بأنه يأتى من مغلها ما يأتى من غير حرث وبذر وسقى وتعاهد للأرض لعده الناس من أسفه السفهاء. وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاءه بانه يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام عليه. وأمثال ذلك. فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب الي الله تعالي بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. وبالله التوفيق. وقد قال الله تعالي(١) (ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) فتأمل كيف جعل رجاءهم باتيانهم بهذه الطاعات. وقال المغترون ان المفرطين المضيعين لحقوق الله المعطلين لاوامره الباغين علي عباده المتجرئين علي محارمه أولئك يرجون رحمة الله. وسر المسئلة ان الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الاتيان بالاسباب التي اقتضتها حكمة الله فى شرعه وقدره وثوابه وكرامته فيأتى العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لايكله اليها وأن يجعلها موصلة الي مابنفعه ويصرف مايعرضها للحبوط ويبطل أثرها

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: أحدها محبته مايرجوه. الثاني خوفه من فواته. الثالث سعيه في تحصيله بحسب

(١) في سورة البقره

الامكان . وأما رجاء لايقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني . والرجاء شيء والاماني شيء آخر . فكل راج خائف. والسائر على الطريق اذا خاف أسرع السير مخافة الفوات . وفى جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من خاف أدلج (١) ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألاإن سلعة الله الجنة » وهو سبحانه كما جعل الرجاء لاهل الاعمال الصالحة فكذلك جعل الخوف لاهل الاعمال الصالحة فعلم ان الرجاء والخوف النافع هو مااقترن به العمل قال الله تعالى (٢) (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لايشركون . والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) وقد روى الترمذي فى جامعه عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ فقال « لاياابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لايتقبل منهم . أولئك يسارعون فى الخيرات » وقد روي من حديث أبي هريرة أيضا . والله سبحانه وصف أهل السعادة بالاحسان مع الخوف ووصف الاشقياء بالاساءة مع الامن . ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخوف . ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن. فهذا الصديق(٣) يقول: وددت اني شعرة فى جنب عبد مؤمن . ذكره أحمد

---

(١) الادلاج السير بالليل (٢) سورة المؤمنون (٣) أبو بكر رضي الله عنه

عنه. وذكر عنه أيضاً انه كان يمسك بلسانه ويقول: هـذا الذي أوردني الموارد(١) وكان يبكي كثيراً ويقول: أبكوا فان لم تبكوا فتباكوا. وكان اذا قام الي الصلاة كأنه عود(٢) من خشية الله عز وجل. وأتي بطائر فأخذ يقلبه ثم قال: ما صيد من صيد ولا قطعت من شجرة الا بما ضيعت من التسبيح ولما احتضر قال لعائشة: يابنية اني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب(٣) وهذا العبد فأسرعي به إلى ابن الخطاب. وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد(٤) وقال قتادة: بلغنى أن أبا بكر قال ليتني خضرة تأكلني الدواب

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله (إن عذاب ربك لواقع) فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الارض عساه أن يرحمني ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي ثلاثا، ثم قضى. وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة فيبقى في البيت أياما ويعاد، يحسبونه مريضاً وكان في وجهه رضي الله عنه خطان أسودان من البكاء. وقال له ابن عباس. مصر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح وفعل وفعل. فقال: وددت اني أنجو لا أجر ولا وزر

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته وقال: لو أنني بين الجنـة والنار لا أدري الى أيتهما يؤمر بي لاخترت

---

(١) أي موارد الهلاك (٢) أي كالعود في مهب الريح من الارتجاف
(٣) الحلاب اناء يحلب فيه (٤) تقطع

أن أكون رماداً قبل أن أعلم الى أيتهما أصير

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبكاؤه وخوفه وكان يشتد خوفه من اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى قال : فاما طول الأمل فينسي الآخرة . وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق . ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة قد أسرعت مقبلة . ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا . فان اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل

وهذا أبو الدرداء كان يقول : إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لى : ياأبا الدرداء ، قد علمت ، فكيف عملت فيما علمت ؟ وكان يقول : لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة ولا شربتم شرابا على شهوة ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه ولخرجتم الى الصعدات تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم . ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل

وهذا عبد الله بن عباس كان أسفل عينيه مثل الشراك البالي من الدموع . وكان أبو ذر يقول ياليتنى كنت شجرة تعضد . وددت أني لم أخلق . وعرضت عليه النفقة فقال : عندنا عنز نحلبها وحمر (١) ننقل عليها ومحرر (٢) يخدمنا ، وفضل عباءة . وإنى اخاف الحساب فيها

وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية فلما أتى على هذه الآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) جعل

(١) جمع حمار (٢) أي عبد عتيق

يرددها ويبكي حتى أصبح

وقال أبوعبيدة بن الجراح : وددت أني كبش فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي(١)

وهذا باب يطول تتبعه قال البخارى فى صحيحه « باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لايشعر . وقال ابراهيم التيمي ما عرضت قولي على عملي الا خشيت أن أكون مكذبا . وقال ابن أبى مليكة : ادركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه مامنهم أحد يقول : انه على ايمان جبريل وميكائيل . ويذكر عن الحسن : ماخافه الامؤمن وما أمنه الا منافق . وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة : أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ ، يعنى فى المنافقين ؟ فيقول : لاولا أزكى بعدك احداً » فسمعت شيخنا يقول ليس مراده انى لاأبرىء غيرك من النفاق بل المراد اني لاأفتح علي هذا الباب فكل من سألني هل سمانى لك رسول الله ﷺ فأزكيه . قلت وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذى سأله يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب

---

(١) قد تساهل المؤلف رحمه الله في نقل هذه الآثار . وأغلب ماجاء في ذلك لايروى الا في كتب الزهد والرقائق مثل كتاب الاحياء للغزالي وكثير من الآثار التى في هذه الكتب لاتطمئن النفس اليها من الوجهة الحديثية وقد يكون عذره فى ذلك أنها في الترغيب فى الحرص الكثير على صالح العمل . ولكن من مثل هذا الباب دخل كثير من الشر والعقائد الباطلة . فليت علماء السلف رضي الله عنهم كانوا قد قفلوا هذا الباب ودققوا فى رواية مثل هذه الآثار كما كانوا يدققون في أحاديث الصلاة والزكاة وغيرها

« سبقك بها عكاشة » ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم . فكان الامساك أولى . والله أعلم

فصل

فلنرجع الى ما كنا فيه مما ذكرنا من ذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته ، فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ، ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الابدان على إختلاف درجاتها في الضرر . وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء الاسببه الذنوب والمعاصي ؟ فما الذي أخرج الابوين من الجنة،دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور الى دار الآلام والاحزان والمصائب ؟ وماالذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه ، فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها ، وباطنه أقبح من صورته وأشنع ، وبدل بالقرب بعداً ، وبالرحمة لعنة ، وبالجمال قبحاً ، وبالجنة نارا تلظى ، وبالايمان كفراً ، وبموالاة الولى الحميد أعظم عداوة ومشاقة . وبزجل [1] التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش . وبلباس الايمان لباس الكفر والفسوق والعصيان . فهان على الله غاية الهوان . وسقط من رحمته غاية السقوط . وحل عليه غضب الرب تعالي فأهواه. ومقته أكبر المقت فأرداه. فصار قوادا لكل فاسق ومجرم .

(١) الزجل بفتحتين الصوت

رضى لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة و السيادة . فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك و ارتكاب نهيك . وما الذى أغرق أهل الارض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال ؟ وما الذى سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الارض كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ودمرت مامرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للامم الى يوم القيامة ؟ وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟ وما الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فاهلكهم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من سجيل (١) السماء أمطرها عليهم . فجمع عليهم من العقوبة مالم يجمعه على أمة غيرهم، ولاخوانهم امثالها ، وما هي من الظالمين ببعيد ؟ وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل . فلما صار فوق رؤسهم أمطر عليهم ناراً تلظى ؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه فى البحر ثم نقلت أرواحهم الى جهنم ، فالاجساد للغرق والارواح للحرق ؟ وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟ وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بانواع العقوبات ودمرها تدميرا؟ وما الذى أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتي خمدوا عن آخرهم ؟ وما الذى بعث علي بنى أسرائيل قوما أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار (٢) وقتلوا الرجال وسبوا

(١) هي حجارة من طين طبخت بنار جهنم
(٢) أي تخللوها فطلبوا مافيها كما يجوس الرجل الاخبار أي يطلبها

الذراري والنساء وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال ، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فاهلكوا ماقدروا عليه وتبروا (١) ماعلوا تتبيرا ؟ وما الذي سلط عليهم بأنواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد ، ومرة بجور الملوك ومرة بمسخهم قردة وخنازير ، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى (ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب)

قال الامام أحمد حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال لما فتحت قبرس فرق بين أهلها . فبكى بعضهم الي بعض . فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكى . فقلت : ياأبا الدرداء مايبكيك فى يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله ؟ فقال : ويحك ياجبير ماأهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره ، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا الى ماتري . وقال على بن الجعد حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت ابا البختري يقول اخبرني من سمع النبي ﷺ يقول « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم . » وفى مسند أحمد من حديث أم سلمة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول « اذا ظهرت المعاصي فى أمتي عمهم الله بعذاب من عنده » فقلت يارسول الله أما فيهم يومئذ أناس صالحون ؟ قال « بلى » قلت : كيف يصنع بأولئك ؟ قال « يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون الى مغفرة من الله ورضوان » وفى مراسيل الحسن عن النبي ﷺ « لاتزال هذه الامة تحت يد الله

---

(١) تبره بشد الباء تتبيرا كسره وأهلكه

وفي كنفه (١) مالم يمالئ قراؤها امراءها (٢) ومالم يزك صلحاؤها فجارها ومالم يهن خيارها شرارها . فاذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم ثم سلط عليهم جبابرتهم فيسومونهم سوء العذاب ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر » وفى المسند من حديث ثوبان قال قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » وفيه أيضاً عنه قال قال رسول الله ﷺ « يوشك أن تداعى عليكم الامم (٣) من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها » قلنا : يارسول الله أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال « أنتم يومئذ كثير . ولكنكم غثاء (٤) كغثاء السيل . تنزع المهابة من قلوب عدوكم وتجعل فى قلوبكم الوهن » قالوا : وما الوهن ؟ قال « حب الحياة وكراهة الموت » وفي المسند من حديث أنس قال قال رسول الله ﷺ « لما عرج بي مررت بقوم لهم

---

١ أي فى حوطه وصيانته ٢ أي ساعدوهم على الباطل فكانوا منفذين له أو تاركين لما أخذ من العهد والميثاق فى بيان الحق والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولقد كثر هذا الصنف فى زمننا هذا لا كثرهم الله فاصبح أولئك المراؤن يحاولون الأمراء والعظماء من الباطل ويمهدون لهم من سبله شيئا كثيرا حتى ذهبت حرمة العلم والدين من القلوب وحقرت قيمة رجال العلم في نظر الناس بما اوقعوا انفسهم فيه من ذلك الجرم الفظيع . واخذ الناس يسلقونهم بالسنة الهزء والسخرية . الا من كان من العلماء المحسنين القائمين على الحق الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر لا تأخذهم في الله لومة لائم فما تزال حرمة اولئك مستقرة في النفوس بتوقير الله لهم

٣ أي تجتمع ويدعو بعضها بعضا ٤ الغثاء مايحمله السيل في طريقه من الأشياء الضعيفة الحقيرة التى لا تقوى على التماسك امام تيار السيل

أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ فقال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» وفي جامع الترمذى من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « يخرج فى آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين(١) ويلبسون للناس مسوك الضأن (٢) من اللين ، ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب . يقول الله عز وجل : أبى تغترون؟ أم علي تجترئون ؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيرانا » وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال قال علي « يأتى على الناس زمان لا يبقى من الاسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم يومئذ عامرة وهى خراب من الهدى . علماؤهم أشر من تحت أديم السماء . منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود » وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه « اذا ظهر الربا والزنا فى قرية أذن الله عز وجل بهلاكها » وفى مراسيل الحسن « اذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل وتحابوا بالالسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا بالارحام لعنهم الله عز وجل عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم » وفى سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال « يامعشر المهاجرين ، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن : ماظهرت

---

(١) الختل الخداع والمعنى يجعلون الدين سبيلا للدنيا وطريقاً اليها لا يقصدون به الآخرة ٢ أي جلود الضأن

الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والاوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا . ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان . وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا . ولا خفر قوم العهد(١) إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض مافى أيديهم . ومالم تعمل أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم » وفى المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ « إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيراً فقال : ياهذا اتق الله . فاذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كأنه لم يره على خطيئة بالأمس . فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . والذى نفس محمد بيده لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ولتأطرنه على الحق أطراً (٢) او ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم » وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم ابن عمرو الصنعانى قال « اوحى الله إلى يوشع بن نون اني مهلك من قومك أربعين الفاً من خيارهم وستين الفاً من شرارهم . قال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار؟ قال إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم

(١) أي نقضوا العهد الذى عاهدوا الله عليه أو الناس ٢ اي تعطفوه عليه وتحبسوه

وذكر أبو عمر ابن عبد البر عن أبي عمران قال « بعث الله عز وجل ملكين الي قرية أن دمراها بمن فيها . فوجدا فيها رجلا قائما يصلي في مسجد فقالا : يارب ان فيها عبدك فلانا يصلى فقال الله عز وجل دمراها ودمراه معهم فانه ما تمعر وجهه (١) فى قط » وذكر الحميدي عن سفيان بن عيينه قال حدثنى سفيان بن سعيد عن مسعر : أن ملكا أمر أن يخسف قرية فقال : يارب ان فيها فلاناً العابد . فأوحى الله اليه : ان به فابدأ فانه لم يتمعر وجهه فى ساعة قط»وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب ابن منبه« لما أصاب داود الخطيئة قال يارب اغفرلي . قال : قد غفرت لك وألزمت عارها بنى اسرائيل . قال : يارب، كيف وأنت الحكم العدل لاتظلم أحداً أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيري ؟ فاوحى الله اليه انك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالانكار » وذكر ابن ابي الدنيا عن أنس ابن مالك أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجل : يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة (٢ فقالت إذا استباحوا الزنا وشربوا الخمور وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل فى سمائه فقال للارض : تزلزلى بهم فان تابوا ونزعوا وإلا أهدمها عليهم » قال ياأم المؤمنين أعذاباً لهم ؟ قالت « بل موعظة ورحمة للمؤمنين ونكلا وعذاباً وسخطا على الكافرين» فقال أنس : ما سمعت حديثا بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحا منى بهذا الحديث .وذكر ابن ابى الدنيا حديثا مرسلا أن الارض

---

١ في نسخة لم يتمعر والتمعر التغير حتى يذهب مافى الوجه من اشراق وسرور ٢ في نسخة كلام في سبب الزلزلة

ترلزلت على عهد رسول الله ﷺ فوضع يده عليها ثم قال «اسكني فانه لم يأن لك بعـد » . ثم التفت الى اصحابه فقـال « إن ربكم ليستعتبكم فاعتبوه (١) ثم ترلزلت على عهد عمر بن الخطاب فقال « أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة الا عن شيء أحدثتموه والذي نفسي بيده لان عادت لا أساكنكم فيها أبداً » وفى مناقب عمر لابن أبي الدنيا ان الارض تزلزلت على عهد عمر فضرب يده (٢) عليها وقال : مالك مالك ؟ أما إنها لو كانت القيامة حدثت أخبارها سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر الا وهو ينطق » وذكر الامام أحمد عن صفية قالت زلزلت (٣) المدينة على عهد عمر فقال « ياأيها الناس ما هـذا ؟ ما أسرع ما أحدثتم. لئن عادت لاتجدونى فيها » وقال كعب «انما زلزلت الارض اذا عمل فيها بالمعاصى فترعد (٤) فرقا من الرب عز وجـل أن يطلع عليها » وكتب عمر بن عبد العزيز الى الامصار «أما بعد فان هذا الرجف شيء يعاتب (٥) الله عز وجل به العباد. وقد كتبت إلى سائر الامصار يخرجوا فى يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا . فمن كان عنده شيء فليتصدق به فان الله عز وجل قال (٦) (قد أفلح من تزكي وذكر اسم ربه فصلى) وقولوا كما قال آدم (٧) (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقولوا كما قال نوح (٨) (وإلا

---

١ أي يطلب منكم الرجوع عن الاساءة فارجعوا ٢ في نسخة بيده ٣ في نسخة تزلزلت ٤ فى نسخة فزعة ٥ في نسخة يعاقب ٦ فى سورة سبح ٧ في سورة الاعراف ٨ في سورة هود

تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وقولوا كما قال يونس (١) (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وقال الأمام أحمد حدثنا اسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الاعمش عن عطاء بن ابى رباح عن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة (٢) واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد فى سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » ورواه أبو داود باسنادحسن .وذكر ابن ابى الدنيا من حديث ابن عمر قال : لقد رأيتناوما احد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم .ولقدسمعت رسول الله ﷺ يقول « اذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة وتركوا الجهاد فى سبيل الله وأخذوا أذناب البقر أنزل الله عليهم من السماء بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » وقال الحسن «ان العينة والله ما هى الا عقوبة من الله عز وجل على الناس » ونظر بعض أنبياء بنى اسرائيل الى ما يصنع بهم بختنصر فقال « بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا » وقال بختنصر لدانيال : ما الذى سلطنى على قومك ؟ قال « عظم خطيئتك وظلم قومى انفسهم » وذكر ابن ابى الدنيا من حديث عمار ابن ياسر وحذيفة عن النبي ﷺ « أن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الاطفال وأعقم أرحام النساء فتنزل النقمة وليس فيهم مرحوم » وذكر عن مالك

١ في سورة الانبياء ٢ العينة هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم الي أجل مسمى ثم يشتريها بأقل من الثمن الاول حيلة لاخذ الربا وهى من اعمال اليهود الذين كانوا يتخذون منهم هزوا ولعبا يحتالون علي تحليل محارم الله والوقوع فى منهياته كما ذكر الله في قصة الذين اعتدوا في السبت

دينار قال قرأت (١) في الحكمة : يقول الله عز وجل « أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدى . فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا انفسكم بسب الملوك ، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم » وفى مراسيل الحسن « إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم الى حلمائهم ، وفيئهم عند سمحائهم (٢) . واذا أراد بقوم شراً جعل أمرهم الى سفائهم وفيئهم عند بخلائهم » وذكر الامام أحمد وغيره عن قتادة قال يونس « يارب أنت فى السماء ونحن فى الارض ، فما علامة غضبك من رضاك ؟ قال : إذا استعملت عليكم خياركم فهو من علامة رضائي عليكم ، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو من علامة سخطي عليكم » وذكر ابن أبى الدنيا عن الفضيل بن عياض قال « أوحى الله الى بعض الانبياء إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لايعرفنى » وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه « والذي نفسي بيده لاتقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ووزراء فجرة وأعوانا خونة وعرفاء (٣) ظلمة وقراء فسقة ، سيماهم سيما الرهبان وقلوبهم أنتن من الجيف أهواؤهم مختلفة فيتيح الله لهم فتنة غبراء مظلمة فيتهوكون فيها (٤) . والذى نفس محمد بيده لينقضن الاسلام عروة عروة ، حتى لايقال الله الله . لتأمرن

(١) نسخة رأيت (٢) اي ثروتهم وأموالهم عند السمحاء فلايمسكونها ويمنعون حق الله فيها (٣) العرفاء جمع عريف وهو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلى أمورهم ويتعرف الامير منه أحوالهم (٤) أى يقعون فيها من غير مبالاة

بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم . لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم » وفى معجم الطبرانى وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ « ماطفف (١) قوم كيلا ولا بخسوا ميزانا الامنعهم الله عز وجل القطر ،(٢) وماظهر فى قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت ، وما ظهر فى قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون ، ولا ظهر فى قوم القتل يقتل بعضهم بعضاً إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا ظهر فى قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف . وما ترك قوم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم » ورواه ابن أبي الدنيا من حديث ابراهيم بن الاشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به . وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت : دخل علي رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس (٣) فعرفت فى وجهه ان قد حفزه شيء . فما تكلم حتى توضأ وخرج فلصقت بالحجرة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « يا أيها الناس اتقوا ربكم . إن الله عز وجل يقول لكم : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم ، وتستنصروني فلا أنصركم ، وتسألوني فلا أعطيكم » وقال العمرى الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتتجاوزه ولا تأمر

---

(١) التطفيف النقص (٢) القطر بفتح القاف وسكون الطاء المطر
٣ الحفز الحث والاستعجال

فيه ولاتنهى عنه خوفا ممن لايملك لنفسه ضراً ولانفعاً . وقال : من ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من مخافة المخلوقين نزعت منه الطاعة ،ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه . وذكر الامام أحمد فى مسنده من حديث قيس بن أبي حازم قال قال أبو بكر الصديق : ياأيها الناس انكم تتلون هذه الآية وأنكم تضعونها على غير مواضعها (١) (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) واني سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه وفى لفظ إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » وذكر الاوزاعى عن يحي بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « إذا أخفيت الخطيئة فلا تضر إلاصاحبها وإذا ظهرت فلم تغير تضر العامة »وذكر الامام احمد عن عمر بن الخطاب : توشك القرى أن تخرب وهي عامرة ؟ قال إذا علا فجارها على أبرارها وساد القبيلة منافقها . وذكر الاوزاعي عن حسان بن عطية أن النبي ﷺ قال « سيظهر شرار أمتي على خيارها حتى يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم » وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال « ياتى زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح فى الماء » قيل : بم ذاك يارسول الله؟ قال « بمايرى من المنكر لايستطيع تغييره » وذكر الامام أحمد من حديث جرير أن النبي ﷺ قال « مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله فلم يغيروه الاعمهم الله بعقاب » وفي صحيح البخارى عن أسامة بن

(١) سورة المائدة

زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقي في النار فتندلق أقتابه في النار (١) فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيقولون . أي فلان ماشأنك ؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولاآتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » وذكر الامام أحمد عن مالك بن دينار قال « كان حبر من أحبار بني اسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء فيعظهم ويذكرهم بأيام الله فرأى بعض بنيه يوماً يغمز النساء فقال : مهلا يابني مهلا يابني فسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقتل بنوه فاوحى الله الى نبيهم أن أخبر فلانا الحبر: أن لاأخرج من صلبك صديقاً أبداً. ما كان غضبك لي إلا أن قلت مهلا يابني مهلا يابني » وذكر الامام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « إياكم ومحقرات الذنوب (٢) فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه . وان رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا كمثل القوم نزلوا أرض فلاة فخضر صنيع القوم (٣) فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالبعرة حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وأنضجوا ماقذفوا فيها » وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال « إنكم لتعملون أعمالا هى أدق في أعينكم من الشعر وإنا كنا لنعدها على زمن رسول الله ﷺ من الموبقات (٤)

---

(١) الاندلاق خروج الشيء من مكانه . والاقتاب الامعاء . يريد خروج امعائه من جوفه (٢) أي الذنوب الصغيرة التي يراها الانسان حقيرة ويستخف باتيانها (٣) أي حليفهم (٤) الموبقات المهلكات

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار ، لا هي أطعمتها ولا سقتها ولا تركتها تأكل من خشاش الارض (١) » وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة انه قيل له : في يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم ؟ قال : لا ، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه ، وإذا نهوا عن شيء فعلوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه . ومن ههنا قال بعض السلف المعاصي بريد الكفر كما ان القبلة(٢) بريد الجماع والغناء بريد الزنا والنظر بريد العشق والمرض بريد الموت . وفي الحلية أيضاً عن ابن عباس أنه قال : ياصاحب الذنب لا تأمن فتنة الذنب وسوء عاقبة الذنب ، ولتتبعك الذنب أعظم من الذنب إذا عملته وقلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب ، وضحكك وأنت لم تدر ما الله صانع بك أعظم من الذنب . وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب ، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب . ويحك هل تدرى ما كان ذنب ايوب عليه السلام فابتلاه بالبلاء في جسده وذهاب ماله ؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه فلم يغثه ولم ينه الظالم عن ظلمه فابتلاه الله

وقال الامام أحمد حدثنا الوليد قال سمعت الاوزاعى يقول سمعت هلال بن سعد يقول : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من

(١) خشاش الارض هوامها وحشراتها (٢) القبلة بضم القاف

عصيت . وقال الفضيل بن عياض : بقدر ما صغر الذنب عندك يعظم عند الله وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى ياموسى إن أول من مات من خلق إبليس ، وذلك لانه أول من عصاني . وإنما أعد من عصاني من الاموات : وفى المسند وجامع الترمذي من حديث أبى صالح عن أبي هريرة قال قال رسول لله ﷺ « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت فى قلبه نكتة سوداء (١) فاذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه . وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه . فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل (٢) (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) » قال الترمذي هذا حديث صحيح وقال حذيفة « إذا أذنب العبد ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كالشاة الرمداء » (٣) وقال الأمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدثنى عبد الله بن عبيد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « أما بعد يامعشر قريش فانكم أهل لهذا الامر مالم تعصوا الله فاذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحى (٤) هذا القضيب والقضيب فى يده ثم لحى قضيبه فاذا هو أبيض يصلد » وذكر الامام احمد عن وهب قال : ان الرب عز وجل قال فى بعض ما يقول لبنى إسرائيل « انى إذا أطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتى نهاية وإذا عصيت

---

(١) اي اثراً قليلا كالنقطة تشبه الوسخ فى المرآة (٢) سوره المطففين
٣ اى غبراء فيها كدورة كلون الرماد ٤ لحى العود اى ازال لحاءه عنه واللحاء القشر

غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد » وذكر أيضاً عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال كتبت عائشة إلى معاوية « أما بعد فان العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاما » وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال « ليحذر امرؤ أن تلعنه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر . ثم قال : أتدرى مم هذا ؟ قلت لا . قال : إن العبد يخلو بمعاصي الله فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر » وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لابيه عن محمد بن سيرين انه لما ركبه الدين اغتم لذلك فقال : إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة

وها هنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال وقد يتأخر تأثيره فينسى ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك وأن الامر كما قال القائل :

إذا لم يغبر حائطاً في وقوعه ✲ فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق ؟ وكم أزالت من نعمة ؟ وكم جلبت من نقمة ؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء . فضلا عن الجهال . ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل (١) وقد ذكر الامام أحمد عن أبي الدرداء « اعبدوا الله كأنكم ترونه وعدوا انفسكم في الموتي . واعلموا أن قليلا يكفيكم خير من كثير يلهيكم . واعلموا

١ أى الفساد المختفي وأصل الدغل الشجر الملتف الذي يكن فيه أهل الفساد

أن البر لا يبلى وأن الاثم لا ينسى » ونظر بعض العباد الى صبي فتأمل محاسنه فاني فى منامه وقيل له لتجدن غبها (١) بعد أربعين سنة . هذا مع أن للذنب نقداً معجل لا يتأخر عنه . قال سليمان التيمي : ان الرجل ليصيب الذنب فى السر فيصبح وعليه مذلته. وقال يحي بن معاذ الرازى: عجبت من ذى عقل يقول فى دعائه اللهم لا تشمت بي الاعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له . قيل : وكيف ذلك ؟ قال يعصى الله فيشمت به فى القيامة . قال ذو النون : من خان الله فى السر هتك ستره في العلانية

فصل

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله (فنها) حرمان العلم ، فان العلم نور يقذفه الله فى القلب ، والمعصية تطفيء ذلك النور . ولما جلس الامام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال : إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية . وقال الشافعي :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي * فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بان العلم فضل * وفضل الله لا يؤتاه عاصي

(ومنها) حرمان الرزق . وفى المسند « أن العبد ليحرم الرزق

١ أى عاقبتها

بالذنب يصيبه » وقد تقدم كما أن تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي . (ومنها) وحشة يجدها العاصي فى قلبه بينه و بين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلا ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة . وهذا أمر لا يحس به إلا من فى قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلو لم يكن ترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حرياً بتركها . وشكى رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها فى نفسه فقال له : إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت و استأنس . وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب فالله المستعان (ومنها) الوحشة التى تحصل بينه و بين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه و بينهم وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان بقدر ما بعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه و بين امرأته وولده وأقاربه و بينه و بين نفسه فتراه مستوحشاً من نفسه .وقال بعض السلف إني لاعصى الله فأرى ذلك فى خلق دابتي وامرأتي (ومنها) تعسير أموره فلا يتوجه لامر إلا ويجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه ، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسراً . ويالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتي (ومنها)ظلمة يجدها

فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم اذا ادلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فان الطاعة نور والمعصية ظلمة وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع فى البدع والضلالات والامور المهلكة وهو لايشعر كأعمى خرج فى ظلمة الليل يمشي وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً فى الوجه حتى يراه كل أحد . قال عبد الله بن عباس : ان للحسنة ضياء فى الوجه ونوراً فى القلب وسعة فى الرزق وقوة فى البدن ومحبة فى قلوب الخلق . وإن للسيئة سواداً فى الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهنا فى البدن ونقصا فى الرزق وبغضة فى قلوب الخلق (ومنها) ان المعاصى توهن القلب والبدن أما وهنها القلب فأمر ظاهر ، بل لاتزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية . وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه وكلما قوي قلبه قوي بدنه ، وأما الفاجر فانه وإن كان قوي البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه . فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا اليها وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم (ومنها) حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أنه يصد عن طاعة تكون بدله ويقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه طريق ثالثة ثم رابعة وهلم جرا فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة كل واحد منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل اكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها والله المستعان (ومنها) أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولابد فان البر كما يزيد فى العمر فالفجور ينقصه .

وقد اختلف الناس فى هذا الموضع فقالت طائفة : نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه وهذا حق ، وهو بعض تأثير المعاصى . وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده وللبركة في العمر أسبابا تكثره وتزيده ، قالوا : ولا تمنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب ؛ فالارزاق والآجال والسعادة والشقاوة والصحة والمرض والغنى والفقر وإن كانت بقضاء الله عز وجل فهو يقضى مايشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها . وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة وهي حياة القلب ؛ ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حى كما قال تعالى (١) (أموات غير أحياء) فالحياة فى الحقيقة حياة القلب وعمر الانسان مدة حياته فليس عمره الا أوقات حياته بالله فتلك ساعات عمره ، والتقوى والطاعة تزيد في هذه الاوقات التى هي حقيقة عمره ولاعمر له سواه

وبالجملة إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غب إضاعتها يوم يقول (٢) (ياليتنى قدمت لحياتي) فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا . فان لم يكن له تطلع الي ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلا وإن كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها وذلك نقصان حقيقى

(١) فى سورة النحل (٢) فى سورة الفجر

من عمره . وسر المسألة أن عمر الانسان مدة حياته ولا حياة له إلا باقباله على ربه والتنعم بحبه وذكره وإيثار مرضاته

فصل

ومنها أن المعاصى تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخري الي جنبها : اعملني أيضاً ، فاذا عملها قالت الثانية كذلك وهلم جرا ، فيتضاعف الربح وتتزايد الحسنات وكذلك كانت السيئات أيضاً حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخه وصفات لازمة وملكات ثابتة فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الارض بما رحبت ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها ، فتسكن نفسه وتقر عينه . ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه وضاق صدره وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها ؛ حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ولا داعية اليها إلا لما يجد من الالم بمفارقتها كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ (١) حيث يقول :

وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها

---

(١) هو أبو نواس الشاعر المشهور

قال الآخر :

وكانت دوائي وهي دائي بعينه * كما يتدواى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تأزه اليها أزا (١) وتحرضه عليها وتزعجه عن فراشه ومجلسه اليها ، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله اليه الشياطين فتأزه اليها أزاً . فالاول قوى جند الطاعة بالمدد فكانوا من أعوانه وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه

فصل

ومنها ـ وهو من أخوفها على العبد ـ أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً الى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب الى الله ، فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشيء كثير وقلبه معقود بالمعصية مصر عليها عازم على مواقعتها متى أمكنته . وهذا من أعظم الامراض وأقربها الى الهلاك

فصل

ومنها أنه ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة،فلا يستقبح

(١) ازه على الامر حمله عليه وحركه وازعجه.

من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه . وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها فيقول : يافلان عملت كذا وكذا . وهذا الضرب من الناس لا يعافون وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب كما قال النبي ﷺ « كل أمتي معافى إلا المجاهرون وإن من الاجهار أن يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول يافلان عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيهتك نفسه وقد بات يستره ربه »

(ومنها) أن كل معصية من العاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل . فاللوطية ميراث عن قوم لوط . وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب . والعلو فى الارض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون . والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود . فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الامم ، وهم أعداء الله . وقد روى عبد الله بن احمد فى كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : أوحى الله الى نبي من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك : لا تدخلوا مداخل اعدائى ، ولا تلبسوا ملابس أعدائى ، ولا تركبوا مراكب اعدائى ولا تطعموا مطاعم أعدائى فتكونوا أعدائى كما هم أعدائى . وفى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له . وجعل رزقي تحت ظل رمحي . وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري . ومن تشبه بقوم فهو منهم »

فصل

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم . وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى (١) (ومن يهن الله فما له من مكرم) وإن عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم اليهم أو خوفا من شرهم فهم فى قلوبهم أحقر شيء وأهونه . ومنها أن العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك . فان الذنب كلما صغر فى عين العبد عظم عند الله . وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار »

فصل

ومنها أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم . قال أبو هريرة : إن الحبارى (٢) لتموت فى وكرها من ظلم الظالم . وقال مجاهد . إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السنة (٣) وأمسك المطر . وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم. وقال عكرمة : دواب الارض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون

(١) في سورة الحج (٢) طائر معروف (٣) اى القحط والجدب

منعنا القطر بذنوب بنى آدم . فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له

فصل

ومنها ان المعصية تورث الذل ولابد فان العز كل العز فى طاعة الله تعالي قال تعالي (١) (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) أى فليطلبها بطاعة الله فانه لايجدها الا فى طاعته . وكان من دعاء بعض السلف : اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك . قال الحسن البصرى : انهم ان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين (٢) فان ذل المعصية لايفارق قلوبهم . أبى الله الا أن يذل من عصاه . وقال عبد الله بن مبارك:

رأيت الذنوب تميت القلو * ب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلو * ب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين الا الملو * ك وأحبار سوء ورهبانها

فصل

ومنها أن المعاصي تفسد العقل فان للعقل نوراً والمعصية تطفىء نور العقل ولابد ، واذا طفىء نوره ضعف ونقص . وقال بعض السلف : ماعصى الله أحد حتى يغيب عقله ، وهذا ظاهر فانه لو حضره عقله لحجزه عن

(١) في سورة فاطر (٢) الطقطقة حكاية صوت وقع حوافر البغال يريد اختالوا وعلوا في عيون الناس بركوبها والهملجة السير السريع فى حسن وتبختر

المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى أو تحت قهره وهو مطلع عليه وفى داره على بساطه ، وملائكته شهود عايه ناظرون اليه ؟ وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الايمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف مايحصل له من السرور واللذة بها . فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟؟

فصل

ومنها أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين كما قال بعض السلف في قوله تعالى (١) (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) قال : هو الذنب بعد الذنب وقال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم . وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية فاذا زادت غلب الصدأ حتي يصير رانا .ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلا وختما فيصير القلب فى غشاوة وغلاف . فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله . فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد

(١) في سورة المطففين

فصل

ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ فانه لعن علي معاصى وغيرها اكبر منها فهي اولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة والواشرة والمستوشرة ، (١) ولعن آكل الربا ومؤكاه وكاتبه وشاهده ، ولعن المحلل والمحلل له (٢) ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة اليه ، ولعن من غير منار الارض(٣)وهي أعلامها وحدودها . ولعن من لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بسهم (٣)، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله (٤) ، ولعن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ، ولعن المصورين ، ولعن من عمل عمل قوم

(١) الواصلة التى تصل الشعر والموصلة المعمول بها ذلك . والنامصة التى تحسن وجه المرأة بنتف شعرها ويدخل تحته فعل النساء اليوم من الصبغات والالوان على وجوههن والواشرة التى تحدد اسنانها وتدقق اطرافها والمستوشرة المعمول بها ذلك وانما تفعل المرأة الكبيرة ذات تشبها بالفتيات ٢ هو ما يفعله مجرمو المنتسبين الي العلم بقيامهم بعقد صوري لتحايل المطلقة وهو عقد نكاح فاسد ٣ المنار جمع منارة وهى العلامة تجعل بين حدين وتفصل بين مالكين وذلك كما يفعله بعض الناس من مسابقتهم في رمي الحمام ٤ كمن يذبح لولي او ميت وهى عادة الجاهلية يفعلها كثير من المسلمين ويسمونها قربات وما هى الا قربات الى الشياطين وما يذبحه اهل مصر وغيرهم لما يسمونه بالزار

لوط ، ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كمه (١) أعمي عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة.ولعن من وسم دابة فى وجهها (٢) ولعن من ضار بمسلم أومكر به . ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج(٣) ولعن من أفسد امرأة على زوجها أومملوكا على سيده . ولعن من أتي امرأة فى دبرها . وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح . ولعن من انتسب الي غير أبيه . وأخبر ان من أشار الى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه . ولعن من سب الصحابة . وقد لعن الله من أفسد في الارض وقطع رحمه وآذى الله وآذى رسوله ولعن من كتم ماأنزل الله سبحانه من البينات والهدي . ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة . ولعن من جعل سبيل الكافر اهدى من سبيل المسلم . ولعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل . ولعن الراشى والمرتشي والرائش وهو الواسطة فى الرشوة . ولعن على أشياء أخر غير هذه . فلو لم يكن فى فعل ذلك الا رضاء فاعله بان يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان فى ذلك مايدعو الي تركه

(١) كذا بالاصل ولعلها من اضل ٢ من السمة وهى العلامه اي يكويها بالنار لتعرف

(٣) كمثل ما هو جار في قبور الصالحين كالقبر الذي ينسبونه كذبا الي الحسين والي السيدة زينب رضى اللهعنها بمصر وكذا في غيرها فان اعتقاد الناس ان الصلاة والدعاء في هذه المساجد وعند هذه القبور هو بعينه ما كان يفعله اهل الجاهلية من اليهود والنصارى والمشركين والسرج جمع سراج

فصل

ومنها حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة فان الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى (١) (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيآت) فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما . فلا يطمع غير هؤلاء باجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها

فصل

ومن عقوبات المعاصي ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال : كان النبي ﷺ مما يكثر أن يقول لاصحابه « هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا ؟ » فيقص عليه ماشاء الله ان يقص وأنه قال لنا ذات غداة «انه أتاني الليلة آتيان وانهما انبعثا لى وأنهما قالا لى انطلق وإني انطلقت معهما وإنا أتينا على رجل مضطجع واذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه (٢)

---

(١) في سورة غافر (٢) الثلغ الشدخ وقيل هو ضربك الشيء الرطب باليابس حتى ينشدخ

فيتدهده (١) الحجر ها هنا وها هنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع اليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عايه فيفعل بهمثل مافعل فى المرة الاولي قال قلت لهم سبحان الله ماهذان ؟ قالالي انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا علي رجل مستلق لقفاه واذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد واذا هو يأتي أحد شق وجهه فيشرشر شدقه (٢) الى قفاه ومنخره الي قفاه وعينه الى الى قفاه ثم يتحول الى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الاول ، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الاولى . قال قلت سبحان الله ! ما هذان ؟ فقالا لي : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور ، واذا فيه لغط وأصوات قال : فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فاذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا (٣) فقال قلت من هؤلاء ؟ قال فقالا لي : انطلق انطلق . قال : فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فاذا فى النهر رجل سابح يسبح واذا علي شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتى ذلك الذى جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه (٤) فيلقمه حجراً فينطلق فيسبح ثم يرجع اليه كما رجع اليه فيفغر له فاه فيلقمه حجراً قال قلت لهما ما هذان ؟ قالا لي انطلق انطلق . فانطلقنا فاتينا على رجل كريه المرآة (٥) كأكره ماأنت راء رجلا وإذا هو عنده نار يحشها (٦) ويسعى حولها

---

(١) يتدهده اى يتدحرج (٢) اي يشققه ويقطعه (٣) اي ضجوا واستغاثوا (٤) اى يفتحه كثيراً (٥) كريه المرآة اي قبيح المنظر (٦) اي يوقدها ويلهبها

قال قلت لهما : ماهـذا ؟ قال قالا لى : إنـطلق إنطلق . فانطلقنا على روضة معتمة (١) فيها من كل نور الربيـع (٢) وإذا بين ظهر انى الروضة رجـل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء ، وإذا حول الرجل من أكـثر ولدان رأيتهم قط قال قلت : ماهذا ؟ وما هـؤلاء ؟ قال قالالى : إنطلق إنطلق . فانطلقنا فاتينا الى دوحة عظيمة (٣) لم أر دوحة قط أعظم منهـا ولا أحسن . قال قالالى : أرق فيها ، فارتقينا فيها الى مدينة مبنية بلـبن ذهب ولـبن فضة قال : فأتينا باب المـدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقـانا رجال شطر من خلقهم كاحسن ماأنت راء وشطـر منهم كاقبـح ما أنت راء قال قالالهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر .قال وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض (٤) فى البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم . قال قالا لى : هذه جنة عدن . وهذاك منزلك قال فسما بصرى صعداً فاذا قصر مثل الربابة البيضاء (٥) قال قالالى هذاك منزلك قال قلت لهما بارك الله فيكما فذرانى فأدخله . قالا : أما الآن فلا . وأنت داخله قال قلت لهما : فاني رأيت منذ الليلة عجباً . فما هذا الذي رأيت؟ قال قالا لى : أما انا سنخبـرك . أما الرجل الاول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المـكتوبه

---

(١) الروضة هى البقعه التى اخذت حظها وافياً من الماء فـكان غرسها اطيب من غيرها والمعتمة بتشديد الميم المانيه اى وافية النبات طويله
(٢) نور الربيع بفتح النون زهره (٣) الدوحة الشجرة العظيمة
(٤) المحض الخالص من كل شيء والمراد به هنا اللبن (٥) الربابة التى ركب بعضها بعضاً

وأما الرجل الذى أتيت عليه يشر شر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور فانهم الزناة والزواني وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الرباء وأما الرجل الكريه المنظر الذي عند النار يحشها ويسعي حولها فانه مالك خازن جهنم . وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فانه ابراهيم وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة وفى رواية البرقاني ولد على الفطرة » فقال بعض المسلمين يارسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ « وأولاد المشركين . وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم »

فصل

ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد فى المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى (١) (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) قال مجاهد : اذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . ثم قرأ (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على

١　في سورة الروم

ماء جار فهو بحر . وقال عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر أما إني لاأقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية علي ماء . وقال قتادة : أما البر فاهل العمود وأما البحر فاهل القرى والريف (١) وقلت : وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحراً فقال (٢) (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) وليس فى العالم بحر حلو واقفاً وإنما هي الانهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فنسمي القرى التى على المياه الجارية باسم تلك المياه وقال ابن زيد (٣) (ظهر الفساد فى البر والبحر) قال : الذنوب قلت : أراد أن الذنب سبب الفساد الذى ظهر وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله ليذيقهم بعض الذى عملوا لام العاقبة والتعليل . وعلى الاول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الارض بمعاصي العباد فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم كما قال بعض السلف كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة والظاهر والله اعلم ان الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) فهذا حالنا وإنما اذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة . ومن تأثير معاصي الله فى الارض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها . وقدم رسول الله ﷺ على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن

(١) اى اهل الخيام التى يرفعونها علي العمود (٢) في سورة فاطر
(٣) فى سورة الروم

الاستسقاء من آبارهم حتى أمر أن لا يعلف العجين الذى عجن بمياههم لنواضح الابل (١) لتأثير شؤم المعصية فى الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات. وقد ذكر الامام أحمد فى مسنده فى ضمن حديث قال « وجدت فى خزائن بعض بنى أمية حنطة، الحبة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها : كان هذا ينبت فى زمن العدل » وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب . وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن . وكثير من هذه الآفات التى تصيبها لم يكونوا يعرفونها وإنما حدثت من قرب . وأما تأثير الذنوب فى الصور والخلق فقد روى الترمذى فى جامعه عن النبي ﷺ انه قال « خلق الله آدم وطوله فى السماء ستون ذراعاً ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فاذا أراد الله أن يطهر الارض من الظلمة والخونة والفجرة (٢) يخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه ﷺ فيملأ الارض قسطا (٣) كما ملئت جوراً ويقتل المسيح اليهود والنصارى ، ويقيم الدين الذى بعث الله به رسوله ، وتخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويكون العنقود من العنب وقر بعير (٤) ولبن اللقحة الواحدة يكفي الفئام من الناس (٥) » وهذا

---

(١) النواضح هى الابل التى يستقى عليها (٢) جمع ظالم وخائن وفاجر
(٣) القسط العدل (٤) اى حمل بعير (٥) الجماعة الكثير

لان الارض لما طهرت من المعاصى ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر . ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله فى الارض بقية آثارها سارية في الأرض تطلب مايشا كلها من الذنوب التي هى آثار تلك الجرائم التى عذبت بها الامم ، فهذه الآثار في الارض من آثار العقوبات كما أن هذه المعاصي من آثار الجرائم . فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولا وآخراً ، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية. والأخف للأخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه فى دار البرزخ ودار الجزاء . وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ، ولما أثرت طاعته في الارض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة

فصل

ومن عقوباتها انها تطفىء من القلب نار الغيرة التى هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن فان الغيرة حرارته و ناره التى تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد . وأشرف الناس وأعلاهم قدراً وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس . ولهذا كان النبي ﷺ أغير الخلق على الامة والله سبحانه أشد غيرة منه كما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال « أتعجبون

من غيرة سعد ؟ (١) لأنا أغير منه . والله أغير منى » وفى الصحيح أيضاً عنه أنه قال ﷺ في خطبة الكسوف « ياأمةِ محمد ماأحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته» وفى الصحيح أيضاً عنه أنه قال « لاأحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن . ولاأحد أحب اليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحد أحب اليه المدح من الله ، من أجل ذلك أثنى على نفسه » فجمع فى هذا الحديث بين الغيرة التى أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان، والله سبحانه مع شدة غيرته يحب أن يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه ، وأنه لا يؤاخذ عبده بارتكاب مايغار من ارتكابه حتى يعذر اليه، ولأجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه إعذاراً وإنذاراً . وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال. فان كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعذار منه ومن غير قبول العذر ممن اعتذر اليه ، بل قد يكون له فى نفس الامر عذر ولاتدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره . وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع فى طرق المعاذير، ويرى عذراً ماليس بعذر، حتى يعذر كثير منهم بغير عذر، وكل منهما غير ممدوح على الاطلاق. وقد صح عن النبي

(١) هو سعد بن عبادة قال له ناس ياأبا ثابت قد نزلت الحدود ، لو أنك وجدت مع امرأتك رجلا كيف كنت صانعا؟ قال كنت ضاربهما بالسيف حتى يسكتا ءفأنا أذهب فأجمع أربعة شهداء ؟ فالى ذلك قد قضى حاجته

ﷺ أنه قال « ان من الغيرة مايحبها الله ومنها ما يبغضها الله . فالتي يبغضها الله الغيرة من غير ريبة » وذكر الحديث . وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار فى محل الغيرة ويعذر فى موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً . ولما جمع سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد ان يمدحه كما ينبغي له بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه فالغيور قد وافق ربه سبحانه فى صفة من صفاته ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة اليه بزمامها وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوباً له، فانه سبحانه رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء عليم يحب العلماء قوي يحب المؤمن القوي وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف حي يحب أهل الحياء جميل يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر . ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي الا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة فان الخطرة (١) تنقلب لها وسوسة والوسوسة تصير إرادة ، والارادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلا ، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة . وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به . والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس . وقد تضعف فى القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره ، واذا وصل الى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك .

---

(١) الخطرة مايخطر على القلب أى يمر به سريعا

وكثير من هؤلاء لايقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه اليه ويحثه عليه ويسعى له فى تحصيله. ولهذا كان الديوث(١) أخبث خلق الله والجنة عليه حرام، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه لغيره. فانظر ماالذى حملت عليه قلة الغيرة. وهذا يدلك على ان أصل الدين الغيرة. ومن لاغيرةله لادين له، فالغيرة تحمي القلب فتحمى له الجوارح فتدفع السوء والفواحش. وعدم الغيرة يميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع ألبتة. ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلا ولم يجد دافعاً فتمكن فكان الهلاك. ومثلها مثل صياصي(٢) الجاموس التى تدفع بها عن نفسها وعن ولدها فاذا تكسرت طمع فيها عدوها

فصل

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه. وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال «الحياء خير كله» وقال «ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت» وفيه تفسيران: أحدهما انه على التهديد والوعيد، والمعنى من لم يستح فانه يصنع مايشاء من القبائح، اذ الحامل على تركها الحياء فاذا لم يكن هناك حياء يزعه (٣) عن القبائح فانه يواقعها

(١) الذى يعلم بان امرأته زانية ولا يغار عليها (٢) قرونها (٣) وزعه يزعه كمنعه يمنعه

وهذا تفسير أبي عبيدة . والثاني ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذى ينبغي تركه ما يستحي فيه من الله ، وهذا تفسير الامام أحمد فى رواية ابن هانئ .فعلى الاول يكون تهديداً كقوله(١)(اعملوا ماشئتم) وعلى الثانى يكون إذنا وإباحة . فان قيل:فهل من سبيل الى حمله على المعنيين ؟قلت : لا.ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافاة . ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر . والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية. حتى ربما انه لايتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح مايفعله ، والحامل على ذلك انسلاخه من الحياء . واذا وصل العبد الي هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع . واذا رأى ابليس طلعة وجهه حياه وقال فديت من لايفلح (٢) والحياء مشتق من الحياة.والغيث يسمى حيًا بالقصر لان به حياة الارض والنبات والدواب. وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة فمن لاحياء فيه فهو ميت فى الدنيا شقي فى الآخرة. وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين وكل منهما يستدعى الآخر ويطلبه حثيثا ، ومن استحي من الله عند معصيته استحي الله من عقوبته يوم يلقاه ، ومن لم يستحي من الله تعالى من معصيته لم يستحي الله من عقوبته

---

(١) في سورة حم السجدة (٢) كذا بالاصل ولعل معناه أن الشيطان يقدم نفسه فداء لأتباعه الذين لايفلحون

فصل

ومن عقوباتها أنها تضعف فى القلب تعظيم الرب جل جلاله وتضعف وقاره فى قلب العبد ولابد ، شاء أم أبى . ولو تمكن وقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرأ على معاصيه . وربما اغتر المغتر وقال . إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء وطمعي فى عفوه لاضعف عظمته فى قلبي . وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله تعالي وجلاله فى قلب العبد وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب ، والمتجرئون على معاصيه ماقدروه حق قدره . وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه ؟ هذا من أمحل المحال وأبين الباطل . وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه . ومن بعض عقوبة هذا أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس ، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظم الناس حرماته . وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع أن لاينتهك الناس حرماته ؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولايهونه الله على الناس . أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق ؟ وقد أشار سبحانه إلى هذا فى كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وأنه أركس أربابها بما كسبوا (١) وغطى على قلوبهم وطبع

١ الركس رد الشيء مقلوبا والله اركسهم اي ردهم الي كفرهم

عليهـا بذنوبهم وأنه نسيهم كما نسوه وأهانهم كما أهـانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا أمره ولهذا قال تعالى فى آية سجود المخـلوقات له (١) (ومن يهن الله فمـاله من مكـرم) فانهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم . ومن ذا يكرم من أهانه الله ؟ أو يهن من أكرم ؟

فصل

ومن عقوباتها أنهـا تستدعي نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهنالك الهلاك الذي لايرجى معه نجاة قال الله تعالى (٢) (ياأيهـا الذين آمنوا اتقو الله ولتنظـر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تـكونوا كالذين نسوا الله فأنسـاهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) فامر بتقـواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه وأخـبر أنه عاقب من ترك التقوى بان أنساه نفسـه أي أنساه مصالحها وما ينجيها من عـذابه وما يوجب له الحياة الابدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمهـا فأنسـاه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمتـه وخوفـه والقيـام بأمره، فترى العـاصى مهملا لمصالح نفسه مضيعا لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبـع هواه وكان أمره فرطا (٣) قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط فى

١ في سورة الحج ٢ في سورة الحشر ٣ فـرطا بضم الفاء والراء أي جاوز فيه الحد فى الاهمال والتضييع

سعادته الابدية واستبدل بها أدنى مايكون من لذة . إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف

أحلام نوم أو كظل زائل * إن اللبيب بمثلها لايخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله يبعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن فضيع من لاغنى له عنه ولا عوض له منه واستبدل به من عنه كل الغنى أومنه كل العوض

من كل شيء إذا ضيعته عوض * وليس فى الله ان ضيعت من عوض

فالله سبحانه وتعالي يعوض عن كل شىء سواه ولا يعوض منه شىء ، ويغنى عن كل شيء ولا يغنى عنه شيء ، ويمنع من كل شىء ولايمنع منه شىء ويجير من كل شىء ولا يجير منه شىء ، وكيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم ظلم ؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه ، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه

فصل

ومن عقوباتها أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين فان الاحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي فان من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك الا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك سيحول بينه وبين إرادة

المعاصى فضلاً عن مواقعتها . فاذا خرج من دائرة الاحسان فاته صحبة رفقته الخاصة وعيشهم الهنىء ونعيمهم التام،فانْ أراد الله به خيراً أقره فى دائرة عموم المؤمنين فان عصاه بالمعاصي التى تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبي ﷺ « لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن. ولا ينهب نهبة ذات شرف (١) يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » فاياكم إياكم ، والتوبة معروضة بعد

فصل

ومن فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الايمان فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فان الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفاته كل خير رتبه الله فى كتابه على الايمان ، وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها (فنها) الأجر العظيم (وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً) (٢) ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) (٣) ومنها استغفار حملة العرش لهم (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) (٤) ومنها موالاة الله لهم « ولا يذل من والاه الله » قال الله تعالي (٥) (الله ولي الذين آمنوا) ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم (اذ

---

(١) نهبة بضم النون اسم لما ينهب وذات شرف أي قيمة (٢) في سورة النساء (٣) في سورة الحج (٤) فى سورة غافر (٥) في سورة البقرة

يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) (١) ومنها أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم . ومنها العزة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (٢) ومنها معيــة الله لأهل الايمان (وان الله مع المؤمنين) (٣) ومنها الرفعة فى الدنيا والآخرة (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٤) ومنها أنه أعطاهم كفلين من رحمته (٥) وأعطاهم نوراً يمشون به ومغفرة ذنوبهم . ومنها الود الذى يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحببهم الى ملائكته وأنبيــائه وعباده الصالحين . ومنها أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٦) ومنها أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نسأله ان يهدينا الى صراطهم فى كل يوم وليــلة سبع عشرة مرة . ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى اولئك ينادون من مكان بعيد) (٧) والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير. وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الايمان . فكيف يهون علي العبد ان يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الايمان ويحول بينــه وبينه ، ولــكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين،فان استمر علي الذنوب وأصر عليها خيف عليه ان يرين علي قلبه فيخرجه عن الاسلام بالكلية . ومن هنا اشتد خوف

(١) فى سورة الانفال (٢) في سورة المنافقون (٣) فى سورة الانفال (٤) في سورة قد سمع (٥) الكفل الحظ والنصيب (٦)في سورة الانعام (٧) في سورة حم السجدة

السلف كما قال بعضهم : أنتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر

فصل

ومن عقوبتها انها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطو الى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته الى ورائه . فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب ، والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التى تسيره . فان زالت بالكلية انقطع عن الله إنقطاعاً يبعد تداركه فالله المستعان . فالذنب اما يميت القلب أو يمرضه مرضاً مخوفاً أو يضعف قوته ولابد حتى ينتهي ضعفه الي الاشياء الثمانية التى استعاذ منها النبي ﷺ وهي « الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين (١) وغلبة الرجال » وكل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان ، فان المكروه والوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم ، وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن . والعجز والكسل قرينان فان تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح ان كان لعدم قدرته فهو العجز وان كان لعدم إرادته فهو الكسل. والجبن والبخل قرينان فان عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن وإن كان بماله فهو البخل. وضلع الدين وقهر الرجال قرينان فان إستيلاء الغير

(١) أى ثقله والضلع الاعوجاج أى يثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء والاعتدال

إن كان بحق فهو من ضلع الدين وإن كان بباطل فهو من قهر الرجال .
والمقصود أن الذنوب من أقوى الاسباب الجالبة لهذه الثمانية كما أنها من أقوى الاسباب الجالبة لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء (١) وشماتة الاعداء» ومن أقوى الاسباب الجالبة لزوال نعم الله تعالى وتقدس، وتحول عافيته الى نقمته وتجلب جميع سخطه .

فصل

ومن عقوبات الذنوب انها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة الا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : مانزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع بلاء إلا بتوبة .
وقد قال تعالى (٢) (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وقال تعالي(٣)(ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فأخبر الله تعالى أنه لايغير نعمته التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فاذا غير غير عليه ، جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد . فان غير المعصية بالطاعة ، غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى (٤) (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا

(١) جهد البلاء الحالة الشاقة . ودرك الشقاء أي لحوقه . وسوء القضاء أى عدم القدرة على قضاء الدين (٢) في سورة الشورى (٣) في سورة الانفال (٤) في سورة الرعد

ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (١)) وفى بعض الآثار الالهية عن الرب تبارك وتعالى أنه قال « وعزتى وجلالي لايكون عبد من عبيدى على ما أحب ثم ينتقل عنه إلى ماأكره إلا انتقلت له مما يحب إلى مايكره . ولا يكون عبد من عبيدي على ماأكره فينتقل عنه الى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره إلى مايحب » وقد أحسن القائل :

إذا كنت فى نعمة فارعها * فان الذنوب تزيل النعم
وحطها (٢) بطاعة رب العباد * فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت * فظلم العباد شديد الوخم (٣)
وسافر بقلبك بين الورى * لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم * شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر * من الظلم وهو الذي قد قصم (٤)
فكم تركوا من جنان ومن * قصور وأخرى عليهم أطم (٥)
صلوا بالجحيم وفات النعم * وكان الذى نالهم كالحلم (٦)

---

(١) أي من ولي (٢) من الاحاطة والصون (٣) الوخم الثقيل والوبيء والمراد هنا سوء العاقبة (٤) قصم الشيء كسره (٥) الجنان جمع جنة وهي البستان الذي قد التفت اشجاره حتى اجنت الارض أى سترتها فلم يقع عليها حر الشمس فكانت كلها ظلا . والاطم بضم الهمزة والطاء بناء مرتفع والمراد القصور (٦) صلوا بالجحيم أي هوا فيها والحلم ما يراه النائم

فصل

ومن عقوباتها ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف فى قلب العاصي فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً فان الطاعة حصن الله الاعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه امانا ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف . فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر إن حركت الريح الباب قال جاء الطلب ، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب ،يحسب كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصداً اليه. فمن خاف الله آمنه من كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء

بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلقوا * أن المخاوف والاجرام في قرن (١)

ومن عقوباتها أنها توقع الوحشة العظيمة فى القلب فيجد المذنب نفسه مستوحشاً قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه وبينه وبين الخلق وبينه وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة . وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش عيش المستأنسين . فلو نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولد فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه اذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف

---

(١) فى قرن أي مقترنين

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب * فدعها اذا شئت واستأنس

وسر المسالة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه وكلما اشتد القرب قوي الأنس والمعصية توجب العبد من الرب وكلما زاد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما ،وإن كان ملابساً له قريباً منه، ويجد أنساً قوياً بينه وبين من يحب وإن كان بعيداً عنه . والوحشة سببها الحجاب وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة.فالغفلة توجب الوحشة ،وأشد منها وحشة المعصية ،وأشد منها وحشة الشرك والكفر، ولا تجد أحداً يلابس شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه فتعلو الوحشة وجهه وقلبه فيستوحش ويستوحش منه

فصل

ومن عقوباتها أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضاً معلولاً لاينتفع بالاغذية التي بها حياته وصلاحه، فان تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى الابدان ، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ولا دواء لها إلا تركها . وقد أجمع السائرون الى الله أن القلوب لاتعطى مناها حتى تصل الى مولاها ، ولا تصل الى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فتصير نفس دوائها ، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها، وهواها مرضها ، وشفاؤها مخالفته . فان استحكم المرض قتل أو كاد، وكما

ان من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنـة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم ألبتة ، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به الا من باشر قلبه هذا وهذا ، ولا تحسب ان قوله تعالى(١) (ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم) مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط بل فى دورهم الثلاثة كذلك: أعنى دار الدنيا ودار البرزخ، ودار القرار فهؤلاء فى نعيم وهؤلاء فى جحيم ، وهـل النعيم إلا نعيم القلب ؟ وهل العذاب الا عذاب القلب ؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقـه بغير الله وانقطاعه عن الله ؟ بكل واد منـه شعبة ، وكل شىء تعلق به وأحبه من دون الله فانه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات : فى هـذه الدار . فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل ، فاذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنـكيد عليه وأنواع المعارضات ، فاذا سلبـه اشتد عذابه عليه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار . وأما فى البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجي عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده . وألم الحجاب عن الله . وألم الحسرة التى تقطع الاكباد . فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير

(١) في سورة الانفطار

ما تعمل الهوام والديدان فى أبدانهم . بل عملها فى النفوس دائم مستمر حتى يردها الله الى أجسادها . فحينئذ ينتقل العذاب الى نوع هو أدهى وأمر . فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه، واشتياقَ اليه وارتياحاً بحبه وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم فى حال نزعه : واطرباه . ويقول الآخر : ان كان أهل الجنة فى مثل هذا الحال انهم لفي عيش طيب . ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها وما ذاقوا أطيب ما فيها. ويقول الآخر : لو علم الملوك أبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : ان فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن،وغبن كل الغبن فى هذا العقد وهو يرى أنه قد غبن ، اذا لم تكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقومين . فيا عجبا من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوى والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ وقد بعتها بغاية الهوان !!

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه * فمن ذاله من بعد ذلك يكرم

(ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء)

فصل

ومن عقوباتها أنها تعمي بصر القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية .وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى ، لما

اجتمع به ورأى تلك المخايل « إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية » ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب فى مثل الليل البهيم. فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب فيا عزة السلامة ويا كثرة العطب. ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب إلى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها. فاذا كانت عند الموت ظهرت فى البرزخ فامتلأ القبر ظلمة كما قال النبي ﷺ « إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة وإن الله ينورها بصلاتي عليهم » فاذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة (١) فيالها من عقوبة لاتوازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الي آخرها. فكيف يقسط العبد المنغض المنكد المتعب فى زمن إنما هو ساعة من حلم. والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها قال تعالى (٢) (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها

(١) الحممة الفحمة (٢) في سورة والشمس وضحاها

وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنه قوله تعالى (١) (يدسه في التراب) فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به . قد انقمع عند نفسه وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق . فالطاعة والبر يكبر النفس ويعزها ويعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى . وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو . فما صغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله

فصل

ومن عقوباتها أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه . فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسير أسوء حالاً من أسير أسره أعدى عدو له ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة . فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ؟ وكيف يخطو خطوة واحدة ؟ وإذا تقيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده . ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل احتوشته الآفات (٢) وفي الحديث « الشيطان ذئب الانسان » وكما ان الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولابد . وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى فهي وقاية

---

(١) في سورة النحل (٢) أي أحاطت به حتى صار وسطها

وجنة (١) حصينة بينه وبين ذئبه كما هي وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة . وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الراعي كلما كانت أقرب الى الهلاك . فأحمى ماتكون الشاة إذا قربت من الراعي وإنما يأخذ الذئب القاصي من الغنم وهي أبعدهن من الراعي . وأصل هذا كله أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع ، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات . والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض . فالغفلة تبعد العبد عن الله . وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة وبعد البدعة اعظم من بعد المعصية . وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله

فصل

ومن عقوباتها سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه فان أكرم الخلق عند الله أتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له . وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده فاذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه فأسقطه من قلوب عباده . وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك فعاش بينهم أسوء عيش خامل الذكر ساقط القدر ، زري الحال لاحرمة له ، فلا فرح له ولاسرور . فان خمول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل غم وهم وحزن ولاسرور معه ولافرح . وأين هذا الالم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة . ومن أعظم نعم الله

(١) الجنة بضم الجيم ماستتر به الانسان من سلاح وغيره

على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلي قدره ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى (١) (واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الايدى والأبصار . انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) أي خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار وهو لسان الصدق الذى سأله ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال (٢) (واجعل لي لسان صدق فى الآخرين) وقال سبحانه وتعالى عنه وعن نبيه (٣) (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً) وقال لنبيه ﷺ (٤) (ورفعنا لك ذكرك) فأتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فاته من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم

فصل

ومن عقوباتها انها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والتقي والمطيع والمنيب والولي والورع والمصلح والعابد والخائف والأواب(٥) والطيب والرضي ونحوها وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء والمفسد والخبيث والمسخوط والزاني والسارق والقاتل والكاذب والخائن واللوطي والغادر وقاطع الرحم وأمثالها . فهذه اسماء الفسوق ، وبئس الاسم

(١) في سورة ص (٢) في سورة الشعراء (٣) فى سورة مريم (٤) في سورة ألم نشرح (٥) من آب بمعنى رجع أي كثير التوبة والرجوع الي الله

الفسوق بعد الايمان التي توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزى والهوان ، وتلك أسماء توجب رضاء الرحمان ودخول الجنان وتوجب شرف المسمى بها على سائر أنواع الانسان . فلو لم يكن فى عقوبة المعصية الا استحقاق تلك الاسماء وموجباتها لكان العقل ناهياً عنها ولو لم يكن فى ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان العقل آمراً بها . ولكن لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع، ولا مقرب لمن باعد ولا مبعد لمن قرب (ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء (١))

فصل

ومن عقوباتها انها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص الاو عقل المطيع منهما أوفر وأكمل وفكره أصح ورأيه أسد (٢) والصواب قرينه . ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولى الألباب والعقول كقوله (٣) واتقون ياأولى الألباب وقوله (٤) (فاتقوا الله يا أولي الألباب) وقوله (٥) (إنما يتذكر أولوا الالباب) ونظائر ذلك كثيرة . وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصى من هو في قبضته وفى داره وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه ، وهو بعينه غير متوار عنه ويستعين بنعمه على مساخطه

---

(١) فى سورة الحج (٢) من السداد وهو الاصابة (٣) فى سورة البقرة (٤) فى سورة المائدة (٥) فى سورة الزمر

ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنتـه له وإبعاده من قربه ، وطرده عن بابه وإعراضه عنـه وخذلانه له والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه وسقوطه من عينه ، وحرمانه من رضاه وحبه ، وقرة العين بقربه والفوز بجواره والنظر الى وجهه فى زمرة أوليائه الى اضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية . فأي عقـل لمن آثر لذة ساعـة أو يوم أو دهر ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم ؟ بل هـو سعادة الدنيا والآخـرة . ولولا العقل الذي تقوم عليـه به الحجة لكان بمنزلة المجـانين . بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه وأسلم عاقبة . فهذا من هذا الوجه . وأما تأثيرها فى نقصان العقل العيشى فلولا الاشتراك فى هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا . ولكن الجائحة عامة ، والجنون فنون ويا عجبا لو صحت العقول لعلمت أن الطريق الذي يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هـو فى رضاء من النعيم كله فى رضاه والألم والعذاب كله فى سخطه وغضبه . ففي رضاه قرة العيون . وسرور النفوس . وحياة القلوب ، ولذة الارواح ، وطيب الحيـاة ولذة العيش ، وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف به ، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا ومافيها عوضاً منه ، ومـع هذا فهو ينعم بنصيبـه أعظم من تنعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمـه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والاحزان والمعارضات، بل قد حصل على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم

منهما وما يحصل له فى خلال ذلك من الآلام فالأمر كما قال سبحانه (١) (إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) فلا إله إلا الله ، ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر والمسك بالرجيع، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا

فصل

ومن أعظم عقوباتها أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر. فأى فلاح وأى رجاء وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى له عنه طرفة عين ولا بدل له منه ولا عوض له عنه ، واتصلت به أسباب الشر ووصل ما بينه وبين أعدائه فتولاه عدوه وتخلى عنه وليه، فلا تعلم نفس ما فى هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب . قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان ، فان أعرض الله عنه تولاه الشيطان ، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان . وقد قال تعالى(٢) (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) يقول

(١) فى سورة النساء (٢) فى سورة الكهف

سبحانه لعباده أنا أكرمت أباكم ورفعت قدره وفضلته على غيره فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له تكريماً وتشريفاً فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه فعصى أمري وخرج عن طاعتي ، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني ، فتطيعونه في معصيتي ، وتوالونه في خلاف مرضاتي ، وهم أعدا عدو لكم ؟ فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته . ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فان المحبة والطاعة لا تتم الا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه ، وأما ان توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له فهذا محال ، هذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم فكيف اذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة وبين الذئب ؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه ، ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله (وهم لكم عدو) كما نبه على قبحها بقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو الى معاداته ، فما هذه الموالاة وماهذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلا . ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب ، وهو إني عاديت إبليس إذ لم يسجد لابيكم آدم مع ملائكتي فكانت معاداته لاجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة

فصل

ومن عقوباتها أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة، وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله ، وما محيت البركة من الارض إلا بمعاصي الخلق ، قال الله تعالى (١) (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) وقال تعالى (٢) (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ، لنفتنهم فيه) (٣)وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه . وفى الحديث . ان روح القدس نفث فى روعي (٤) أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها · فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب فانه لا ينال ما عند الله الا بطاعته . وان الله جعل الروح (٥) والفرح فى الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط : وقد تقدم الأثر الذى ذكره أحمد فى كتاب الزهد « أنا الله إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى . وإذا غضبت لعنت ولعنتى تدرك السابع من الولد» وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ولا طول العمر بكثرة الشهور والاعوام . ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه . وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل

---

(١) في سورة الاعراف (٢) فى سورة الجن (٣) الغدق الكثير وفتنهم فيه أى اختبرهم هل يشكرون الله فيما أنعم عليهم أم لا (٤) الروع بضم الراء القلب والعقل يقال وقع في روعي أى في خلدي وبالي (٥) أي الرحمة

حياة البهائم خير من حياته فان حياة الانسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره(١) ومحبته وعبادته وحده والانابة اليه والطمأنينة بذكره والأنس بقربه . ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنها بما تعوض به فى الدنيا ، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء ألبتة ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات ؟ والعاجز بالذات عن القادر بالذات ؟ والميت عن الحي الذي لا يموت ؟ والمخلوق عن الخالق ؟ ومن لا وجود له . فلا شيء له من ذاته ألبتة عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته ؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والارض ؟ وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والاجل لان الشيطان موكل بها وبأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة . ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع لما فى مقارنة اسم الله من البركة . وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها ، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة . فان الرب هو الذى يبارك وحده والبركة كلها منه . وكل ما نسب اليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه وهى الشام أرض البركة ، وصفها بالبركة فى

---

(١) الفطر الابتداء والاختراع

ست آيات من كتابه . فلا مبارك الا هو وحده ولا مبارك إلا ما نسب اليه أعنى إلى محبته وألوهيته ورضاه ، والا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه ، وكل ما باعده من نفسه من الاعيان والاقوال والاعمال فلا بركة فيه. ولا خير فيه وكل ما كان منه قريباً ففيه من البركة على قدر قربه منه . وضد البركة اللعنة ، فأرض لعنها الله أو شخص لعنه الله أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة . وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبتة . وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه . فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله ، فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل ، فكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عصي الله به ، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ليس له ، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به، ولهذا من الناس من يعيش فى هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه والعلم . وفى الترمذي عنه ﷺ «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله عز وجل وما والاه ، أو عالم أو متعلم » وفى أثر آخر « ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله » هذا هو الذى فيه البركة خاصة . والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئاً لان يكون من العلية، فان الله خلق بخلقه قسمين: علية وسفلة: وجعل عليين مستقر العلية. وأسفل سافلين مستقر السفلة. وجعل أهل طاعته الأعلين فى الدنيا والآخرة. وأهل معصيته الاسفلين في الدنيا والآخرة كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه. وأهل معصيته أهون خلقه عليه. وجعل العزة لهؤلاء والذلة والصغار لهؤلاء كما فى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال «جعلت الذلة والصغار على من خالف أمري» وكلما عمل العبد معصية نزل الى أسفل درجة. ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين. وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الاعلين. وقد يجتمع للعبد فى أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله. فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً ابعد مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والارض ولا يفي صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد كما فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقي لها بالاً يهوي بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب» فأى صعود يوازن هذه النزلة والنزول أمر لازم للانسان ولكن من الناس من يكون نزوله

الى غفـلة فهذا متى استيقظ من غفلته عاد الى درجته أو الى أرفع منها بحسب يقظته . ومنهم من يكون نزوله الى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة فهذا اذا رجع الى الطاعة قد يعود الى درجته وقد لا يصل اليها وقد يرتفع عنها . فانه قد يعود أعلى همة مما كان . وقد يكون أضعف همة . وقد تعود همته كما كانت . ومنهم من يكون نزوله إلى معصية إما صغيرة أو كبيرة فهذا يحتاج فى عوده الى درجته الى توبة نصوح وانابة صادقة . واختلف الناس هل يعود بعد التوبة الى درجتـه التى كان فيها بناء على ان التوبة تمحو أثر الذنب وتجعل وجوده كعدمه فكأنه لم يكن أو لا يعود بنـاء على أن التوبة تأثيرها فى إسقاط العقوبة . وأما الدرجة التى فاتته فانه لا يصل اليها ؟ قالوا . وتقرير ذلك : أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة فى الزمن الذى عصى فيه لصعود آخر . وارتفاعـه بجملة أعمـاله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذى يملكه وكلما تضاعف المـال تضاعف الربح فقـد راح عليـه فى زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعمـاله فاذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول و كان قبـل ذلك صاعـداً من أسفل إلي أعلي و بينهما بون عظيم ، قالوا : ومثل ذلك رجلان مرتقيان فى سلمين لانهاية لهما وهما سواء فنزل أحدهما الى أسفل ولو درجة واحدة ثم استأنف الصعود فان الذى لم ينزل يعلو عليه ولابد، وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه بين الطائفتين حكما مقبولا ، فقال : التحقيق ان من التائبين من يعود الي أرفع من درجته ، ومنهم من يعود الى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل الى درجته . ومنهم من يعود

الى درجته . قلت : وهـذا بحسب قـدر التوبة وكما لهـا وما أحـدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع والانابةوالحذروالخوف من اللهوالبكاء من خشية الله . وقد تقوى علي هذه الامور حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ويصير بعد التوبة خيراً منة قبل الخطيئة . فهذا قـد تـكون الخطيئة فى حقه رحمة فانها نفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله . ووضعت خـد ضراعته وذله وإنـكساره على عتبة باب سيده ومولاه وعرفته قدره وأشهدته فقره وضرورته الي حفظ سيده له ومولاه وإلي عفـوه عنه ومغفرته له وأخرجت من قلبه صولة الطاعة وكسرت أنفه من أن يشمخ بها أو يتكبر بهـا أو يرى نفسه بها خيراً من غيره وأوقفته بين يدى ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدى ربه مستحياً خائفاً منه وجلا محتقرا لطاعته مستعظما لمعصيته . عرف نفسه بالنقص والذم وربه متفرد بالـكمال والحمد والوفى . كما قيل

استأثر الله بالوفي وبالحمـ * ـد وولى الملامة الرجـلا

فصل

فأى نعمة وصلت من الله اليه استكـثرهـا علي نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلالهـا وأى نقمة أوبلية وصلت اليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن اليه إذ لم يعاقبه علي قد جرمه ولا شطره ولا أدني جزء منه . فان مايستحقه من العقوبة لاتحمله الجبال الراسيات فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز . فان الذنب وان صغر

فان مقابلة العظيم الذي لا شيء أعظم منه. الكبير الذي لا شيء أكبر منه. الجليل الذى لا أجل منه ولا أجمل. المنعم بجميع أنواع النعم دقيقها وجليلها. من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها. فان مقابلة العظماء والاجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السموات والارض؟ وملك السموات والارض؟ وإله أهل السموات والارض؟ ولولا أن رحمته سبقت غضبه ومغفرته سبقت عقوبته وإلا لتزلزلت الارض بمن قابله بما لا تليق مقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزالت السموات والارض من معاصي العباد قال تعالى(١)(ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً)فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما الحليم والغفور كيف تجد تحت ذلك؟ انه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والارض. وأخبر سبحانه عن كفر بعض عباده أنه (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا (٢)). وقد أخرج الله سبحانه الابوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل:

(١) فى سورة فاطر (٢) يتفطرن يتشققن، وتخر تسقط، وهدا بتشديد الدال أى مهدودة والآية في سورة مريم

نصل الذنوب الى الذنوب ونرتجي * درج الجنان لذي النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الابوين من * ملكوتها الاعلى بذنب واحد

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه وتمرض قلبه فلا تقوى التوبة على إعادته الى الصحة الاولى فلا يعود الي درجته. وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود الى مثل عمله فيعود الي درجته. هذا كله إذا كان نزوله الى معصيته. فان كان نزوله الى أمر يقدح فى أصل إيمانه مثل الشكوك والريب والنفاق فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود الا بتجديد إسلامه من رأسه

فصل

ومن عقوباتها أنها تجرىء على العبد مالم يكن يجتريء عليه من أصناف المخلوقات فتجرىء عليه الشياطين بالأذى والاغواء والوسوسة والتخويف والتغرير وإنسائه مامصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه فتجتريء عليه الشياطين حتى تؤزه (١) الى معصية الله أزاً وتجترىء عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الأذى فى غيبته وحضوره وتجرىء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم. قال بعض السلف: اني لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق امرأتي ودابتى، وكذلك تجرىء عليه أولياء الامر بالعقوبة التي ان عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود، وتجرىء

(١) الاز بتشديد الزاي الدفع الشديد

عليه نفسه فتتأسد (١) عليه وتصعب عليه ، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له وتسوقه إلى مافيه هلاكه شاء أم أبى ، وذلك لأن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي من دخله كان من الآمنين. فاذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم ، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه ، وليس شيء يرد عنه . فان ذكر الله وطاعته والصدقة وإرشاد الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه . فاذا سقطت القوة غلب وارد المرض وكان الهلاك، ولا بد للعبد من شيء يرد عنه فان موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم ، وكلما قوي جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم. فان الله يدافع عن الذين آمنوا ، والايمان قول وعمل ، فبحسب قوة الايمان تكون قوة الدفع . والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تخون العبد أحوج مايكون الى نفسه ، فان كل أحد محتاج الى معرفة ماينفعه وما يضره في معاشه ومعاده . وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقواهم وأكيسهم من قوي على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره . وفي ذلك تتفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم ، فأعرفهم من كان عارفا بأسباب السعادة والشقاوة ،

(١) تصير كالأسد الضاري

وأرشدهم من آثر هذه على هذه كما أن أسفههم من عكس الأمر ، والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان الى نفسه في تحصيل هذا العلم وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع ، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له فى الدارين . فاذا وقع فى مكروه واحتاج الى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه . وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قرابه (١) بحيث لا ينجذب مع صاحبه اذا جذبه ، فعرض له عدو يريد قتله فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه. فدهمه العدو وظفر به كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخناً بالمرض (٢) فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً ، والعبد إنما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه ، والجوارح تبع للقلب فاذا لم تكن عند ملكها قوة يدفع بها فما الظن بها عند عدم ملكها ؟ وكذلك النفس فانها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف ، أعني النفس المطمئنة . وإن كانت الأمارة تقوى وتتأسد ، فكلما قويت هذه ضعفت هذه فبقي الحكم والتصرف للأمارة وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لا يرجى معه حياة فهذا ميت في الدنيا ميت فى البرزخ غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها ، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط

والمقصود أن العبد العاصي إذا وقع فى شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له ، فلا ينجذب قلبه للتوكل

(١) قراب السيف غمده (٢) أي مثقلا بالمرض

على الله تعالى والانابة اليه والجمعية والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكره .وان ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا ينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر . ولا ينحبس اللسان والقلب على المذكور بل ان ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه .ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه . وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي كمن له جند يدفع عنه الأعداء فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم وقطع أقواتهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة . هذا . وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى وأمر وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله تعالى . فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل لا إله إلا الله فقال: آه آه لا استطيع ان أقولها.وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فقال شاه رخ. غلبتك(١) ثم قضى . وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فقال :

يارب قائلة يوما وقد تعبت ✲ أين الطريق الى حمام منجاب

ثم قضى.وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يهذي بالغناء ويقول : تاتا ننتنتا(٢) فقال وما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبتها ثم قضى ولم يقلها.وقيل لآخر ذلك فقال وما يغني عني وما أعلم اني صليت لله تعالى صلاة ثم قضى ولم يقلها . وقيل لآخر ذلك فقال. هو كافر بما تقول وقضى

---

(١) شاه ورخ اسمين لحجرين من أحجار الشطرنج كان في حياته مفتونا بلعبه
(٢) يحكي أصوات وحركات آلات الطرب

وقيل لآخر ذلك فقال: كلما أردت أن أقولها فلساني يمسك عنها . وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس. لله فليس(١). حتى قضى . وأخبرني بعض التجار عن قرابة له انه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله وهو يقول: هذه القطعة رخيصة هذا مشترى جيد هذه كذا حتى قضي. وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبراً. والذي يخفي عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم. واذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصي وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى وعطل لسانه عن ذكره وجوارحه عن طاعته فكيف الظن به عند سقوط قواه . واشتغال قلبه بما هو فيه من ألم النزع. وجمع الشيطان له كل قوته وهمته . وحشد عليه بجميع مايقدر عليه لينال منه غرضه. فان ذلك آخر العمل. فأقوى مايكون عليه شيطانه ذلك الوقت وأضعف مايكون هو في تلك الحالة فمن ترى يسلم على ذلك ؟ فهناك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء . فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا؟ فبعيد من قلب بعيد من الله تعالى غافل عنه متعبد لهواه مصير لشهواته ولسانه يابس من ذكره وجوارحه معطلة من طاعته مشتغلة بمعصية الله أن يوفق لحسن الخاتمة . ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين . وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالايمان (أم لكم أيمان علينا بالغة الى يوم القيامه ؟ ان لكم لما تحكمون

(١) فليس بضم الفاء تصغير فلس أي اعطوني فلساً لله

بسلهم: أيهم بذلك زعيم؟)(١)

يا آمنا من قبيح الفعل يصنعه * هل أتاك تواقيع أم أنت تملكه
جمعت شيئين أمناً واتباع هوى * هذا وإحداهما فى المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد * ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت فى الزرع وقت البذر من سفه * فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا . وأعجب شيء منك زهدك فى * دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه اذاً ؟ بالله . أنت أم المغبون في البيع غبنا سوف تدركه؟

فصل

ومن عقوباتها أنها تعمي القلب فان لم تعمه أضعفت بصيرته ولابد. وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولابد. فاذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته فان كمال الانسان مداره على أصلين : معرفة الحق من الباطل ، وإيثاره عليه ، وماتفاوتت منازل الخلق عند الله تعالي فى الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم فى هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام فى قوله تعالي (٢) (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولي الأيدى والأبصار) فالايدى القوة فى تنفيذ الحق . والابصار البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه . وانقسم الناس فى هذا المقام أربعة أقسام ، فهؤلاء أشرف الأقسام

(١) فى سورة الطور (٢) في سورة ص

من الخلق وأكرمهم على الله تعالى ، القسم الثانى عكس هؤلاء من لا بصيرة له فى الدين ولا قوة علي تنفيذ الحق ، وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون وحمى (١) الأرواح وسقم القلوب ، يضيقون الديار ويغلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم الا العار والشنار . القسم الثالث من له بصيرة فى الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف . والمؤمن القوي خير وأحب الى الله منه . القسم الرابع من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة فى الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وبين أولياء الشيطان بل يحسب كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة . يحسب الورم شحماً والدواء النافع سماً . وليس فى هؤلاء من يصلح للامامة فى الدين ولا هو موضع لها سوى القسم الأول قال الله تعالى (٢) (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الامامة فى الدين . وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين وأقسم بالعصر الذى هو زمن سعي الخاسرين والرابحين علي أن من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى (والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصي بعضهم بعضاً ويرشده اليه ويحثه عليه . فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين . فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي وتضعف

---

(١) بضم الحاء وشد الميم المرض المعروف (٢) في سورة الم السجدة

قوته وعزيمته فلا يصبر عليه بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره. فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً والمعروف منكراً والمنكر معروفاً فينتكس فى سيره ويرجع عن سفره الى الله والدار الآخرة الى سفره الى مستقر النفوس المبطلة التى رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقائه. ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه وحدها لكانت كافية داعية الى تركها والبعد منها. والله المستعان. وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة فى جلائها وصفائها فيتلألأ نوراً. فاذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره مايصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب فالشيطان يفرق (١) من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الاسد. حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض: ماشأنه؟ فيقال: أصابه إنسي. وبه نظرة من الانس

فيانظرة من قلب حر منور * يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوي هذا القلب وقلب مظلم أرجاؤه. مختلفة أهواؤه. قد اتخذه الشيطان وطنه وأعده مسكنه. اذا تصبح بطلعته حياه وقال: فديت من لايفلح فى دنياه ولا فى أخراه

أنا قرينك فى الدنيا وفى الحشر بعـ * ـدها فأنت قرين لى بكل مكان

(١) يخاف خوفا شديدا

فان كنت في دار الشقاء فانني وأنت جميعا في شقاً وهوان

قال الله تعالى (١) (ومن يعش (٢) عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا (٣) فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى اذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين (٤) . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون) فأخبر سبحانه أن من عشى عن ذكره وهو كتابه الذى أنزل على رسوله ﷺ وبارك فيه فأعرض عنه وعمى عنه وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قيض الله له شيطانا عقوبة له على إعراضه عن كتابه فهو قرينه الذى لا يفارقه لا فى الاقامة ولا فى المسير . وهو مولاه وعشيره الذى هو بئس المولى وبئس العشير

رضيعا لبان ثدى أم تقاسما * بأسحم داج عوض لا يتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المضل المصدود أنه على طريق هدى حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين كنت لي فى الدنيا . أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءني . وصددتنى عن الحق وأغويتني حتى هلكت ، وبئس القرين أنت لي اليوم . ولما كان المصاب اذا شاركه غيره في مصيبته حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية أخبر الله سبحانه أن هذا غير

---

(١) في سورة الزخرف (٢) يعش أي يعمي فلا يبصر والمراد عمى البصيرة
(٣) قيض الله لفلان شيطانا أى جاءه به وأتاحه له (٤) أى المقارن

موجود وغير حاصل في حق المشتركين فى العذاب وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

ولولا كثرة الباكين حولي ✡ على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ✡ أعزي النفس عنه بالتأسي
الا ياصخر لا أنساك حتى ✡ أفارق عيشتي وورود رمسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال (ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون)

فصل

ومن عقوباتها أنها مدد من الانسان يمد به عدوه عليه . وجيش يقويه به على حربه . وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الانسان بعدو لا يفارقه طرفة عين . صاحبه ينام وهو لا ينام عنه ويغفل ولا يغفل عنه. يراه هو وقبيله(١) من حيث لايراه . يبذل جهده في معاداته بكل حال . ولايدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله اليه الا أوصله . ويستعين عليه ببنى جنسه من شياطين الانس وغيرهم من شياطين الجن . وقد نصب له الحبائل . وبغى له الغوائل . ومد حوله الاشراك . ونصب له الفخاخ والشباك . وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدأبيكم لا يفوتكم . ولايكون حظه الجنة وحظكم النار . ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة . وقد علمتم أن

(١) القبيل الجماعة تكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى

ماجرى علي وعليكم من الخزى واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله . فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا فى هذه البلية . اذ قد فاتنا شركة صالحيهم في الجنة . ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلط عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها وأمدعدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها . وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التى هي بالاضافة الي الآخرة كنفس واحد من أنفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه وهي التوارة والانجيل والقرآن ، ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه ، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التى من أراد أن يعرف قدرها فلينظر الى المشتري من هو ، وإلى الثمن المبذول فى هذه السلعة ، وإلى من جري علي يديه هذا العقد ، فأي فوز أعظم من هذا ، وأي تجارة أربح منه ؟ ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله (١) (ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين) ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات اليه إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه . وأهله أرفع الخلق عنده درجات وأقربهم

(١) في سورة الصف

اليه وسيلة . فعقد سبحانه لواء هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذى هو محل معرفته ومحبته وعبوديته والاخلاص له والتوكل عليه والانابة اليه ، فولاه أمر هذه الحرب وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) (١) يعقب بعضهم بعضاً ، كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر ، يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه ويقولون : إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ، ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه فأرسل اليه رسول الله ﷺ ، وأنزل اليه كتابه فازداد قوة إلى قوته ومددا الى مدده وعدة الى عدته ، وأمده مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالايمان مثبتاً له ومؤيداً وناصراً ، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر أمر جيشه ، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها ، والايمان يثبته ويقويه ويصبره . واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة . ثم مد سبحانه القائم بهذه الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين طليعته ، والأذن صاحب خبره ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه . وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ويسئلون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات . وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه وقال (٢) (اولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) وهؤلاء جنده (٣) (وإن جندنا لهم الغالبون)

(١) في سورة الرعد (٢) فى سورورة قد سمع الله (٣) في سورة الشعراء

وعلم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد فجمعها لهم في أربع كلمات فقال (١) (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) ولايتم امر الجهاد الا بهذه الامور الأربعة . فلا يتم الصبر الا بمصابرة العدو وهو مقاومته ومنازلته فاذا صابر عدوه احتاج الي أمر آخر وهي المرابطة وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو . ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل . فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ماقدر عليه. فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولايخلي مكانها فيصادف العدو والثغر خالياً فيدخل منها . فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين صلى الله عليهم وسلم أجمعين وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم وقد خلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ما كان . وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذى تقوم به هو تقوى الله . فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة الا بالتقوى ، ولا تقوم التقوى الا على ساق الصبر. فانظر الآن فيك الى التقاء الجيشين واصطدام العسكرين ، وكيف تدال مرة ويدال عليك أخرى ، أقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب في حصنه جالساً على كرسى مملكته ، أمره نافذ في أعوانه وجنده قد أحاطوا به يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته فلم يمكنهم الهجوم عليه إلا بمخامرة(٢) بعض أمرائه وجنده عليه فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة فقيل له هى النفس فقال لأعوانه : ادخلوا عليها من مرادها وانظروا

(١) في سورة آل عمران (٢) أي مخادعتهم واحالتهم

مواقع محبتها وما هو محبوبها فعدوها (١) به ومنوها اياه وانقشوا صورة المحبوب فيها فى يقظتها ومنامها. فاذا اطمأنت اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ثم جروها بها اليكم فاذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغر العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل فرابطوا على هذا الثغور كل المرابطة . فمتى دخلتم منها الى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مثخن بالجراحات . ولا تخلوا هذه الثغور ولا تمكنوا سرية تدخل منها الى القلب فتخرجكم منها . وان غلبتم فاجتهدوا فى إضعاف السرية ووهنها حتى لا تصل الى القلب . فان وصلت اليه وصلت ضعيفة لا تغنى عنه شيئاً . فاذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره إعتباراً بل اجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً وتلهياً . فان استرق نظرة عبرة فأفسدوها عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة فانه أقرب اليه وأعلق بنفسه وأخف عليه . ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم فاني ما أفسدت بنى آدم بشيء مثل النظر فاني أبذر به فى القلب بذر الشهوة . ثم أسقيه بماء الامنية . ثم لا أزال أعده وأمنيه حتي أقوي عزيمته وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة . فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم وهونوا عليه أمره وقولوا له : مقدار نظرة تدعوك الى تسبيح الخالق والرازق البديع والتأمل ، والتجمل صفته . وحسن هذه الصورة التى إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه . وما خلق الله لك العينين سدى . وما

(١) من الوعد

خلق الله هذه الصورة لیحجبها عن النظر.وإن ظفر تم به قليل العلم فاسد العقل فقولوا له : هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه فادعوه الى القول بالاتحاد فان لم يقبل فالقول بالحلول العام والخاص (١). ولا تقنعوا منه بدون ذلك فانه يصير به من إخوان النصارى، فمروه ،حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد في الدنيا واصطادوا عليه الجهال فهذا من أقرب خلفائي وأكبر جندي بل أنا من جنده وأعوانه

فصل

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر فاجتهدوا ان لا تدخلوا منه الا الباطل فانه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه وتخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب، امزجوه بما تهوي النفس مزجاً ،وألقوا الكلمة فان رأيتم منه إصغاء اليها فزيدوه باخواتها.فكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره . وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء . فان غلبتم على ذلك ودخل شيء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به . إما بادخال ضده عليه وإما بتهويل ذلك وتعظيمه وأن

(١) مذهب الاتحاد هو اعتقاد ان الخالق والمخلوق اتحدا حتى صارا شيئاً واحداً وما هذه المخلوقات الا مظاهر يتجلى فيها الخالق . ومذهب الحلول اعتقاد ان الله حال فى خلقه كلهم وهو الحلول العام أو فى بعضهم وهو الحلول الخاص وينعق ابن عربى وابن الفارض وابن سبعين وعلي وفا واشباههم بذلك الكفر البواح والظلم العظيم في كتبهم مثل الفتوحات وغيره والناس بها مفتونون

هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه ، وهو حمل ثقيل عليها لاتستقل به ونحو ذلك . وإما بارخاصه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس وأعز عليهم وأغرب عندهم وزبونه أكثر (١). وأما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان والربح بين الناس أولى بالايثار ونحو ذلك ، فيدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه، ويخرجون له الحق فى كل قالب يكرهه ويثقل عليه. وإذا شئت ان تعرف ذلك فانظر الى اخوانهم من شياطين الانس كيف يخرجون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فى قالب كثرة الفضول وتتبع عثرات الناس والتعرض من البلاء لما لا يطيق وإلقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك ، ويخرجون اتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ في قالب التشبيه والتجسيم والتكييف ، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزاً ، ويسمون نزوله الي سماء الدنيا وقوله « من يسألني فأعطيه » تحركا وانتقالا ، ويسمون ماوصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ، ويسمون مايقوم به من أفعاله حوادث وما يقوم به من صفاته أعراضاً ، ثم يتوصلون الى نفي ماوصف به نفسه بهذه الامور ويوهمون الأغمار (٢) وضعفاء البصائر أن اثبات الصفات التى نطق بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تستلزم هذه الأمور ، ويخرجون هذا التعطيل فى قالب التنزيه والتعظيم .

---

(١) اي الراغبون فيه أكثر (٢) جمع غمر بضم الغين وسكون الميم الذي لم يجرب الامور

وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ ويردونه بعينه بلفظ آخر . قال الله تعالى (١) (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الي بعض زخرف القول غروراً) فسماه زخرفاً وهو القول الباطل لان صاحبه يزخرفه ويزينه مااستطاع ويلقيه الى سمع المغرور فيغتر به . والمقصود أن الشيطان قد لزم ثغر الاذن أن يدخل فيها مايضر العبد ويمنع أن يدخل اليها ما ينفعه . وإن دخله بغير اختياره أفسده عليه

فصل

ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان فانه الثغر الأعظم وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام مايضره ولا ينفعه وامنعوه أن يجرى عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحة عباده أو التكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم فى هذا الثغر أثران عظيمان ، لاتبالون بأيهما ظفرتم : أحدهما التكلم بالباطل فانما المتكلم بالباطل أخ من اخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم . الثانى السكوت عن الحق فان الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما ان الأول أخ لكم ناطق ، وربما كان الأخ الثاني أنفع اخوانكم لكم ، أما سمعتم قول الناصح : المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس . فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل ، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق . واعلموا يابنى أن ثغر

---

(١) فى سورة الانعام

اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم وأكبهم منه على مناخرهم في النار(١) فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر، وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ويكون الآخر على لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعوانا على الانس بكل طريق وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصد. أما سمعتم قسمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت (٢) (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) أما ترونى قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له من طريق غيره حتى أصبت منه حاجتي أو بعضها، وقد حذرهم ذلك رسول الله ﷺ وقال لهم «إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها» قعد له بطريق الاسلام فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه وأسلم. فقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فخالفه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: أتجاهد فتقتل ويقسم المال وتنكح الزوجة؟ فخالفه وجاهد. فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير. فاذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له في نفسه: أتخرج المال وتبقى مثل هذا السائل وتصير بمنزلته أنت وهو سواء؟ أو ما سمعتم ما ألقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه فقال: أموالنا اذا

(١) اكبهم اي صرعهم وألقاهم (٢) في سورة الاعراف.

أعطينا كموها صرنا مثلكم، واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له : طريقه مخوفة مشقة ، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعوبتها وآفاتها .ثم اقعدوا على المعاصى فحسنوها فى عين بنى آدم وزينوها في قلوبهم واجعلوا أكبر أعوانكم على ذلك النساء ، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم فنعم العون هن لكم

ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين فامنعوها ان تبطش بما يضركم أو تمشى فيه . واعلموا أن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الامارة فأعينوها واستعينوا بها وأمدوها واستمدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة . فاجتهدوا فى كسرها وإبطال قواها . ولا سبيل الى ذلك إلا بقطع موادها عنها .فاذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة وطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه واعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس فانها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ، ولا تجيبكم بما تكرهونه ألبتة مع انها لا تخالفكم فى شيء تشيرون به عليها . بل إذا أشرتم عليها بادرت الى فعله .فان احسستم من القلب منازعة الى مملكته وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح فزينوها وجملوها وأروها إياه فى أحسن صورة عروس توجد . وقولوا له : ذق حلاوة طعم هذا الوصال والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب . ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب تضع أوزارها . فليست بيوم وينقضي . وإنما هو حرب متصل بالموت وقواك تضعف عن

مداومة الحرب . واستعينوا يابنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما : أحدهما جند الغفلة فاغفلوا قلوب بنى آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق ، فليس لكم شيء أبلغ فى تحصيل غرضكم من ذلك ، فان القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه ومن أعوانه . الثاني جند الشهوة فزينوها فى قلوبهم وحسنوها فى أعينهم ، وصولوا عليهم بهذين العسكرين فليس لكم فى بنى آدم أبلغ منهما ، واستعينوا على الغفلة بالشهوات ، وعلى الشهوات بالغفلة ، واقرنوا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذاكر ، ولا يغلب واحد خمسة ، فان مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة وشيطان الذاكر معهم . واذا رأيتم جماعة مجتمعين علي مايضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببنى جنسهم من الانس البطالين فقربوهم منهم وشوشوا عليهم بهم . وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها وادخلوا على كل واحد من بنى آدم من باب إرادته وشهوته فساعدوه عليها وكونوا له أعوانًا على تحصيلها . وإذا كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم ويصابروكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور . وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بنى آدم في أعظم من هذين الموطنين . واعلموا ان منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب . ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب فلا تخلوا طريق الشهوة عليه ولا تعطلوا ثغرها فان من لم يملك نفسه

عند الغضب فانه بالحري أن لا يملكها عند الشهوة . فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وامزجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب وإلى الغضب من طريق الشهوة ، واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين . وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب . فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماءهم ، وبه قتل أحد ابني آدم أخاه . واعلموا أن الغضب جمرة في قلب ابن آدم والشهوة نار تثور من قلبه . وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير . فأياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فان ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم نبيهم بذلك وقال « إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه . فمن أحس بذلك فليتوضأ » وقال لهم « إنما تطفأ النار بالماء » وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك ، وأنسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب . وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها الغفلة واتباع الهوى . وأعظم أسلحتهم فيكم وأمنع حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوى . فاذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظله ولا تدنوا منه

والمقصود ان الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ويعينهم بها على نفسه فيقاتلونه بسلاحه ، والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل ، قال الشاعر :

ما يبلغ الاعداء من جاهل * ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن العجائب أن العبد يسعى بنفسه فى هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ويجتهد فى حرمانها من حظوظها وشرفها وهو يزعم أنه يسعى فى حظها . ويبذل جهده فى تحقيرها وتصغيرها وتدنيسها وهو يزعم انه يسعى فى صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها . وكان بعض السلف يقول فى خطبته : ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر. ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها . وكفى بالمرء جهلا أن يكون مع عدوه علي نفسه يبلغ منها بفعله مالا يبلغه عدوه . والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تنسي العبد نفسه فاذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها . فان قيل : كيف ينسى العبد نفسه ؟ وإذا نسى نفسه، فأى شيء يذكره ؟ وما معنى نسيانه نفسه ؟ قيل : نعم ينسى نفسه أعظم نسيان قال تعالى (١) (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى (٢) (نسوا الله فنسيهم) فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين : احداهما أنه سبحانه نسيه . والثانية أنه أنساه نفسه . ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته . فالهلاك أدنى اليه من اليد للفم وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها

---

(١) فى سورة الحشر (٢) في سورة التوبة

وإصلاحها وما يكملها ، ينسيه ذلك جميعه فلا يخطر بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف اليه همته فيرغب فيه . فانه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره . وأيضاً ينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها فلا يخطر بباله إزالتها واصلاحها . وأيضا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعي فى إزالة عللها وأمراضها التي تؤول بها الى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ، ومرضه مترام به الى التلف ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته . وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة . فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها وأسباب سعادتها وصلاحها وفلاحها وحياتها الابدية فى النعيم المقيم ؟ ومن تأمل هذا الموضع تبين له ان اكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن يوم يظهر للعبد أنه غبن فى العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار والتجارة التى اتجر فيها لمعاده فان كل أحد يتجر فى هذه الدنيا لآخرته ، فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها . فأذهبوا طيباتهم ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها فى حياتهم الدنيا وحظهم فيها . ولذاتهم فيها واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا اليها وكان سعيهم لتحصيلها . فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلاً بعاجل ونسيئة بنقد وغائبًا بناجز وقالوا : هذا هو الزهرة . ويقول أحدهم :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به

فكيف أبيع حاضراً نقداً شاهداً فى هذه الدار بغائب نسيئة فى دار أخرى غير هذه؟ وينضم الى ذلك ضعف الايمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبيه ببنى الجنس. فأكثر الخلق فى هذه التجارة الخاسرة التى قال الله فى أهلها (١) (اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) وقال فيهم (٢) (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) فاذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة فتتقطع منهم النفوس حسرات. وأما الرابحون فانهم باعوا فانياً بباق وخسيساً بنفيس وحقيراً بعظيم وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها الى آخرها حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها؟ فكيف بما ينال العبد منها فى هذا الزمن القصير الذى هو في الحقيقة كغفوة حلم لا نسبة له إلى دار القرار ألبتة قال تعالى (٣) (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) وقال تعالى (٤) (يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. الى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال تعالى (٥) (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) وقال تعالى (٦) (كم لبثتم فى الارض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل

(١و٢) في سورة البقرة (٣) فى سورة يونس (٤) في سورة النازعات
(٥) في سورة الاحقاف (٦) في سورة المؤمنون

العادين . قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) وقال تعالى (١) (ويوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً(٢) يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشراً نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة . فلما علموا قلة لبثهم فيها وأن لهم داراً غير هذه الدار ، دار الحيوان ودار البقاء رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء فاتجروا تجارة الأكياس ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس . فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم و مقدار ماشتروه ، وكل أحد فى هذه الدنيا بائع مشتر متجر . وكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها (إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) (٣) فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة . فتاجروا أيها المفلسون . ويامن لايقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) (ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) (٤) والمقصود أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة

(١) في سورة طه (٢) جمع أزرق (٣) فى سورة التوبة (٤) فى سورة الصف

الرابحة وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة . والله المستعان

فصل

ومن عقوباتها أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل . فان نعم الله ماحفظ موجودها بمثل طاعته ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته ، فان ماعند الله لاينال الا بطاعته وقد جعل الله سبحانه لكل شئ سبباً وآفة ، سببا يجلبه وآفة تبطله . فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفاتها المانعة منها معصيته . فاذا أرادحفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها . ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة فى نفسه وغيره وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصية الله كأنه مستثنى من هذه الجملة أومخصوص من هذا العموم ، وكأن هذا أمر جار على الناس لاعليه وواصل الى الخلق لااليه ، فأي جهل أبلغ من هذا ؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا ؟ فالحكم لله العلي الكبير

فصل

ومن عقوباتها أنها تباعد عن العبد وليه وأنصح الخلق له وأنفعهم له ومن سعادته فى قربه منه، وهو الملك الموكل به. وتدني منه عدوه وأغش الخلق وأعظمهم ضرراً له ، وهو الشيطان . فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية حتى انه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة

بعيدة . وفى بعض الآثار : إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه . فاذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه ؟ وقال بعض السلف : إذا ركب الذكر الذكر عجت الأرض إلى الله وهربت الملائكة إلى ربها وشكت إليه عظم مارأت . وقال بعض السلف : إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان فان ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه . وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له ، فتتولاه الملائكة فى حياته وعند موته وعند مبعثه . قال الله تعالى (١) (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفعهم وأبرهم به ، فثبته وعلمه وقوى جنانه وأيده قال تعالى (٢) (إذ يوحي ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) ويقول الملك للعبد عند الموت « لا تخف ولا تحزن وابشر بالذى يسرك » ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون اليه . فى الحياة الدنيا ، وعند الموت . وفى القبر عند المسألة . فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له وهو وليه فى يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفى قبره ، ومؤنسه فى وحشته وصاحبه فى خلوته ويحدثه فى سره ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويعينه عليه ويعده بالخير ويبشره به

---

(١) فى سورة حم السجدة (٢) فى سورة الانفال

ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء في الاثر الذي يروى مرفوعاً وموقوفا للملك بقلب ابن آدم لمة[1] وللشيطان لمة فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد . ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق » وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه وألقى على لسانه القول السديد وإذا بعد منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك والرجل يتكلم على لسان الشيطان . وفي الحديث « ان السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه » وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول : ماألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول : ماألقاها على لسانك الا الشيطان ، فالملك يلقي في القلب الحق ويلقيه على اللسان . والشيطان يلقي الباطل في القلب ويجريه على اللسان. فمن عقوبة المعاصي أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته . وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته . حتى ان الملك لينافح[2] عن العبد ويرد عنه اذا سفه عليه سفيه وسبه . كما اختصم بين يدى النبي ﷺ رجلان[3] فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه فقام النبي ﷺ فقال : يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت . فقال «كان الملك ينافح عنك فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لاجلس » واذا دعا العبد المسلم في ظهر

(١) اللمة بفتح اللام من ألم به نزل نزولا خفيفاً ومعناه الخطرة في القلب (٢) أي يدافع (٣) أحدهما ابو بكر رضي الله عنه وهو الذي كان ساكتاً ثم رد

الغيب لاخيه أمن الملك على دعائه فقال «ولك بمثل ذلك» . وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه فاذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيل الله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله. وإذا نام العبد المؤمن بات فى شعاره(١) ملك. فملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه. فلا يليق به أن ينسى جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده . فانه ضيفه وجاره . وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والاحسان الى الجار من لزوم الايمان وموجباته . فما الظن باكرام أكرم الاضياف ، وخير الجيران وأبرهم ؟ وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصى والظلم والفواحش دعا عليه ربه (٢) وقال « لا جزاك الله خيرا » كما يدعو له إذا اكرمه بالطاعة والاحسان . قال بعض الصحابة رضي الله عنهم « إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم » ومن ألأم ممن لا يستحيي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره . وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله (٣) (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام ، وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم . والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم . واذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصى بين يديه ، وان كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظن باذى الملائكة الكرام الكاتبين ؟ والله المستعان

(١) الشعار ما يلي الجسم من الثياب (٢) أي دعا الملك على العبد (٣) فى سورة اذا السماء انفطرت

فصل

ومن عقوباتها أنها تستجلب مراد هلاك العبد في دنياه وآخرته فان الذنوب هي أمراض القلوب متى استحكمت قتلت ولا بد . وكما أن البدن لايكون صحيحاً الا بغذاء يحفظ قوته ، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية التي متى غلبت عليه أفسدته جميعه ، وحمية يمتنع بها من تناول مايؤذيه ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لاتتم حياته الا بغذاء من الايمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية منه ، وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب مايضادها وهي عبارة عن ترك استعمال مايضاد الصحة ، والتقوى اسم يتناول هذه الامور الثلاثة . فما فات منها فات من التقوى بقدره . وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الامور الثلاثة فانها تستجلب المواد المؤذية ، وتستوجب التخليط المضاد للجميع ، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح . فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الاخلاط ومواد المرض وهو لايستفرغها ولا يحتمى لها كيف تكون صحته وبقاؤه ؟ ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية أحصنته * مخافة من ألم طارى

وكان أولى بك أن تحتمي * من المعاصي خشية البارى

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر ، واستعمل الحمية باجتناب النواهي ،

واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطلباً ولا من الشر مهرباً . والله المستعان

فصل

فان لم ترعك (١) هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيراً في قلبك فأحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم . كما قطع يد السارق في ثلاثة دراهم . وقطع اليد والرجل في قطع الطريق على معصوم المال والنفس . وشق الجلد بالسوط في كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه . وقتل بالحجارة أشنع قتله في إيلاج الحشفة في فرج حرام ، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الاحصان بمائة جلدة وينفي سنة عن وطنه وبلده الى بلد غربة . وفرق بين رأس العبد وبدنه (٢) اذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطىء ذكرا مثله وقتل المفعول به . وأمر بقتل من أتى بهيمة وقتل البهيمة معه ، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن صلاة في الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التى رتبها الله على الجرائم وجعلها بحكمته على حسب الدواعي الى تلك الجرائم وعلى حسب الوازع عنها . فما كان الوازع عنها طبيعيا وماليس فى الطباع داع اليه اكتفى بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حداً كأكل الرجيع وشرب الدم وأكل الميتة ، وما كان فى الطباع داع اليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داعي الطبع اليه ،

(١) أي لم تخفك من الروع (٢) أي فصلها عن بدنه بالقطع

ولهذا لما كان داعي الطباع الى الزنى من أقوى الدواعي كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع الجلد مع زيادة التغريب. ولما كانت اللواطة فيها الأمران كان حدها القتل بكل حال . ولما كان داعي السرقة قويا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد. وتأمل حكمته في إفساد العضو الذي باشر به الجناية كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به إذ مفسدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولا تبلغها . فاكتفى من ذلك بايلام جميع بدنه بالجلد . فان قيل : فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية؟ قيل :لا، بوجوه (أحدها) أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية إذ فيه قطع النسل وتعريضه للهلاك (الثاني) ان الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناية بخلاف قطع اليد (الثالث) أنه اذا قطعت يده أبقي له يد أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج (الرابع) أن لذة الزني عمت جميع البدن، فكان الاحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه (١) فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة

والمقصود أن الذنوب إنما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية على قدر مفسدة الذنب وقد يجمعها الله على العبد. وقد يرفعها عمن تاب وأحسن

---

(١) البضعة بفتح الباء وهي القطعة من اللحم

فصل

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية ، وقدرية . فاذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها ، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على عبده بين العقوبتين الا اذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب ولم يكن فيه زوال دائه . واذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ولكنها تعم والشرعية تخص . فان الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعا الا من باشر الجناية أو تسبب اليها . وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة ، فان المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة . وإذا رأى الناس المنكر فاشتركوا فى ترك إنكاره أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضي الطبع لها ، وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد . وجعل القتل بازاء الكفر وما يليه ويقربه وهو الزنى واللواطة ، فان هذا يفسد الأديان وهذا يفسد الانسان . قال الامام أحمد رحمه الله « لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزناء » واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال : يارسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا (١) وهو خلقك » قال قلت : ثم أي ؟ قال « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم (٢) معك » قال قلت : ثم أي ؟ قال « أن تزاني بحليلة جارك » فانزل تصديقها فى كتابه

(١) الند الشبيه والمثيل ولو فى بعض الاشياء (٢) يطعم بفتح الياء والعين

(والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون — الآية) (١) والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل، فانه سأل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها وما هو أعظم كل نوع. فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبدلله نداً .وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه . وأعظم أنواع الزنى أن يزني بحليلة جاره فان مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحرمة . فالزنى بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه، وتعليق نسب عليه لم يكن منه وغير ذلك من أنواع أذاه ، فهو أعظم إثماً وجرماً من الزنى بغير ذات البعل . فان كان زوجها جاراً له انضاف الى ذلك سوء الجوار ، ولذا أجابه بأعلى أنواع الاذى وذلك من أعظم البوائق . وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه (٢) » ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته ، فالزنى بمائة امرأة لازوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فان كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه انضم الى ذلك قطيعة الرحم فيتضاعف الاثم. فان كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف الاثم ، حتى إن الزاني بامرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقال خذ من حسناته ماشئت ، قال النبي ﷺ « فما ظنكم؟ » أي ماظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم في أن يأخذ منها ماشاء على شدة الحاجة الى حسنة

(١) في سورة الفرقان (٢) اي غوائله وشروره واحدها بائقة وهي المهلكة

واحدة، حيث لايترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه؟ فان اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف الى ذلك قطيعة رحمها . فان اتفق أن يكون الزاني محصناً كان الاثم أعظم . فان كان شيخاً كان اعظم إثماً، وهو أحد الثلاثة الذين لايكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . فان اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله كأوقات الصلاة وأوقات الاجابة تضاعف الاثم . وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الاثم والعقوبة . والله المستعان

فصل

وجعل سبحانه القطع بازاء افساد الاموال الذى لايمكن الاحتراز منه فان السارق لايمكن الاحتراز منه لأنه يأخذ الاموال فى الخفاء وينقب الدور ويتسور من غير الابواب فهو كالسنور والحية التي تدخل عليك من حيث لاتعلم ، فلم يرفع مفسدة سرقته الى القتل ولا تندفع بالجلد . فأحسن مادفعت به مفسدته إبانة العضو الذى تسلط به على الجناية. وجعل الجلد بازاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف . فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الانواع الثلاثة كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع : العتق وهو أعلاها ، والاطعام ، والصيام . ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام : قسما فيه الحد ، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد . وقسما لم يرتب عليه حد ، فشرع فيه الكفارة كالوطء في

نهار رمضان والوطء فى الاحرام، والظهار، وقتل الخطأ، والحنث فى اليمين، وغير ذلك . وقسما لم يرتب عليه حد ولا كفارة ، وهو نوعان : أحدهما ما كان الوازع عنه طبعياً كأكل العذرة وشرب البول والدم . والثانى ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة والقبلة واللمس والمحادثة وسرقة فلس ونحو ذلك . وشرع الكفارات فى ثلاثة أنواع : أحدها ما كان مباح الاصل ثم عرض تحريمه فباشره فى الحالة التى عرض فيها التحريم كالوطء فى الاحرام والصيام . وطرده الوطء فى الحيض والنفاس بخلاف الوطء فى الدبر، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء فى الحيض لايصح ، فانه لايباح فى وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر . النوع الثانى ماعقد لله من نذر أو مالله من يمين أو حرمه الله ثم اراد حله فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة ، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه بعض الفقهاء ، فان الحنث قد يكون واجباً وقد يكون مستحباً وقد يكون مباحاً . وانما الكفارة حل لما عقده . النوع الثالث ما تكون فيه جابرة لما فات ككفارة قتل الخطأ وان لم يكن هناك اثم . وكفارة قتل الصيد الخطأ وان لم يكن هناك اثم ، فان ذلك من باب الجوابر ، والنوع الاول من باب الزواجر ، والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد . ولا يجتمع الحد والتعزير فى معصية بل ان كان فيها حد اكتفى به والا اكتفى بالتعزير . ولا يجتمع الحد والكفارة فى معصية، بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها وما فيه كفارة فلا حد فيه . وهل يجتمع التعزير والكفارة

فى المعصية التي لاحد فيها ؟ فيه وجهان . وهذا كالوطء في الاحرام والصيام ووطء الحائض،اذا أوجبنا فيه الكفارة فقيل يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية.وقيل لاتعزير فى ذلك اكتفاء بالكفارة لانها جابرة وماحية

فصل

وأما العقوبات القدرية فهي نوعان : نوع على القلوب والنفوس . ونوع على الابدان والاموال ، والتي على القلوب نوعان : أحدهما آلام وجودية يضرب بها القلب . والثاني قطع المواد التى بها حياته وصلاحه عنه . وإذا قطعت عنه حصل له اضدادها . وعقوبة القلوب أشد العقوبتين وهى أصل عقوبة الابدان ، وهذه العقوبة تقوي وتتزايد حتى تسري من القلب الى البدن كما يسرى ألم البدن الى القلب . فاذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها فظهرت عقوبة القلب حينئذ وصارت علانية ظاهرة وهي المسماة بعذاب القبر . ونسبته الى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان الى هذه الدار

فصل

والتى على الأبدان أيضاً نوعان . نوع فى الدنيا ونوع فى الآخرة وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ماترتب عليها فى الشدة والخفة . فليس في الدنيا والآخرة شر أصلا إلا الذنوب وعقوباتها : فالشر اسم لذلك

كله ، وأصله من شر النفس وسيئات الاعمال ، وهما الاصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيذ منهما في خطبته بقوله « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » وسيئات الاعمال من شرور النفس فعاد الشر كله الي شر النفس ، فان سيئات الاعمال من فروعه وثمراته . وقد اختلف في معنى قوله «ومن سيئات أعمالنا » هل معناه السيء من أعمالنا فيكون من باب اضافة النوع الي جنسه : وتكون بمعنى من : وقيل معناه من عقوباتها التى تسوء فيكون التقدير ومن عقوبات أعمالنا التى تسوءنا . ويرجع هذا القول أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر . فان شرور الأنفس تستلزم الاعمال السيئة وهى تستلزم العقوبات السيئة ، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال واكتفى بذكرها عنه إذ هى أصله ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهي السيئات التى تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام . فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه . ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم (١) (وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الاعمال وعقوباتها التى تسوء صاحبها ، فانه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء وإن كان قوله (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) أظهر فى عقوبات الاعمال المطلوب وقايتهم يومئذ منها . فان قيل : فقد سألوه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة فدل على أن المراد بالسيئة

---

(١) في سوره غافر

التى سألوا وقايتها الاعمال السيئة ويكون النبي سأله الملائكة نظير مااستعاذ منه النبي ﷺ . ولايرد علي هذا قوله (يومئذ) فان المطلوب وقاية شرور سيئات الاعمال ذلك اليوم وهي سيئات فى نفسها. وقيل وقاية السيئات نوعان: أحدهما وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه، والتاني وقاية جزائها بالمغفرة فلا يعاقب عليها فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية . وتأمل ماتضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالايمان والعمل الصالح والاحسان الى المؤمنين بالاستغفار لهم . وقدموا بين يدى استغفارهم توسلهم الي الله سبحانه بسعة علمه وسعة رحمته فسعة، علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم ومازين لهم من الدنيا وزينتها وعلمه بهم إذ أنشأهم من الارض وإذهم أجنة في بطون أمهاتهم وعلمه السابق بانهم لابد أن يعصوه وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذى لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لايهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته فانه واسع الرحمة لايخرج عن دائرة رحمته إلا الاشقياء . ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شيء . ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل اليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر، وترك مايكره فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل الذى يحبها . ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التى وعدهم بها ، وهو سبحانه

وإن كان لا يخلف الميعاد فانه وعدهم بها بأسباب، من جملتها دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم إياها يدخلونها برحمته التى منها أن وفقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها . ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة (إنك أنت العزيز الحكيم) أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك ، فان العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم . وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما يشاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب . فهاتان الصفتان مصدر الخلق والامر والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع الى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية . وهى إما فى القلب وإما فى البدن وإما فيهما . وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم عود الاجسام فى الدار الآخرة . فالذنب لا يخلو من عقوبة ألبتة . ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة لانه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذى لا يشعر بالالم فاذا استيقظ وصحى أحس بالألم. فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الاحراق على النار والكسر على الانكسار والاغتراف على الماء وفساد البدن على السموم والأمراض على الأسباب الجالبة لها . وقد تقارن المضرة للذنب، وقد تتأخر عنه إما يسيرا وإما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه ، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه ولا يدرى أنه يعمل وعمله على التدريج

شيئاً فشيئاً كما تعمل السموم والاشياء الضارة حذو القذة بالقذة (١) فان تدارك العبد نفسه بالادوية والاستفراغ والحمية وإلا فهو صائر الى الهلاك هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة ؟ والله المستعان

فصل

فاستحضر بعض العقوبات التى رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب وجوز وصولها اليك واجعل ذلك داعياً للنفس الى هجرانها. وأنا أسوق اليك منها طرفا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه (فمنها) الختم على القلوب والاسماع والغشاوة على الابصار والاقفال على القلوب وجعل الأكنة(٢) عليها والرين عليها والطبع عليها ، وتقليب الافئدة والأبصار والحيلولة بين المرء وقلبه ، وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء العبد نفسه ، وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد (٣) في السماء ، وصرف القلوب عن الحق ، وزيادتها مرضا على مرضها وإركاسها وإنكاسها ، بحيث تبقى منكوسة كما ذكر الامام أحمد عن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه أنه قال « القلوب أربعة: فقلب أجرد فيه سراج يزهر(٣)، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف(٤)، فذلك قلب الكافر . وقلب منكوس ،

(١) القذة واحدة ريش السهم اي كما تقدر كل واحدة منها على قدر صاحبتها. يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان (٢) الاكنة الاغطية (٣) يصعد بتشديد الصاد والعين (٣) أي ليس فيه غل ولا غش فهو على أصل الفطرة فنور الايمان فيه يزهر (٤) أي مغشى مغطى

فذلك قلب المنافق . وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما » (ومنها) التثبيط عن الطاعة والابتعاد عنها (ومنها) جعل القلب أصم لايسمع الحق ، أبكم لاينطق به ، أعمى لايراه فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لاينفعه غيره كالنسبة بين أذن الاصم والاصوات ، وعين الاعمى والالوان ، ولسان الأخرس والكلام . وبهذا يعلم أن الصمم والبكم والعمى للقلب بالذات والحقيقة وللجوارح بالغرض والتبعية (فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) (١) وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر ، كيف وقد قال تعالى (٢) (ليس علي الاعمى حرج) وقال (٣) (عبس وتولى أن جاءه الاعمى) وإنما المراد أن العمى التام علي الحقيقة عمى القلب حتى ان عمى البصر بالنسبة اليه كلا عمى . حتى يصح نفيه بالنسبة الي كماله وقوته كما قال النبي ﷺ « ليس الشديد بالصرعة (٤) ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب » وقوله ﷺ « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان . ولكن المسكين الذي لايسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه » ونظائره كثيرة والمقصود أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم (ومنها) الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به الى أسفل سافلين وصاحبه لايشعر . وعلامة الخسف به أنه لايزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه اليه لايزال جوالا

---

(١) في سورة الحج (٢) في سورة النور وفي سورة انا فتحنا لك (٣) في سورة عبس (٤) بضم الصاد وفتح الراء المبالغ في الصراع الذي لايغلب

حول البر والخير ومعالى الامور والاعمال والاقوال والاخلاق . قال بعض السلف « إن هذه القلوب جوالة ، فنها ما يجول حول العرش ومنها ما يجول حول الحش» (ومنها) مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه فى أخلاقه وأعماله وطبيعته . فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به . ومنها ما يمسخ على قلب كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى (١) (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية. ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير . ومنهم من يتطوس فى ثيابه كما يتطوس الطاووس فى ريشه . ومنهم من يكون بليداً كالحمار . ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك . ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام . ومنهم الحقود كالجمل . ومنهم الذى هو خير كله كالغنم . ومنهم أشباه الثعالب تروغ كروغانها. وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالانعام تارة . وتقوى هذه المشابهة باطناً حتى تظهر فى الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً يراه المتفرسون وتظهر فى الاعمال ظهوراً يراه كل أحد . ولا يزال يقوى حتى تعلو الصورة فتنقلب له الصورة باذن الله وهو المسخ التام، فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم ، ويفعل بقوم من هذه الامة يمسخهم قردة

(١) في سورة الانعام

وخنازير ،فسبحان الله ! كم من قلب منكوس وصاحبه لايشعر ؟ وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه ؟ ومغرور بستر الله عليه ؟ ومستدرج بنعم الله عليه ؟ وكل هـذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها كرامة (ومنها) مكر الله بالماكر ومخادعته للمخادع واستهزاؤه بالمستهزئ وإزاغته لقلب الزائغ عن الحق (ومنها) نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً والحق باطلاً والمعروف منكراً والمنكر معروفا، ويفسد ويرى أنه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو اليها ، ويشتري الضلالة بالهدى وهو يرى أنه على الهدى ، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه.وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب (ومنها) حجاب القلب عن الرب فى الدنيا والحجاب الاكبر يوم القيامة كما قال الله تعالى(١)(كلا، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا اليها فيروا ما يصلحها ويزكيها وما يفسدها ويشقيها وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب اليه فتفوز بقربه وكرامته وتقر به عيناً وتطيب به نفساً ، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم (ومنها) المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة قال تعالى(٢) (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى) وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ،ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه

(١) في سورة المطففين (٢) في سورة طه

وإن كانت نكرة في سياق الاثبات فان عمومها من حيث المعنى فانه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الاعراض عن ذكره فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه وان تنعم فى الدنيا باصناف النعم. ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه. وإنما تتوارى عند سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم الى ذلك سكر الخمر. فسكر هذه الامور أعظم من سكر الخمر فانه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر فى عسكر الأموات، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ فى دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقر العين ولا يهدى القلب ولا تطمئن النفس ألا بالهها ومعبودها الذي هو حق وكل معبود سواه باطل. فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه علي الدنيا حسرات. والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً كما قال تعالى(١) (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فضمن لأهل الايمان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة. فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء فى الدارين. ونظير هذا قوله تعالى (١) (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) ونظيرها قوله تعالى (٢) (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه

(١) فى سورة النحل (٢) في سورة هود

اليه يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا علي الحياة الطيبة فى الدارين. فان طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة هو النعيم علي الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن اليه. فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها ان كان أهل الجنة فى مثل هذا انهم لفي عيش طيب. وقال الآخر: ان فى الدنيا جنة هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. وقد أشار النبي ﷺ الى هذه الجنة بقوله «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال «حلق الذكر» وقال «ما بين بيتى ومنبري روضة من رياض الجنة» ولا تظن أن قوله تعالى (١) (إن الابرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) يختص بيوم المعاد فقط بل هؤلاء فى نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة. وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل علي موافقته؟ وهل عيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله تعالى علي خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال (٢) (وإن من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم) وقال حاكياً عنه أنه قال (٣) (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله

(١) في سورة اذا السماء انفطرت (٢) في سورة الصافات (٣) في سورة الشعراء

بقلب سليم) والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا وفى جنة فى البرزخ وفى جنة يوم المعاد . ولا يتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد. وبدعة تخالف السنة. وشهوة تخالف الأمر . وغفلة تناقض الذكر . وهوى يناقض التجريد. والاخلاص يعم .وهذه الخمسة حجب عن الله . وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراداً لأشخاص لاتحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته الى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم. فليس العبد أحوج الى شيء منه الى هذه الدعوة ، وليس شيء أنفع منها . فان الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادة وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت . فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لايعلمها ، وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه . وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه ، وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لاتريده كسلا وتهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك ، وما تريده قد يفعله وقد لايفعله ، وما يفعله قد يقوم بشروط الاخلاص فيه وقد لايقوم .وما يقوم فيه بشروط الاخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لايقوم ، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه .

وهذا كله واقع سار فى الخلق ، فمستقل ومستكثر . وليس فى طباع العبد الهداية الى ذلك كله ، بل متي وكل الى طباعه حيل بينه وبين ذلك ، وهذا هو الاركاس الذى أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم الى طباعهم وما جبلت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم فى قضائه وقدره وأمره ونهيه فيهدى من يشاء الى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعل الهداية حيث تصلح ، ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل وذلك موجب الصراط المستقيم الذى هو عليه فهو على صراط مستقيم ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيما دعاهم جميعاً اليه حجة منه وعدلا ، وهدى من يشاء منهم الى سلوكه نعمة منه وفضلا ، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذى هو عليه ، فاذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيما يوصلهم الى جنته ثم صرف عنه من صرف عنه فى الدنيا وأقام من أقام في الدنيا وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذى كان فى قلوبهم فى الدنيا نوراً ظاهراً لهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه كما حفظ عليهم الايمان حتى لقوه وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا اليه كما أطفأه من قلوبهم فى الدنيا وأقام أعمال العصاة بجنبتى الصراط كلاليب وحسكا تخطفهم كما تخطفهم فى الدنيا عن الاستقامة عليه ، وجعل سيرهم عليه على قدر سيرهم وسرعتهم اليه فى الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بازاء شربهم من شرعه فى الدنيا .

وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا فانظر الى الآخرة كأنها رأى عين . وتأمل حكمة الله سبحانه فى الدارين تعلم حينئذ علماً يقيناً لاشك فيه ان الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وانموذجها وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم فى هذه الدار فى الايمان والعمل الصالح وضدها. وبالله التوفيق . فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط فى الدنيا والآخرة

فصل

ولما كانت الذنوب متفاوتة فى درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها فى الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها . ونحن نذكر فيها بعون الله فصلا وجيزا جامعا فنقول :

أصلها نوعان . ترك مأمور ، وفعل محظور وهما: الذنبان اللذان ابتلي الله سبحانه أبوي الجن والانس بهما ، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح وباطن فى القلوب وباعتبار متعلقه الى حق الله وحق خلقه وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه ، لكن سمى حقاً للخلق لانه يجب بمطالبتهم ويسقط باسقاطهم ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام : ملكية ، وشيطانية ، وسبعية ، وبهيمية لاتخرج عن ذلك. فالذنوب الملكية ان يتعاطاها ما لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو والظلم واستعباد الخلق ونحو ذلك. ويدخل في هذا، الشرك بالرب تعالى وهو نوعان : شرك به فى أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى

معه . وشرك به في معاملته ، وهذا الثاني قد لايوجب دخول النار وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره . وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول على الله بلا علم فى خلقه وأمره . فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيته وملكه وجعل له نداً . وهذا أعظم الذنوب عند الله ولا ينفع معه عمل

فصل

وأما الشيطانية فالتشبه بالشيطان في الحسد والبغي والغش والغل والخداع والمكر والامر بمعاصى الله وتحسينها والنهى عن طاعة الله وتهجينها والابتداع فى دينه والدعوة الى البدع والضلال، وهذا النوع يلى النوع الاول في المفسدة وان كانت مفسدته دونه

فصل

وأما السبعية فذنوب العدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين ويتولد منها أنواع أذى النوع الانساني والجرأة على الظلم والعدوان

وأما الذنوب البهيميه فمثل الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنها يتولد الزنى والسرقة وأكل أموال اليتامى والبخل والشح والجبن والهلع والجزع وغير ذلك . وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ، ومنه يدخلون إلى سائر

الأقسام فهو يجرهم إليها بزمام فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ثم إلى الشيطانية ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية. ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته

فصل

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر قال الله تعالى (١) (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقال تعالى (٢) (والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم (٣)) وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال «الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات: احداها أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية. الثانية أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي الى تكفير شيء من الكبائر. الثالثة أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر فتأمل هذا فانه يزيل عنك إشكالات كثيرة. وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا بلى يا رسول الله فقال «الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور» وروى في الصحيح عنه ﷺ «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يارسول الله؟ قال

(١) في سورة النساء (٢) في سورة النجم (٣) اللمم الذنوب الصغيرة

« الاشراك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف. وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وفي الصحيح عنه ﷺ أنه سئل :أي الذنب أكبر عند الله ؟ قال « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قيل : ثم أي ؟ قال « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قيل : ثم أي ؟ قال « أن تزني بحليلة جارك » فانزل الله تعالى تصديقها (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) الآية واختلف الناس فى الكبائر ، هل لها عدد يحصرها ؟ على قولين . ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها فقال عبد لله بن مسعود : هي أربعة . وقال عبد الله بن عمر : هى سبعة . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص:هي تسعة وقال غيره : هى إحدى عشرة . وقال آخر :هى سبعون . وقال أبو طالب المكي : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب : وهى الشرك بالله . والاصرار على المعصية . والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله . وأربعة في اللسان:وهى شهادة الزور . وقذف المحصنات واليمين الغموس . والسحر . وثلاثة فى البطن :شرب الخمر . وأكل مال اليتيم . وأكل الربا . واثنتان فى الفرج : وهما الزنا .واللواطة. واثنتان فى اليدين وهما : القتل . والسرقة . وواحدة في الرجلين : وهى الفرار من الزحف . وواحدة تتعلق بجميع الجسد : وهى عقوق الوالدين . والذين لم يحصروها بعدد.منهم من قال كل ما نهى الله عنه فى القرآن فهو كبيرة وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة . وقالت طائفة : ما اقترن

بالنهى عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة . وما لم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرته . وقيل . كل ما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيـد فى الآخرة فهو كبيرة ، وما لم يرتب عليـه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة . وقيل : كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الـكبائر ، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة . وقيل : كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة ،وقيل: كل ما ذكر من أول سورة النساء الى قوله (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نـكفر عنكم سيئاتكم) والذين لم يقسموها الى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها بالنسبة الى الجراءة على الله سبحانه معصية ومخالفة أمره كبائر ، فانظر الى من عصي أمره وانتهك محارمه توجب ان تـكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية فى هذه المفسدة ، قالوا : ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها فلا يكون بعضها بالنسبة اليه أكبر من بعض ، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفتـه . ولا فرق فى ذلك بين ذنب وذنب ، قالوا : ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعـة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى ، ولهـذا لو شرب رجل خمراً أو وطيء فرجاً حراماً وهو لا يعتقد تحريمه لـكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام . ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لـكان أتى باحدى المفسدتين . وهو الذى يستحق العقوبة دون الأول . فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب . قالوا : ويدل على هـذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بامر المطاع ونهيه وانتهاك حرمته . وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب . قالوا :

فلا ينظر العبد الى كبر الذنب وصغره في نفسه . ولـكن ينظر الى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمته بالمعصية. وهذا لا يفترق فيه الحال بين معصية ومعصية فان ملكاً عظيماً مطاعاً لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب فى مهم له الى بلد بعيد وأمر آخر ان يذهب فى شغل له الى جانب الدار فعصياه وخالفا أمره لـكانا في مقته والسقوط من عينه سواء قالوا : ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد . والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا . ولو كان مع رجل مائتا درهم فمنع زكاتها ومع آخر مائتا الف درهم فمنع زكاتها لايستويان فى منع ما وجب على كل واحد منهما ولا يبعد استواؤهما في العقوبة اذا كان كل منهما مصر على منع الزكاة قليلاً ماله كان أو كثيراً

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال : إن الله عز وجل أرسل رسله وأنزل كتبه وخلق السماوات والارض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله له والطاعة كلها له والدعوة له كما قال تعالى (١) (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وقال تعالى (٢) (وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما إلا بالحق) وقال تعالي (٣)(الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير

(١) فى سورة الذاريات (٢) في سورة الحجر (٣) في سورة الطلاق

وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) وقال تعالي (١) (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد(٢) ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الارض وأن الله بكل شيء عليم) فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والامر أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لايشرك به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به السماوات والارض كما قال تعالي (٣): (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل . ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل وقوامه وإن الشرك ظلم كما قال تعالي (٤) (إن الشرك لظلم عظيم) فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل . فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر . وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الاصل حق التأمل واعتبر به تفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصى . فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الاطلاق . وحرم الله الجنة على كل مشرك . وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد . وأن يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته . وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً أو يقبل فيه شفاعة

---

(١) فى سورة المائدة (٢) جمع قليدة ما يقلد به الهدى الذي يسوقه الحاج الى مكة (٣) في سورة الحديد (٤) فى سورة لقمان

أو يستجيب له فى الآخرة دعوة أو يقبل له فيها رجاء فان المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداً وذلك غاية الجهل به كما أنه غاية الظلم منه وان كان المشرك لم يظلم ربه وانما ظلم نفسه . ووقعت مسألة وهى أن المشرك انما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه الا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك . فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه وقال إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني اليه وتدخلني عليه ، فهو المقصود، وهذه وسائل وشفعاء ، فلم كان هذا القدر موجبا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ، ومخلداً في النار ، وموجبا سفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم ؟ وترتب على هذا سؤال آخر، وهو أنه: هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب اليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع ، أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول ، يمتنع أن تأتي به شريعة ؟ بل جاءت بتقرير مافى الفطر والعقول من قبحه الذى هو أقبح من كل قبيح؟ وما السبب في كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب؟ كما قال تعالى(١) (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فان به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار . فنقول وبالله التوفيق والتأييد . ومنه نستمد المعونة والتسديد ، فانه من

(١) فى سورة النساء

يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له ، ولا مانع لما أعطي ولا معطي لما منع :

الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرك فى عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لاشريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله . والشرك الاول نوعان : أحدهما شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون إذ قال (١) (وما رب العالمين؟) وقال تعالي مخبراً عنه أنه قال(٢) (وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أطلع الي آله موسى وإني لأظنه كاذباً) فالشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك لكن لايستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته ولكن عطل حق التوحيد . وأصل الشرك وقاعدته التى يرجع اليها هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد . ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ماثم خالق ومخلوق ، ويقولون ما هنا شيئان بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه . ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وأنه لم يكن معدوماً أصلا بل لم يزل ولا يزال . والحوادث بأسرها مستندة عندهم الي أسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسمونها بالعقول والنفوس . ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه

(١) في سورة الشعراء (٢) فى سورة غافر

وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسما ولاصفة بل جعلوا المخلوق أكمل منه ، إذكمال الذات بأسمائها وصفاتها

فصل

النوع الثانى شرك من جعل معه إلها آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته وصفاته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلها وأمه إلها. ومن هذا شرك المجوس القائلين باسناد حوادث الخير الى النور وحوادث الشر الى الظلمة . ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته ولهذا كانوا من أشباه المجوس . ومن هذا شرك الذي حاج ابراهيم فى ربه (١) (إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت) فهذا جعل نفسه نداً لله يحيي و يميت بزعمه كما يحيي الله ويميت . فألزمه ابراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته أن طرد قولك أن تقدر على الاتيان بالشمس من غير الجهة التى يأتي الله بها منها ، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزاماً على طرد الدليل ان كان حقاً . ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الاله على الحقيقة ، ومنهم من يزعم أنه

(١) فى سورة البقرة

أكبر الآلهة ؛ ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل اليه والانقطاع اليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه الى المعبود الذي هو فوقه والفوقاني يقربه الى من هو فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه ، فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل

فصل

وأما الشرك فى العبادة فهو أسهل من هذا الشرك وأخف شراً ، فانه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلا الله . وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ولكن لايخلص لله فى معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحفظ نفسه تارة ، وطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة . فلله من عمله وسعيه نصيب . ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس . وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان فى صحيحه « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » قيل : وكيف ننجو منه يارسول الله ؟ قال « قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم » فالرياء كله شرك قال تعالى (١) (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)

(١) فى سورة الكهف

أي كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالالهية يجب أن يفرد بالعبودية . فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة . وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه « اللهم اجعل عملي كله صالحا . واجعله لوجهك خالصاً . ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل ، وقد يعاقب عليه اذا كان العمل واجبا فانه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الامر ، فان الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى (١) (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء (٢)) فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به ، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه ، ويقول الله تعالى(٣)«أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء » وهذا الشرك ينقسم الى أكبر وأصغر ومغفور وغير مغفور . والنوع الاول ينقسم الى كبير وأكبر ، وليس شيء منه مغفور ، فمنه الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقا كما يحب الله فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه(٤) (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا — الآية) وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم (٥) (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق والاماتة والاحياء والملك والقدرة ، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع

(١) في سورة لم يكن الذين كفروا (٢) جمع حنيف وهو المستقيم غير المائل الى التفريط ولا الى الافراط (٣) في الحديث القدسي (٤) في سورة البقرة (٥) في سورة الشعراء

لهم والتذلل وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى من خلق من التراب برب الارباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ؟ وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته الا العدم. بالغنى بالذات القادر بالذات الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ؟ فأي ظلم أقبح من هذا ؟ وأي حكم أشد جورا منه ؟ حيث الظلم عدل من لاعدل له بخلقه . كما قال تعالى(١) (الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) فعدل المشرك من خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور بمن لايملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض . فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وافبحه

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه فى الأقوال والافعال والارادات والنيات، فالشرك فى الافعال كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الاسود الذي هو يمين الله فى الأرض، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها. وقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الانبياء والصالحين مساجد يصلي لله فيها، فكيف بمن اتخذ القبور أوثانا يعبدها من دون الله ؟ وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه

(١) أول سورة الانعام

قال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وفي الصحيح عنه أنه قال «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد» وفي الصحيح أيضاً عنه «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك» وفى مسند الامام أحمد رضي الله عنه وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وسلم «لعن الله زوارات القبور» والمتخذين عليها المساجد والسرج» وقال «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وقال «إن من كان قبلكم كان اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة اولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر، فكيف حال من سجد للقبر نفسه؟ وقد قال النبي ﷺ «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد» وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا يكون ذريعة الى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين وسد الذريعة بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين الذين يسجد المشركون فيهما للشمس. وأما السجود لغير الله فقال «لا ينبغي لأحد ان يسجد لأحد إلا لله» وانما تجيء لا ينبغى فى كلام الله ورسوله ﷺ للذى هو فى غاية الامتناع شرعاً كقوله تعالى (١) (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) وقوله (٢) (وما علمناه الشعر وما

(١) في سورة مريم (٢) في سورة يس

ينبغي له) وقوله (١) (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم) وقوله عن الملائكة (٢) (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء)

فصل

ومن الشرك به سبحانه الشرك به فى اللفظ كالحلف بغيره كما رواه أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال «من حلف بغير الله فقد أشرك» وصححه الحاكم وابن حبان ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ما شاء الله وشئت . كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل : ما شاء الله وشئت فقال «أجعلتني لله ندا ؟ قل ما شاء الله وحده» وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله (٣) (لمن شاء منكم أن يستقيم) فكيف من يقول أنا متوكل على الله وعليك ، وأنا فى حسب الله وحسبك ، ومالي إلا الله وأنت ، وهذا من الله ومنك ، وهذا من بركات الله وبركاتك ، والله لي فى السماء وأنت لي فى الارض ، ويقول والله وحياة فلان ، أو يقول نذراً لله ولفلان ، وأنا تائب لله ولفلان ، أو أرجو الله وفلانا ، ونحو ذلك ؟ فوازن بين هذه الالفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه اذا كان قد جعله ندا لله بها فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ فى شيء من الاشياء . بل لعله أن يكون من أعدائه ندا لرب العالمين فالسجود والعبادة والتوكل والانابة والتقوى والخشية والتحسب

(١) فى سورة الشعراء (٢) فى سورة الفرقان (٣) في سورة اذا الشمس كورت

والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً والطواف بالبيت والدعاء ، كل ذلك محض حق الله لا يصلح ولا ينبغى لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وفى مسند الامام أحمد أن رجلاً أتي به الى النبي ﷺ قد أذنب ذنباً فلما وقف بين يديه قال : اللهم إني أتوب اليك ولا أتوب الى محمد . فقال «قد عرف الحق لأهله»

فصل

وأما الشرك فى الارادات والنيات فذلك البحر الذى لاساحل له وقل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب اليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك فى نيته وإرادته . والاخلاص أن يخلص لله فى أفعاله وأقواله وإرادته ونيته ، وهذه هي الحنيفية ملة ابراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الاسلام كما قال تعالى (١) (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وهي ملة ابراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء

(١) في سورة آل عمران

فصل

واذا عرفت هـذه المقدمة انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول . ومن الله وحده نستمد الصواب :

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هـذا هو التشبيه فى الحقيقة ، لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ ، فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأركسه بلبسه الأمر وجعل التوحيد تشبيهاً والتشبيه تعظيما وطاعة ، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الالهية فان من خصائص الالهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً أفضل من غيره تشبيهاً بمن له الامر كله فأزمة الامور كلها بيديه ومرجعها اليه . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع . بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها اليه أحد . فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغنى بالذات . ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية

الحب كل ذلك يجب عقلا وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده ويمنع عقلا وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لاشبيه له ولا ند له وذلك أقبح التشبيه وأبطله ولشدةقبحه وتضمنه غايةالظلم أخبر سبحانه عباده أنه لايغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الالهية العبودية التى قامت على ساقين لاقوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الاصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به فى خالص حقه ، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل . ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم (١) عنها ، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى. فأرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم فازدادوا بذلك نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء . إذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود ، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به . ومنها التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به . ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه

وأما في جانب التشبه به فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس الى اطرائه فى المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعلق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء

(١) اجتالتهم الشياطين اي استخفتهم فجالوا معهم في الضلال

واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته . وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان ، ويذله غاية الذل ، ويجعله تحت أقدام خلقه . وفى الصحيح عنه ﷺ قال « يقول الله عز وجل العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته » وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة ، فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والالهية ؟ كما قال النبي ﷺ « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون . يقال لهم أحيوا ماخلقتم » وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى . فليخلقوا ذرة . فليخلقوا شعيرة » فنبه بالذرة والشعيرة على ماهو أعظم منهما وأكبر . والمقصود ان هذا حال من تشبه به فى صنعة صورة ، فكيف حال من تشبه به فى خواص ربوبيته وإلهيته ؟ وكذلك من تشبه به فى الاسم الذي لاينبغي إلا له وحده كملك الاملاك وحاكم الحكام ونحوه . وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال « ان أخنع الاسماء (١) عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك الا الله » وفى لفظ « أغيظ رجل علي الله رجل يسمى بملك الاملاك » فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذى لاينبغي إلا له فهو سبحانه ملك الملوك وحده وهو حاكم الحكام وحده فهو الذي يحكم على الحكام كلهم ويقضى عليهم كلهم لاغيره

(١) أي أذلها وأوضعها

فصل

إذا تبين هذا فهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به فان المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس فظن به ماينافض أسماءه وصفاته . ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بمالم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى (١) (عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته (٢) (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين) وقال تعالى عن خليله ابراهيم انه قال لقومه (٣) (ماذا تعبدون ؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟) أى فما ظنكم ان يجازيكم به اذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وما ظنكم به حين عبدتم معه غيره ؟ وما ظنكم باسمائه وصفاته وربوبيته من النقص ؟ حتى أحوجكم ذلك الى عبودية غيره ؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم وهو على كل شيء قدير وأنه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير اليه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره . والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافى لهم وحده فلا يحتاج الى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج فى رحمته الى من يستعطفه ، وهذ بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فانهم يحتاجون الى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجها والى من يعينهم على قضاء حوائجهم والى

(١) سورة انا فتحنا لك (٢) فى سورة حم السجدة (٣) في سورة الصافات

من يسترحمهم ولي من يستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا الى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم. فأما القادر على كل شيء، الغني عن كل شيء. الرحمن الرحيم. الذي وسعت رحمته كل شيء، فادخال الوسائط بينه وبين خلقه نقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء. وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر. وقبحه مستقر في الفطر السليمة فوق كل قبيح. يوضح هذا ان العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع. وهذا خالص حقه. فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى (١) (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم، هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم) الآية. أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكاً له في رزقه فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد وهو الالهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق عظمتي، ولا أفردني بما أنا متفرد به وحدي دون خلقي. فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى (٢) (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ـ الي قوله ـ لقوي عزيز) فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على

(١) في سورة الروم (٢) في سورة الحج

خلق أضعف حيوان وأصغره وإن يسلبه الذباب شيئاً مما عليه لم يقدر على انقاذه منه قال تعالى (١) (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك ألبتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه. فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل. وكذلك ما قدره حق قدره من قال انه لم يرسل الى خلقه رسولا ولا أنزل كتابا. بل نسبه الى مالا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى وخلقهم باطلا عبثا. وكذا ما قدره حق قدره من نفي حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد. ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم فأخرجها عن قدرته ومشيئته. وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون ويزيدون مشيئة الرب. فيكون في ملكه مالا يشاء ويشاء مالا يكون. فتعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً. وكذلك ما قدره حق قدره من قال إنه يعاقب عبده على مالا يفعله ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه ألبتة بل هو نفس فعل الرب جل جلاله فيعاقب عبده على فعله فهو سبحانه الذي جبر العبد عليه، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق، وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه اليه ثم عاقبه

---

(١) في سورة الزمر

عليه لكان قبيحاً فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله ألبتة ثم يعاقبه عليه ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقول هؤلاء شر قول وهم أشباه المجوس والطائفتان ماقدروا الله حق قدره . وكذلك ماقدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش (١) ولا مكان يرغب عن ذكره بل جعله في كل مكان ، وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وتعرج الملائكة والروح اليه وتنزل من عنده ، ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه . فصانه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله فى كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه . وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ولا من نفى حقيقة فعله ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستواءه على عرشه وتكليمه موسى من جانب الطور ورؤيته يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه الى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره ، وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً وجعله سبحانه يحل في جميع مخلوقاته أو جعله عين هذا الوجود . وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع اعداء رسول

(١) الحش بيت الخلاء الذى تقضي فيه الحاجة

الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعز ووضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً. وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين: إنه أرسل ملكا ظالما فادعى النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت ويقول قال الله كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا وينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ويقول: الله أباح لي ذلك، والرب تعالى يظهره ويؤيده ويعليه ويقويه ويجيب دعواته ويمكنه ممن يخالفه ويقيم الأدلة على صدقه ولا يعاديه أحد إلا ظفر به فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، وتحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء الى يوم القيامة. ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته. تعالى الله عن قول الجاحدين علواً كبيراً. فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر:

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما *** بأسحم داج عوض لا نتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الأشقياء وأن يثيب أعداءه ومن لم يطعه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه جائز وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمنعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله

وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الانكار وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام ، وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتى ولا يبعث من في القبور ولا يجمع الخلق ليوم يجازي المحسن فيه باحسانه والمسيء باساءته ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته، ويبين لخلقه الذي يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه ، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه ، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله. فلله الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله وسواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده، يستخف بنظر الله اليه وإطلاعه عليه وهو في قبضته وناصيته بيده . ويعظم نظر المخلوق اليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه . ويستخفي من الناس ولا يستخفي من الله . ويخشى الناس ولا يخشى الله . ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة . وقد أفرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه . حتى إذا قام في حق ربه — إن ساعد القدر — قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوقاً مثله . فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ؟ وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الاجلال والتعظيم

والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل له من أقرب الخلق اليه شريكا فى ذلك لكان ذلك جراءة وتوثباً على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره فيما لاينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه ، فكيف وإنما أشرك معه أبغض الخلق إليه وأهونهم عليه وأمقتهم عنده وهو عدوه على الحقيقة ؟ فانه ماعبد من دون الله الا الشيطان كما قال تعالى(١) (ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى(٢) (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) فالشيطان يدعو المشركين الى عبادته ويوهمهم أنه ملك ، كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهي التى تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج ، ولهذا اذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها . وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وانما عبد الشيطان . فانه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها . وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه . فلاعبد الله ولا رسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالي (ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) فما عبد أحد من بنى آدم

(١) فى سورة يس (٢) في سورة سبأ

غير الله كائنا من كان الا وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان ولهذا قال تعالى(١) (ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس) أي من إغوائهم وإضلالهم. (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم) فهذه إشارة لطيفة الى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله وأنه لايغفره بغير التوبة منه وأنه يوجب الخلود في النار وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه. بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهاً غيره، كما يستحيل عليه ماينافي أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والالهية والعظمة والاجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضى به. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

فصل

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق (أمر لأجله بالأمر الذى)(٢) كان من أكبر الكبائر عند الله، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم. فان الله سبحانه خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده. والشرك والكبر ينافيان ذلك. ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر. ولايدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر

(١) في سورة الأنعام (٢) ما بين المربعين في الاصل والكلام يتم بدونه

فصل

ويلي ذلك في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله. ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ. فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر، وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب. فان صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله. فان المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله، كما أن من أقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك لكن جعل معه شريكا في بعض الأمور تقرباً اليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكا. هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول، فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة. إعظاما له وإجلالا؛ فداء التعطيل هو الداء العضال الذي لادواء له. ولهذا حكى الله عن امام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات(١) (ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات فأطلع الى إله موسى. وإني لأظنه كاذبا) واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية. وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب وهو كتاب (اجتماع الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية) في إثبات العلو

---

(١) في سورة غافر

والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان

ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيبا بما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ عنادا وجهلا كانت من أكبر الكبائر إن قصرت عن الكفر ، وكانت أحب إلى إبليس من كبار الذنوب كما قال بعض السلف « البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها » وقال إبليس لعنه الله « أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكوني بلا إله الا الله والاستغفار . فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الاهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ومعلوم أن المذنب انما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على الناس . وفتنة المبتدع في أصل الدين وفتنة المذنب فى الشهوة . والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه والمذنب ليس كذلك . والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك . والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ والعاصي ليس كذلك . والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيان للعدل الذي قامت به السماوات والارض أرسل الله سبحانه رسله صلى الله عليهم وسلم وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كان — أي الظلم — من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه وكان قتل الانسان ولده

الطفل الصغير الذي لا ذنب له، وقد جبل الله سبحانه القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه ، وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشده . وكذلك قتله أبويه الذين كانا سبب وجوده . وكذلك قتله ذات رحمه ، وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله السعي في إبقائه ونصيحته ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبي ، ويليه من قتل إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصحهم في دينهم . وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود في النار وغضب الجبار ولعنته وإعداد العذاب العظيم له ، هذا موجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع . ولا خلاف أن الاسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء ، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه ؟ فيه قولان للسلف والخلف ، وهما روايتان عن أحمد . والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه حق لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بد أن يستوفى له في دار العدل ؛ قالوا : فما استوفاه الوارث فانما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه ، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ؟ وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؛ وهذا أصح القولين في المسألة أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث وهو وجه لأصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث فان التوبة تهدم ما قبلها والذنب الذي قد جناه قد أقيم عليه حده ، قالوا : وإذا

كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر وهما أعظم اثما من القتل فكيف تقصر عن محو أثر القتل؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءه وجعلهم من خيار عباده ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم إلى التوبة وقال تعالى (١) (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وهذا في حق التائب، وهي تتناول الكفر فما دونه، قالوا: وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه. قالوا: وتوبة هذا الذنب تسليم نفسه. ولا يمكن نسليمها إلى المقتول. فأقام الشارع وليه مقامه وجعل تسليم النفس اليه كتسليمها إلى المقتول، بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه فانه يقوم مقام تسليمه المورث

والتحقيق في المسألة أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله، وحق للمظلوم المقتول. وحق الولي. فاذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً الى الولي ندما على ما فعل وخوفا من الله وتوبة نصوحا يسقط حق الله بالتوبة وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو. وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه. فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا. وأما مسألة المال فقد اختلف فيها. فقالت طائفة: إذا أدى ما عليه من المال الى الوارث فقد بريء من عهدته في الآخرة كما برئ منها في الدنيا. وقالت طائفة بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة وهو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه

(١) في سورة الزمر

له فانه منعه من انتفاعه به في طول حياته ومات ولم ينتفع به فهذا ظلم لم يستدركه وانما ينتفع به غيره بادراكه، وبنوا هذا على أنه لو انتقل المال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة للجميع لأنه حق كان يجب عليه دفعه الى كل واحد منهم لكونه هو الوارث. وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد. وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين فقال: إن تمكن المورث من أخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذه حتى مات صارت المطالبة به للوارث في الآخرة كما هي له كذلك في الدنيا وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه بل حيل بينه وبينه ظلماً وعدواناً فالطلب له في الآخرة وهذا التفصيل من أحسن ما يقال ، فإن المال إذا استهلكه الظالم على المورث وتعذر أخذه منه صار بمنزلة عبده الذي قتله قاتل ، وداره التي أحرقها غيره وطعامه وشرابه الذي أكله وشربه غيره. ومثل هذا إنما تلف على المورث لا على الوارث فحق المطالبة لمن تلف على ملكه فينبغي أن يقال فاذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت فهي ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها اليه كل وقت، وإذا لم تدفع اليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى كما يستحق المطالبة بها في الدنيا . وهذا سؤال قوي لا مخلص منه إلا بأن يقال : المطالبة لهما جميعاً كما لو غصب مالا مشتركا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقه منه ، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون

كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض . والله أعلم

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالي (١) (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أوفساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيي الناس جميعاً) وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس وقالوا : معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم إثما عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوا من ظنهم أن التشبيه في مقدار الاثم والعقوبة والقول لم يدل على هذا ، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى (٢) (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال تعالى (٣) (كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وذلك لا يوجب أن لبثهم فى الدنيا إنما كان هذا المقدار . وقد قال النبي ﷺ « من صلي العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل . ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله » أي مع العشاء كما جاء فى لفظ آخر وأصرح من هذا قوله « من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر » وقوله ﷺ « من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الاشياء لم يبلغ ثواب المشبه به فيكون قدرها سواء ولو كان قدر الثواب سواء

(١) في سورة المائدة (٢) فى سورة النازعات (٣) فى سورة الأحقاف

لم يكن لمصلى الفجر والعشاء فى جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب . وما أوتي أحد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

فان قيل : ففي أي شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وبين قاتل الناس جميعا ؟ قيل فى وجوه متعددة : أحدها أن كل واحد منهما عاص لله ورسوله ﷺ مخالف لأمره متعرض لعقوبته ، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته واستحقاق الخلود فى نار جهنم ، وأعد لهم عذابا عظيما ، وإن تفاوتت درجات العذاب ، فليس إثم من قتل نبياً أو إماما عادلا أو عالماً يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لا مزية له من آحاد الناس. الثاني أنهما سواء فى استحقاق إزهاق النفس . الثالث أنهما سواء فى الجراءة على سفك الدم الحرام فان من قتل نفساً بغير استحقاق بل لمجرد الفساد فى الأرض ولأخذ ماله فانه يجترئ علي قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله ، فهو معاد للنوع الانساني . ومنها أنه يسمي قاتلا أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحدا كما يسمي كذلك بقتله الناس جميعا ومنها أن الله سبحانه جعل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى (١) له سائر الجسد بالحمي والسهر فاذا أتلف القاتل عضوا من ذلك الجسد فكأنما أتلف سائر الجسد وآلم جميع أعضائه . فمن آذى مؤمناواحدا فقد آذي جميع المؤمنين ، وفي أذى جميع المؤمنين أذى جميع الناس كلهم، فان الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم. فايذاء الخفير ايذاء

(١) التداعى التهدم

المخفر وقد قال النبي ﷺ « لاتقتل نفس ظلماً بغير حق إلا كان علي ابن آدم الاول كفل (١) منها . لأنه أول من سن القتل » ولم يجيء هذا الوعيد في أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر، وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل لأنه أول من سن الشرك . ولهذا رأى النبي ﷺ عمرو بن لحي (٢) الخزاعي يعذب أعظم العذاب في النار لأنه أول من غير دين ابراهيم عليه السلام وقد قال تعالى (٣) (ولا تكونوا أول كافر به) أي فيقتدي بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم . وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها . وفي جامع الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دماً يقول يارب سل هذا فيم قتلني ؟ فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية (٤) (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) ثم قال ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة ! قال الترمذي هذا حديث حسن . وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال « أول ما ينتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً فليفعل ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل » وفي جامع الترمذي عن نافع قال : نظر عبد الله بن عمر يوماً الى الكعبة فقال « ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك »

---

(١) الكفل بكسر الكاف وسكون الفاء النصيب (٢) بضم اللام وفتح الحاء وتشديد الياء (٣) في سورة البقرة (٤) في سورة النساء

قال الترمذي هذا حديث حسن. وفي صحيح البخاري أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « لايزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دماً حراماً » وذكر البخاري أيضاً عن ابن عمر قال « من ورطات الامور التى لامخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله » وفى الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر » وفيهما أيضاً عنه ﷺ « لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وفى صحيح البخاري عنه ﷺ « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة (١) وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً » هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان معاهداً فى عهده وأمانه ، فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن ؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً فرآها النبي ﷺ فى النار والهرة تخدشها فى وجهها وصدرها ، فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم (٢) وفى بعض السنن عنه ﷺ « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق »

فصل

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الانساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقي ما يوقع

---

(١) يرح بضم الياء أي يشم رائحة الجنة (٢) لعله يشير بذلك الى من حبس شيخه الامام ابن تيمية في قلعة دمشق حتى مات رضي الله عنه

أعظم العدواة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه ، وفى ذلك خراب العالم ، كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر . ولهذا قرنها الله سبحانه بها فى كتابه ورسوله ﷺ في سننه كما تقدم . قال الامام أحمد . ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزني . وقد أكد سبحانه حرمته بقوله(١) (والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) الآية . فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس ، وجعل جزاء ذلك الخلود فى النار فى العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح . وقد قال تعالى(٢) (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) فأخبر عن فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى قد تناهي قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمر بن ميمون الأودى قال : رأيت في الجاهلية قردا زني بقردة ، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا . ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا ، فانه سبيل هلكة وبوار وافتقار فى الدنيا ، وسبيل عذاب فى الآخرة وخزي ونكال . ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال(٣) (إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له الى الفلاح بدونه فقال(٤) (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون — الى قوله — فمن ابتغى

---

(١) في سورة الفرقان (٢) فى سورة الاسراء (٣) في سورة النساء
(٤) في سورة المؤمنون

وراء ذلك فأولئك هم العادون) وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وانه من الملومين، ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم فقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك . ونظير هذا أنه ذم الانسان وأنه خلق هلوعا لايصبر على شر ولا خير ، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع الا من استثنى بعد ذلك من الناجين من خلقه . فذكر منهم (١) (الذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم . مطلع عليها (٢)(يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج . فان الحوادث مبدؤها من النظر كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر . ثم تكون نظرة . ثم تكون خطرة . ثم خطوة . ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه . اللحظات ، والخطرات . واللفظات ، والخطوات . فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ويلازم الرباط على ثغورها فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبر (٣) ما علا تتبيرا

(١) في سورة سأل سائل (٢) في سورة غافر (٣) بضم الياء

فصل

وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الابواب الاربعة، فنذكر في كل واحد منها فصلا يليق به

فاما اللحظات فهي رائد الشهوة ورسولها، وحفظها أصل حفظ الفرج. فمن أطلق نظره أورده موارد الهلاك. وقد قال النبي ﷺ «ياعلي لاتتبع النظرة النظرة فانما لك الأولى وليست لك الثانية» وفى المسند عنه ﷺ «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس» فمن غض بصره عن محاسن امرأة أو أمرد لله أورث الله فى قلبه حلاوة العبادة الي يوم القيامة هذا معنى الحديث وقال «غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم» وقال «إياكم والجلوس على الطرقات» قالوا: يارسول الله مجالسنا، مالنا بد منها، قال «فان كنتم لابد فاعلين فاعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حقه؟ قال «غض البصر وكف الأذى ورد السلام». والنظر أصل عامة الحوادث التى تصيب الانسان. فان النظرة تولد خطرة. ثم تولد الخطرة فكرة. ثم تولد الفكرة شهوة. ثم تولد الشهوة ارادة. ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولا بد، مالم يمنع منه مانع. وفى هذا قيل «الصبر علي غض البصر أيسر من الصبر علي ألم مابعده». ولهذا قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر * ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة بلغت فى قلب صاحبها * كمبلغ السهم بين القوس والوتر

والعبد مادام ذا طرف يقلبه * فى أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته * لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه ، وهذا من أعظم العذاب أن ترى ما لا صبر لك عنه ولا عن بعضه ولا قدرة لك عليه . قال الشاعر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج الى شرح . ومراده أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ولا تقدر عليه فان قوله : لا كله أنت قادر عليه نفي لقدرته على الكل الذي لا ينتفي إلا بنفي القدرة عن كل واحد واحد. وكم من مرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشحط بينهن قتيلا ، كما قيل :

يا ناظراً ما أقلعت لحظاته * حتى تشحط بينهن قتيلا

ولي من أبيات :

ملّ السلامة فاغتدت لحظاته * وقفا على طلل يظن جميلا
ما زال يتبع إثره لحظاته * حتى تشحط بينهن قتيلا

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل الى المنظور اليه حتى يتبوأ مكانا من قلب الناظر . ولي من قصيدة .

يا راميا بسهام لحظ مجتهدا * أنت القتيل بما ترمي فلا تصب

وباعث الطـرف يرتاد الشفـاء له * احبس رسولك لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك أن النظرة تجرح القلب جرحا فيتبعها جرح على جرح، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها . ولى أيضاً فى هذا المعنى :

ما زلت تتبع نظرة في نظرة * في أثر كل مليحـة ومليـح
وتظن ذاك دواء جرحك وهو فى الـ * ـتحقيق تجريح على تجريح
فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكا * فالقلب منك ذبيح أي ذبيـح

وقد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات

فصل

وأما الخطرات فشأنها أصعب ، فانها مبدأ الخير والشر ، ومنها تتولد الارادات والهمم والعزائم . فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب. ومن استهان بالخطرات قادته قهراً إلى الهلكات . ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منى (١) باطلة كسراب بقيعة (٢) يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . وأخس الناس همة وأوضعهم نفساً من رضي من الحقائق بالاماني الكاذبة واستجلبها لنفسه وتحلى بها ، وهي لعمر الله رءوس أموال المفلسين ومتاجر الباطلين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ،

(١) جمع منيـة ما تتمناه النفس ولا تصل اليه لعجزها (٢) القيعة والقاع المستوى من الارض

ومن الحقائق بكواذب الآمال ، كما قال الشاعر :

أماني من سعدى رواء على الظما سقتنا بها سعدي على ظماء بردا
منى ان تكن حقاً تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمناً رغداً

وهي أضر شيء على الانسان وتتولد من العجز والكسل، وتولد التفريط والاضاعة والحسرة والندامة . والمتمني لما فاته مباشرة الحقيقة بجسه نحت صورتها في قلبه وعانقها وضمها اليه فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لايجدي عليه شيئاً ، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور في وهمه صورة الطعام والشراب وهو لا يأكل ولا يشرب. والسكون منه الى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها . وإنما شرف النفس وزكاؤها وطهارتها وعلوها بأن ينفي عنها كل خطرة لاحقيقة لها ولا يرضى أن يخطرها بباله ويأنف لنفسه منها . ثم الخطرات بعد (١) أقسام تدور على أربعة أصول : خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه ، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه ، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته . وخطرات يستدفع بها مضار آخرته . فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه في هذه الاقسام الأربعة فاذا انحصرت له فيها فما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره ، واذا تزاحمت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته ، وأخر الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته . بقي قسمان آخران : أحدهما مهم لايفوت . والثاني غير مهم ولكنه يفوت . ففي كل منهما ما يدعو الي تقديمه فهنا يقع التردد

(١) بالبناء على الضم اى بعد الذي تقدم

والحيرة فيه . فان قدم الأهم خشى فوات مادونه ، وان قدم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم . وذلك بأن يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ولا يحصل أحدهما الا بتفويت الآخر، فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة . ومن ههنا ارتفع من ارتفع ونجح من نجح وخاب من خاب ، فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذى لا يفوت على المهم الذى يفوت . ولا تجد أحداً يسلم من ذلك ولكن مستقل ومستكثر . والتحكيم فى هذا الباب للقاعدة الكبرى التى يكون عليها مدار الشرع والقدر واليها يرجع الخلق والأمر، وهى إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما وإن فاتت المصلحة التى هى دونها، والدخول فى أدنى المفسدتين لدفع ماهو أكبر منها فيفوت مصلحة لتحصيل ماهو أكبر منها. ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها. فخطرات العاقل وفكره لا تتجاوز ذلك وبذلك جاءت الشرائع . ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم الا على ذلك. وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة. فما كان لله فهو أنواع (الأول) الفكرة فى آياته المنزلة وتعقلها وفهمها وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها تعالى لا لمجرد تلاوتها بل التلاوة وسيلة . قال بعض السلف. أنزل القرآن ليعمل به. فاتخذوا تلاوته عملا . (الثاني) الفكرة فى آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته واحسانه وبره وجوده ، وقد حث الله سبحانه عباده على التفكر فى آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك. (الثالث) الفكرة فى آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحلمه ، وهذه الانواع

الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ، ودوام الفكرة فى ذلك مع الذكر يصبغ القلب فى المعرفة والمحبة صبغة تامة

(الرابع) الفكرة فى عيوب النفس وآفاتها وفى عيوب العمل ، وهذه الفكرة عظيمة النفع وهذا باب لكل خير وتأثيرها فى كسر النفس الأمارة بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت وصار الحكم لها . فحيي القلب ودارت كلمته فى مملكته . وبث أمراءه وجنوده فى مصالحه . (الخامس) الفكرة فى واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم (١) كله عليه : فالعارف ابن وقته فان أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها . فجميع المصالح انما تنشأ من الوقت فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبداً . قال الشافعي رضي الله عنه « صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين . أحدهما قولهم : الوقت سيف فان لم تقطعه قطعك ، وذكر الكلمة الاخرى . ونفسك إن شغلتها بالحق وإلا شغلتك بالباطل »

فوقت الانسان هو عمره في الحقيقة وهو مادة حياته الأبدية فى النعيم المقيم ومادة المعيشة الضنك فى العذاب الاليم ، وهو يمر أسرع من مر السحاب . فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وان عاش فيه (طويلا فهو يعيش) عيش البهائم . فاذا قطع وقته فى الغفلة والشهوة والأماني الباطلة وكان خيره اقطعه بالنوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته . واذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته الا ماعقل منها فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله ، وما عدا هذه

(١) أي الهمة

الاقسام من الخطرات والفكر فاما وساوس شيطانية وإما أماني باطلة وخدع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين ، ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق :

إن كان منزلتي فى الحب عندكمُ * ماقد لقيت فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت نفسي بها زمنا * واليوم احسبها أضغاث أحلام

واعلم ان ورود الخاطر لايضر وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته ، فالخاطر كالمار على الطريق فان لم تستدعه وتتركه مر وانصرف عنك ، وان استدعيته سحرك بحديثه وخدعه وغروره ، وهو أخف شىء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة. وقد ركب الله سبحانه فى الانسان نفسين : نفساً أمارة . ونفساً مطمئنة. وهما متعاديتان فكل ماخف على هذه ثقل على هذه ، وكل ماالتذت به هذه تألمت به الأخري ، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها . وليس لها أنفع منه ، وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وإجابة داعى الهوى وليس عليها سيء أضر منه . والملك مع هذه عن يمين القلب والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب والحروب مستمرة لاتضع أوزارها الا أن تستوفى أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والنفس الأمارة ، والحق كله يتحيز مع الملك والنفس المطمئنة ، والحرب دول وسجال (١) ، والنصر

(١) أي مرة له ومرة عليه

مع الصبر ومن صبر وصابر ورابط واتق الله فله العاقبة فى الدنيا والآخرة . وقد حكم الله تعالى حكما لا يبدل أبداً أن العاقبة للتقوى والعاقبة للمتقين . فالقلب لوح فارغ والخواطر نقوش تنقش فيه . فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه مابين كذب وغرور وخدع وأماني باطلة وسراب لا حقيقة له ؟ فأى حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك فى لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع فى محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه . فان لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم تستقر فيه الخواطر النافعة . فانها لا تستقر إلا في محل فارغ كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خاليا فتمكنا

ولهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر وأن لا يمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها . وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء . فانهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر فبقيت فارغة لا شيء فيها فصادفها الشيطان خلية فبذر فيها الباطل فى قوالب أوهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها . وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى . وإذا خلا القلب من هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خالياً فشغله بما يناسب حال صاحبه ، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فشغله بالعلوية . فهذه إرادة التجريد والفراغ من الأرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح له إلا بأن تكون هي المستولية على قلبه . وهي إرادة مراد الله الديني الأمري الذي يحبه ويرضاه وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على

التفصيل به والقيام به وتنفيذه فى الخلق والتطرق الى ذلك والتوصل اليه بالدخول فى الخلق لتنفيذه فبرطلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم الى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا وأسبابها . واوهمهم أن كمالهم فى ذلك التجريد والفراغ وهيهات هيهات . إنما الكمال فى اجلاء القلب والسر من الخواطر والارادات والفكر فى تحصيل مراضى الرب تعالى من العبد ومن الناس. والفكر فى طرق ذلك التوصل اليه . فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لذلك . كما ان أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت . والله المستعان . وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت تتزاحم عليه الخواطر فى مرضات الرب تعالى . فربما استعملها فى صلاته . فكان يجهز جيشه وهو فى صلاته فيكون قد جمع بين الصلاة والجهاد . وهذا من باب تداخل العبادات فى العبادة الواحدة . وهو باب عزيز شريف لا يدخل منه الا صادق حاذق القلب متضلع من العلم عالي الهمة . بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتى . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

فصل

وأما اللفظات فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة بل لا يتكلم الا فيما يرجو فيه الربح والزيادة فى دينه . فان أراد ان يتكلم بالكلمة نظر هل فيها ربح وفائدة أم لا . فان لم يكن فيها ربح أمسك عنها ، وإن كان فيها ربح نظر ، هل تفوته بها كلمة هي أربح منها ؟ فلا يضيعها بهذه . وإذا أردت

أن تستدل على مافى القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان فانه يطلعك على ما في القلب شاء صاحبه أم أبى . قال يحيى بن معاذ « القلب كالقدور تغلى بما فيها وألسنتها مغارفها » فانظر الرجل حين يتكلم فان لسانه يغترف لك به مما فى قلبه حلواً أوحامضا وعذباً أو أجاجا وغير ذلك . ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه، أى كما تطعم بلسانك طعم ما فى القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه فتذوق ما فى قلبه من لسانه كما تذوق ما فى القدر بلسانك وفى حديث أنس المرفوع « لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه . ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال « الفم والفرج » قال الترمذى حديث حسن صحيح . وقد سأل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذى يدخله الجنة ويباعده من النار فأخبره ﷺ برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال » ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قال : بلى يارسول الله . فأخذ بلسان نفسه ثم قال « كف عليك هذا » فقال : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال « ثكلتك أمك يامعاذ (١) وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أوقال على مناخرهم الاحصائد ألسنتهم » قال الترمذى حديث حسن صحيح . ومن العجب أن الانسان يهون عليه التحفظ والاحتراز

(١) اى فقدتك وهو من الالفاظ التى تعودتها الالسنة لقصد التنبيه لا لقصد معناها كقولهم تربت يداك وقاتلك الله وغير ذلك

من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك ، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه حتى يرى الرجل يشار اليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً (١) يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري (٢) فى أعراض الأحياء والأموات ولا يبالى مايقول . وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر الى ماروراه مسلم فى صحيحه من حديث جندب بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ « قال رجل والله لايغفر الله لفلان. فقال الله عز وجل: من ذا الذى يتألى (٣) علي إني لاأغفر لفلان . قد غفرت له وأحبطت عملك » فهذا العابد الذى قد عبد الله ماشاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله . وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ثم قال أبو هريرة «تكلم بكلمة أوبقت (٤) دنياه وآخرته» وفى الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى نار جهنم » وعند مسلم « ان العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين مافيها يهوي بها فى النار أبعد مما بين المغرب والمشرق » وعند الترمذى عن النبي ﷺ من حديث بلال بن الحارث المزنى « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ مابلغت فيكتب الله له

(١) أى لا يفكر فيها ولا يتأمل في عواقبها (٢) فري الشيء قطعه
(٣) هو من الألية وهى اليمين (٤) أوبقت أي أهلكت

بها رضوانه الي يوم يلقاه . وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها سخطه الى يوم يلقاه » فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث . وفى جامع الترمذى أيضاً من حديث أنس قال : توفى رجل من الصحابة فقال رجل: أبشر بالجنة . فقال رسول الله ﷺ « أولا تدرى ؟ لعله تكلم فيما لايعنيه، أو بخل بما لا ينقصه » قال الترمذي حديث حسن . وفي لفظ أن غلاما استشهد يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: هنيئاً لك الجنة يابني فقال رسول الله ﷺ « وما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ، ويمنع مالايضره » وفى الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » وفي لفظ لمسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فاذا شهد أمرا فليتكلم بخير أو ليسكت» وذكر الترمذى باسناد صحيح عنه ﷺ «من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت :يا رسول الله قل لي فى الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال « قل آمنت بالله ثم استقم » قال قلت : يا رسول الله ، ما أخوف ما تخاف عني . فأخذ بلسان نفسه ثم قال « هذا » والحديث صحيح . وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال« كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله عزوجل « قال الترمذي حديث حسن .وفي حديث آخر «اذا اصبح العبد فان الاعضاء كلها تكفر اللسان . تقول : اتق الله . فانما نحن بك . فاذا استقمت

استقمنا . وإن اعوججت اعوججنا » وقد كان بعض السلف يحاسب احدهم نفسه فى قوله يوم حار ويوم بارد . ولقد رؤي بعض الاكابر من أهل العلم فى النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال : أنا موقوف على كلمة قلتها . قلت : ماأحوج الناس الى غيث ، فقيل لى . ومايدريك ؟ أنا أعلم بمصلحة عبادى . وقال بعض الصحابة لخادمه يوما : هات لى السفرة نعبث بها . ثم قال : أستغفر الله ماأتكلم بكلمة الا وأنا أخطمها وأزمها (١) الاهذه الكلمة خرجت منى بغير خطام ولا زمام أوكما قال . قال وشر حركات الجوارح حركة اللسان وهي أضرها على العبد . واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع مايلفظ به أو الخير والشر فقط ؟ علي قولين : أظهرهما الاول . وقال بعض السلف : كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ما كان من ذكر الله وما والاه (٢) وكان الصديق رضي الله عنه يمسك بلسانه ويقول : هذا أوردني الموارد . والكلام أسيرك فاذا خرج من فيك صرت أنت أسيره . والله عند لسان كل قائل و (مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) (٤) وفى اللسان آفتان عظيمتان ، إن خلص من أحداهما لم يخلص من الأخرى : آفة الكلام ، وآفة السكوت . وقد تكون كل منهما أعظم إثما من الاخرى في وقتها فالساكت عن الحق شيطان

(١) خطام البعير ان يؤخذ حبل من ليف اوشعر اوكتان فيجعل في احد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ثم يقلد البعير ثم يثنى على مخطمه وهو أنفه . وأما الحبل الذي يجعل فى الأنف دقيقا فهو الزمام
(٢) اى وماتبع ذكر الله وقد تقدم قريبا أنه حديث من رواية أم حبيبة
(٤) في سورة ق والقرآن المجيد

أخرس عاص لله مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه . والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله . وأكثر الخلق منحرف فى كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين . وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة . فلا يرى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلاً أن تضره فى آخرته . وان العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله عز وجل وما اتصل به

فصل

وأما الخطوات فحفظها بان لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه عند الله تعالى فان لم يكن فى خطاه مزيد ثواب فالقعود عنه خير له . ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة يتقرب بها وينويها لله ، فتقع خطاه قربة ، وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات . ولما كانت العثرة عثرتين : عثرة الرجل ، وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينة الاخرى فى قوله تعالى (١) (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا (٢) وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) فوصفهم بالاستقامة فى لفظاتهم وخطواتهم كما جمع بين اللحظات والخطرات فى قوله تعالى(٣) (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)

(١) في سورة الفرقان (٢) الهون الرفق واللين والتثبت (٣) في سورة غافر

فصل

وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدى تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج وقد دل ﷺ « أكثر مايدخل الناس النار الفم والفرج » وفى الصحيحين عنه ﷺ « لايحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث: الثيب الزاني ، والنفس بالنفس . والتارك لدينه المفارق للجماعة » وهذا الحديث فى اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التى في الفرقان و نظير حديث ابن مسعود . بدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعاً ثم بالذي يليه فالزنى أكثر وقوعاً من قتل النفس ، وقتل النفس أكثر وقوعاً من الردة نعوذ بالله منها. وأيضاً فانه انتقال من الاكبر الى ما هو أكبر منه مفسدة . ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم . فان المرأة اذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رؤسهم بين الناس وان حملت من الزنى فان قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل وإن أبقته حملته على الزوج فأدخلت على أهلها وأهله أجنبيا ليس منهم فورثهم وليس منهم ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم . إلى غير ذلك من مفاسد زناها وأما زنى الرجل فانه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا وإفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد . ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين وان عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة. فكم فى الزنى من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم . ومن خاصيته أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس . ومن خاصيته

أيضاً أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته . ويجلب الهم والحزن والخوف ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان . فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته . ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها . ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت . وقال سعد بن عبادة رضي الله عنه «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح(١)» فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال «أتعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير منه والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» متفق عليه . وفي الصحيحين أيضاً عنه ﷺ «ان الله يغار . وان المؤمن يغار . وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه» وفي الصحيحين عنه ﷺ «لا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا أحد أحب اليه العذر من الله . من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين . ولا أحد أحب اليه المدح من الله . ومن أجل ذلك أثنى على نفسه» وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال «يا أمة محمد ، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته . يا أمة محمد . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» ثم رفع يديه فقال «اللهم هل بلغت» وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله . وظهور الزنى من أمارات خراب العالم . وهو من أشراط الساعة كما في الصحيحين عن أنس بن

---

(١) بضم الميم وفتح الفاء يقال أصفحه بالسيف أى ضربه بعرضه دون حده

مالك أنه قال : لأحدثنكم حديثا لايحد ثكموه أحد بعدى سمعته من النبي ﷺ يقول « من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنى ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » وقد جرت سنة الله سبحانه فى خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه فلابد أن يؤثر غضبه فى الارض عقوبة . قال عبد الله بن مسعود « ما ظهر الربا والزنى فى قرية الا أذن الله باهلاكها » ورأى بعض أحبار بنى اسرائيل ابناله يغامز امرأة فقال : مهلا يابنى ، فصرع الاب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقيل له « هكذا غضبك لى ؟ لايكون فى جنسك خير أبدا » وخص سبحانه حد الزنى من بين سائر الحدود بثلاث خصائص : أحدها القتل فيه بأشنع القتلات ، وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة . الثاني أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم ، فانه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة . فهو أرحم بهم منكم بهم ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة فلا يمنعكم أنتم مايقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره ، وهذا وإن كان عاما في سائر الحدود ولكن ذكر فى حد الزنى خاصة لشدة الحاجة الى ذكره . فان الناس لايجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة علي الزاني مايجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر . فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم والوقائع . والواقع شاهد بذلك . فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله عز وجل

وسبب هذه الرحمة أن هذا ذنب يقع من الاشراف والاوساط والأراذل، وفي النفوس أقوى الدواعي اليه والمشارك فيه كثير وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصور المعشوقة محرمة عليه ولا يستنكر هذا الأمر فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الانعام. ولقد حكي لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصي العقول والأديان كالخدم والنساء. وأيضاً فان هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه وفيه شهوة غالبة له فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد وهذا كله من ضعف الايمان. وكمال الايمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقاً لربه سبحانه في أمره ورحمته. الثالث أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة حيث لا يراهما أحد. وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر. وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة. وذلك لاشتراك الزنى واللواط في الفحش وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره. فان في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى فانه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ويذهب خيره كله وتمص الارض ماء الحياء من وجهه فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه

وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم فى البدن . وقد اختلف الناس هل يدخل الجنة مفعول به ، على قولين . سمعت شيخ الاسلام رحمه الله يحكيهما . والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجوا بأمور : منها أن النبي ﷺ قال « لا يدخل الجنة ولد زنى » فاذا كان هذا حال ولد الزنا مع انه لا ذنب له في ذلك ولكنه مظنة كل شر وخبث وهو جدير أن لا يجيء منه خير أبداً لانه مخلوق من نطفة خبيثة ، وإذا كان الجسد الذي تربى على الحرام النار أولى به ، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام المداول . والمفعول به شر من ولد الزنى وأخزى وأخبث وأوسخ وهو جدير أن لا يوفق لخير وأن يحال بينه وبينه . وكلما عمل خيراً قيض الله له ما يفسده عقوبة له . وقل ان ترى من كان كذلك فى صغره إلا وهو في كبره شر مما كان ولا يوفق لعلم نافع ولا عمل صالح ولا لتوبة نصوح . والتحقيق في هذه المسألة أن يقال : إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب ورزق توبة نصوحاً وعملاً صالحاً وكان في كبره خيراً منه فى صغره وبدل سيئاته بحسنات وغسل عار ذلك عنه بانواع الطاعات والقربات وغض بصره وحفظ فرجه من المحرمات ، وصدق الله في معاملته فهذا مغفور له وهو من أهل الجنة . فان الله يغفر الذنوب جميعاً. وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب ، وقد استقرت حكمة الله عدلاً وفضلاً أن « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أنه

يبدل سيئاته حسنات، وهذا حكم عام لكل تائب من ذنب وقد قال تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولكن هذا في حق التائبين خاصة. وأما مفعول به كان في كبره شراً مما كان في صغره لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح ولا استدرك ما فات ولا أحيا ما مات ولا بدل السيئات بالحسنات فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة عقوبة له على عمله فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى وتتضاعف الحسنات. وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة عقوبة لهم على الأعمال السيئة. قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي رحمه الله: اعلم أن لسوء الخاتمة — أعاذنا الله منها — أسبابا ولها طرق وأبواب أعظمها الانكباب على الدنيا والإعراض عن الآخرة والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل. وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الإعراض ونصيب من الجرأة والإقدام فملك قلبه وسبى عقله وأطفأ نوره وأرسل عليه حجبه فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجعت فيه موعظة فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين المراد ولا علم ما أراد وإن كرر عليه الداعي وأعاد [illegible] ويروى أن [illegible]

له قل لا إله إلا الله فقال : الناصر مولاي ، فأعاد عليه القول فقال مثل ذلك . ثم أصابته غشية فلما أفاق قال:الناصر مولاي.وكان هذا دأبه كلما قيل له قل لا إله إلا الله .قال الناصر مولاي. ثم قال لابنه يافلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل. ثم مات على ذلك،قال عبد الحق رحمه الله وقيل لآخر ممن أعرفه قل لا إله إلا الله فجعل يقول:الدار الفلانيه اصلحوا فيها كذا والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا.قال وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أحدث به عنه أن رجلا نزل به الموت فقيل له قل لا إله إلا الله فجعل يقول بالفارسية ده يازده ، تفسيره عشرة باحدى عشرة وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يقول: *أين الطريق الى حمام منجاب* قال: وهذا الكلام له قصة وذلك أن رجلا كان واقفا بازاء داره وكان بابها يشبه باب هذا الحمام فمرت به جارية لها منظر فقالت : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال : هذا حمام منجاب . فدخلت الدار ودخل وراءها . فلما رأت نفسها فى داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه وقالت خدعة منها له وتحيلا لتتخلص مما أوقعها فيه وخوفا من فعل الفاحشة : يصلح أن يكون معنا مايطيب به عيشنا وتقر به عيوننا . فقال لها : الساعة آتيك بكل ماتريدين وتشتهين . وخرج وتركها فى الدار ولم يغلقها . فأخذ مايصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تخنه فى شيء . فهام الرجل وأكثر الذكر لها ، وجعل يمشي فى الطريق والأزقة ويقول :

يارب قائلة يوما وقد تعبت * أين الطريق إلى حمام منجاب

فبينا يقول ذلك وإذا بجاريته أجابته من طاق قرنان :

هل لاجعلت سريعاً اذظفرت بها * حرزاً على الدار أوقفلا على الباب

فازداد هيمانه واشتد هيجانه ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا . قال ويروى أن رجلا عشق شخصاً فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى وقع ألماً به ولزم الفراش بسببه ؟ وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه . فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده أن يعوده فأخبره الساعي بذلك ففرح واشتد سروره وانجلى غمه وجعل ينتظر الميعاد الذي ضربه له ، فبينا هو كذلك اذ جاءه الساعي بينهما فقال : انه وصل معي الى بعض الطريق ورجع فرغبت إليه وكلمته فقال: انه ذكرني وبرحني ، ولا أدخل مداخل الريب ولا أعرض نفسي لمواقع التهم فعاودته فأبى وانصرف . فلما سمع البائس ذلك أسقط في يده وعاد إلى أسد مما كان به وبدت عليه علائم الموت فجعل يقول في تلك الحال :

أسلم يا راحة العليل * ويا شفاء المدنف النحيل

رضاك أشهى الى فؤادي * من رحمة الخالق الجليل

فقلت له يا فلان اتق الله . قال قد كان . فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت. فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة. ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصبح فلما أصبح قيل له أكل هذا خوفاً من الذنوب : فأخذ تبنة من الأرض وقال . الذنوب أهون من هذه وإنما أبكي خوفاً من سوء الخاتمة. وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل

أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى . وقد ذكر الامام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) (١) فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى .

قال : واعلم أن سوء الخاتمة . أعاذنا الله تعالى منها . لاتكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ، ماسمع بهذا ولا علم به . ولله الحمد . وإنما تكون لمن له فساد فى العقيدة أو إصرار على الكبيرة وإقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه حتى نزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم (٢) قبل الانابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله . قال ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة فيه وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة . فرقى يوماً المنارة على عادته للأذان ، وكان تحت المنارة دار لنصراني ، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان ، ونزل اليها ودخل الدار عليها فقالت له : ماشأنك . وما تريد ؟ قال أريدك . قالت لماذا ؟ قال. قد سلبت لبي ، وأخذت بمجامع قلبي . قالت : لاأجيبك إلى ريبة أبداً . قال : أتزوجك . قالت أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لايزوجنى منك. قال : أتنصر . قالت : إن فعلت أفعل . فتنصر الرجل ليتزوجها ، وأقام معهم فى الدار . فلما كان فى أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار

(١) في سورة الانعام (٢) الاصطلام الاستئصال

فسقط منه فمات . فلم يخلص منها وفيه دينه

فصل

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات . وقد اختلف الناس: هل هو أغلظ عقوبة من الزنى أو الزنى أغلظ عقوبة منه . أو عقوبتهما سواء ؟ على ثلاثة أقوال : فذهب أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وخالد بن زيد وعبد الله بن معمر والزهري وربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك واسحق بن راهويه والامام أحمد فى أصح الروايتين عنه والشافعي فى أحد قوليه الى ان عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى . وعقوبته القتل على كل حال محصناً كان أو غير محصن . وذهب عطاء بن أبي رباح والحسن البصري وسعيد بن المسيب وابراهيم النخعي وقتادة والاوزاعي والشافعي فى ظاهر مذهبه والامام أحمد فى الرواية الثانية عنه وأبو يوسف ومحمد إلى أن عقوبته وعقوبة الزاني سواء . وذهب الحكم والامام أبو حنيفة الى أن عقوبته دون عقوبة الزاني وهي التعزير . قالوا : لأنه معصية من المعاصي لم يقدر الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فيه حداً مقدراً فكان فيه التعزير كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير . قالوا : ولأنه وطء فى محل لا تشتهيه الطبائع بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم فلم يكن فيه حد كوطء الحمار وغيره . قالوا : ولأنه لا يسمى زانياً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً فلا

يدخل فى النصوص الدالة على حد الزانيين ، قالوا : ولا نا رأينا من قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع عنها طبعياً اكتفى بذلك الوازع عن الحد وإذا كانت الطبائع تقتضيها جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطبائع لها ولهذا جعل الحد فى الزنى والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير . قالوا : وطرد هذا أنه لاحد فى وطء البهيمة ولا الميتة ، وقد جبل الله تعالى الطبائع على النفرة من وطء الرجل الرجل أشد نفرة ، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنى فان الداعى فيه من الجانبين ، قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد كما لو تساحقت المرأتان واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى

قال أصحاب القول الأول ، وهم جمهور الامة ، وحكاه غير واحد إجماعاً للصحابة : ليس فى المعاصى مفسدة أعظم من مفسدة اللواط ، وهي تلي مفسدة الكفر ، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل كما سنبينه ان شاء الله تعالى ، قالوا : ولم يبتل الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين . وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم ، وجمع عليهم أنواعاً من العقوبات من الاهلاك . وقلب ديارهم عليهم وخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء ، وطمس أعينهم ، وعذبهم وجعل عذابهم مستمراً ، فنكل بهم نكالاً لم ينكله بأمة سواهم . وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الارض تميد (١) من جوانبها إذا عملت عليها ، وتهرب الملائكة

(١) ماد يميد اذا مال وتحرك

الى أقطار السموات والأرض اذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم وتعج الأرض (١) الي ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن أماكنها ، وقتل المفعول به خير له من وطئه ، فانه اذا وطئه الرجل قتله قتلا لاترجى له الحياة معه . بخلاف قتله فانه مظلوم شهيد ، وربما ينتفع به في آخرته ، قالوا : والدليل على هذا أن الله سبحانه جعل حد القاتل الى خيرة الولي إن شاء قتل وإن شاء عفا وحتم قتل اللوطي حداً كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التي لامعارض لها، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم أجمعين . وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة فكتب الي أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم . فكان علي بن أبي طالب أشدهم قولا فيه فقال : مافعل هذا الا أمة من الأمم واحدة ، وقد علمتم مافعل الله بها ، أرى أن يحرق بالنار . فكتب أبو بكر الى خالد فحرقه . وقال عبد الله بن عباس : ينظر أعلى مافي القرية فيرمى اللوطي منها منكساً ثم يتبع بالحجارة . وأخذ ابن عباس هذا الحد من عقوبة الله للوطية من قوم لوط ، وابن عباس هو الذي روى عن النبي ﷺ « من وجد تموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره، واحتج الامام أحمد بهذا الحديث وإسناده

(١) العج رفع الصوت

على شرط البخارى ، قالوا : وثبت عنه ﷺ أنه قال « لعن الله من عمل عمل قوم لوط. لعن الله من عمل عمل قوم لوط . لعن الله من عمل عمل قوم لوط » ولم تجىء عنه لعنة الزاني ثلاث مرات فى حديث واحد. وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم فى اللعن مرة واحدة و كرر لعن اللوطية فأكده ثلاث مرات ، وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله ، لم يختلف منهم فيه رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم فى صفة قتله . فظن بعض الناس أن ذلك اختلافا منهم في قتله فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة وهي بينهم مسألة اجماع ، قالوا : ومن تأمل قوله سبحانه (١) (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقوله فى اللواط (٢) (أتأتون الفاحشة ؟ ما سبقكم بها من أحد من العالمين) تبين له تفاوت ما بينهما ، فانه سبحانه نكر الفاحشة في الزنى أى هو فاحشة من الفواحش وعرفها فى اللواط ، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة كما تقول زيد الرجل ونعم الرجل زيد. أى تأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم الى غيرها ، وهذا نظير قول فرعون لموسى (٣) (وفعلت فعلتك التى فعلت) أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد . ثم أكد سبحانه شأن فحشها بانها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم فقال (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) ثم زاد فى التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الاسماع وتنفر منه أشد النفور ، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله

(١) في سورة الاسراء (٢) في سورة الاعراف (٣) فى سورة الشعراء

ينكحه كما ينكح الأنثى فقال (١) (إنكم لتأتون الرجال) ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وأن الحامل لهم عليه ليس الا مجرد الشهوة لا الحاجة التى لأجلها مال الذكر الى الانثى من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة التى تنسى المرأة لها أبويها وتذكر بعلها . وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات . وتحصين المرأة وقضاء الوطر وحصول علاقة المصاهرة التى هي أخت النسب ، وقيام الرجال على النساء . وخروج أحب الخلق الى الله من جماعهن كالانبياء والأولياء والمؤمنين . ومكاثرة النبي ﷺ الانبياء بأمته الى غير ذلك من مصالح النكاح . والمفسدة التي فى اللواط تقاوم ذلك كله وتربي عليه بما لا يمكن حصره وفساده ولا يعلم تفصيله الا الله عز وجل . ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التى فطر الله عليها الرجال ، وقلبوا الطبيعة التى ركبها الله في الذكور وهي شهوة النساء دون الذكور فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها ، وكذلك قلبوا هم ونكسوا فى العذاب على رؤسهم . ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد فقال (٢) (بل أنتم قوم مسرفون) فتأمل . هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الزنى ، وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله (٣) (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال (إنهم كانوا قوم سوء

---

(١) في سورة الاعراف (٢) في سورة الاعراف (٣) في سورة الانبياء

فاسقين) وسماهم مفسدين فى قول نبيهم فقال (١) (رب انصرني على القوم المفسدين) وسماهم ظالمين فى قول الملائكة لابراهيم عليه السلام (٢) (إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات . ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة وقد أخبروه باهلاكهم قيل له (٣) (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بانه قد طرقه أضيافهم من أحسن البشر صورا . فأقبل اللوطية اليه يهرعون فلما رآهم قال لهم (٤) (ياقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهن خوفا على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد فقال (يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى . أليس منكم رجل رشيد ؟) فردوا عليه ولكن رد جبار عنيد (٥) (لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد) فنفث نبى الله نفثة مصدور خرجت من قلب مكروب فقال (لو أن لى بكم قوة أو آوي الى ركن شديد) فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال وأعلموه أنهم ممن ليس يوصل اليهم ولا إليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم وهون عليك فقالوا (يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك) وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ومن الوعيد المصيب لقومه فقالوا (فأسر بأهلك بقطع من الليل (٦) ولا يلتفت منكم أحد

(١و٢) فى سورة العنكبوت (٣و٤و٥) فى سورة هود (٦) القطع بكسر القاف وسكون الطاء ظلمة آخر الليل

إلا امرأتك . إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟) فاستبطأ نبي الله عليه السلام موعد هلاكهم وقال : أريد أعجل من هذا . فقالت الملائكة (أليس الصبح بقريب) فو الله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير فبرز المرسوم الذى لا يرد من عند الرب الجليل إلى عبده ورسوله جبرائيل بأن يقلبها عليهم كما أخبر به فى محكم التنزيل فقال عز من قائل (١) (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل (٢)) فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ونكالاً وسلفاً لمن شاركهم فى أعمالهم من المجرمين وجعل ديارهم بطريق السالكين (٣) (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أخذهم على غرة وهم نائمون ، وجاءهم بأسه وهم فى سكرتهم يعمهون . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون تقلبوا على تلك اللذات دهراً طويلا فأصبحوا بها يعذبون

مآرب كانت فى الحياة لأهلها عذابا فصارت فى الممات عذابا

ذهبت اللذات . وأعقبت الحسرات . وانقضت الشهوات ، وأورثت الشقوات . تمتعوا قليلا . وعذبوا طويلا . رتعوا مرتعا وخيما ، فأعقبهم عذابا أليما . أسكرتهم خمرة تلك الشهوات فما استفاقوا منها إلا فى ديار المعذبين . وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم فى منازل الهالكين .

---

(١) في سورة هود (٢) هو طين محمي في نار جهنم (٣) في سورة الحجر

فندموا والله أشد الندامة حين لاينفع الندم . وبكوا على ماأسلفوه بدل الدموع بالدم . فلو رأيت الأعلى والاسفل من هذه الطائفة ، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم على بين أطباق الجحيم ، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم ، ويقال لهم وهم وجوههم يسحبون : ذوقوا ما كنتم تكسبون (١) (إصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) ولقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الامة وبين إخوانهم فى العمل فقال مخوفا لهم بأعظم الوعيد (٢) (وماهي من الظالمين ببعيد)

فيانا كح الذكران تهنكم البشرى
فيوم معاد الناس إن لكم أجرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وأكثروا
فان لكم زفا الى ناره الكبرى
فاخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم
وقالوا الينا عجلوا لكم البشرى
وهانحن أسلاف لكم في انتظاركم
سيجمعنا الجبار في ناره الكبرى
ولا تحسبوا أن الذين نكحتمو
يغيبون عنكم بل ترونهم جمرا
ويلعن كل منهم لخليله ويشقى به المحزون فى الكرة الاخرى

---

(١) في سورة الطور (٢) في سورة هود

يعذب كل منهم بشريكه
كما اشتركا في لذة توجب الوزرا

فصل

﴿ في الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزني ﴾

اما قولهم إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً فجوابه من وجوه (أحدها) أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً، وما شرعه رسوله ﷺ فانما شرعه عن الله. فان أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة. (الثاني) أن هذا ينتقض عليكم بالرجم فانه إنما ثبت بالسنة، فان قلتم. بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه. قلنا: فينتقض عليكم بحد شارب الخمر. (الثالث) أن نفي دليل معين لا يلزم منه نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذى نفيتموه غير منتف؟

وأما قولكم إنه وطء لا تشتهيه الطباع بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة. فجوابه من وجوه: (أحدها) أنه قياس فاسد الاعتبار مردود بسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه. (الثاني) أن قياس وطء الأمرد الجميل الذى تربو فتنته على كل فتنة على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس، وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة، أو يسبي ذلك عقل عاشق أو يأسر قلبه أو يستولى على فكره ونفسه؛ فليس في القياس أفسد من هذا. (الثالث) أن هذا

منتقض بوطء الأم والبنت والاخت فان النفرة الطبيعية عنه كاملة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود — فى أحد القولين — وهو القتل بكل حال محصناً كان أو غير محصن ، وهذه إحدى الروايتين عن الامام أحمد ، وهو قول إسحاق بن راهويه وجماعة من أهل الحديث ، وقد روى أبو داود والترمذى من حديث البراء بن عازب قال : لقيت عمي ومعه الراية ، فقلت له : إلى أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله ﷺ الى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله . قال الترمذى : هذا حديث حسن . قال الجوزجاني: عم البراء اسمه الحارث بن عمرو وفى سنن أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ « من وقع على ذات محرم فاقتلوه » ورفع الى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها فقال : احبسوه واسألوا من ها هنا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألوا عبد الله بن مطرف فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «من تخطى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف » وهذه دليل على القتل بالتوسيط . وهذا دليل مستقل فى المسألة وهو أن من لا يباح وطؤه بحال فحد واطئه القتل . دليله من وقع على أمه ، وكذلك يقال فى وطء ذوات المحارم . من وطىء من لا يباح وطؤه بحال كان حده القتل كاللوطي . والتحقيق أنه يستدل على المسألتين بالنص . والقياس يشهد لصحة كل منهما . وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرم فعليه الحد ، وإنما اختلفوا فى صفة الحد ، هل هو القتل بكل حال أو حد الزنى ؟ على قولين : فذهب الشافعي ومالك وأحمد في إحدى روايته

أن حده حد الزاني . وذهب أحمد وإسحق وجماعة من أهل الحديث الى أن حده القتل بكل حال . وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالماً بالتحريم أنه يحد . إلا أبا حنيفة وحده فانه رأى ذلك شبهة مسقطة للحد . والمنازعون يقولون اذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة فانه ارتكب محذورين عظيمين : محذور العقد ، ومحذور الوطء ، فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محذور العقد الى محذور الزنى ؟ وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء . وهما في مذهب أحمد وغيره: أحدهما انه يجب به الحد وهو قول الاوزاعي ، فان فعله أعظم جرما وأكثر ذنباً، لانه انضم الى أنه فاحشة هتك حرمة الميتة

فصل

وأما وطء البهيمة فللفقهاء فيه ثلاثة أقوال . أحدها أنه يؤدب ولا حد عليه ، وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه . وهو قول إسحاق. والقول الثاني أن حكمه حكم الزاني يجلد إن كان بكراً ويرجم إن كان محصنا ، وهذ قول الحسن . والقول الثالث أن حكمه حكم اللوطي ، نص عليه أحمد. ويخرج على الروايتين في حده ، هل هو القتل حتما أو هو كالزاني ، والذين قالوا حده القتل احتجوا بما رواه أبوداود من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ « من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه » قالوا : ولانه وطء لا يباح بحال فكان فيه القتل حداً للوطء ، ومن لم ير عليه

الحد قالوا : لم يصح فيه الحديث ، ولو صح لقلنا به ولم يحل لنا مخالفته . قال اسمعيل بن سعيد الشالنجي : سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة فوقف عندها ، ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو فى ذلك . وقال الطحاوي الحديث ضعيف . وأيضاً فهو من رواية ابن عباس وقد أفتى بأنه لاحد عليه ، قال أبو داود : وهذا يضعف الحديث . ولا ريب ان الزاجر الطبعي عن اتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعي عن التلوط. وليس الامران في طباع الناس سواء . فالحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس

فصل

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على سحاق المرأتين فمن أفسد القياس ، إذ لا إيلاج هناك وإنما الحاق نظير مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج ، على أنه قد جاء فى بعض الاحاديث المرفوعة « إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان » ولكن لايجب الحد بذلك لعدم الايلاج وإن اطلق عليهما اسم الزنى العام كزنى العين واليد والرجل والفم . وإذا ثبت هذا فقد اجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ، ومن ظن أن تلوط الانسان مع مملوكه جائز واحتج على ذلك بقوله تعالى(١) (إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين) وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد فان تاب والاقتل وضرب عنقه . وتلوط الانسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره فى الاثم والحكم

(١) في سورة المؤمنون والمعارج

فصل

فان قيل : مع هذا كله فهل من دواء لهذا الداء العضال ؟ ورقية لهذا السحر القتال؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخيال؟ وهل من طريق قاصد الي التوفيق؟ وهل يمكن السكران بخمرة الهوى أن يفيق؟ وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل الى سويدائه ؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة فى برئه من سويداه وهو إن لامه لائم التذ بملامه لذكره لمحبوبه ، وان عذله عاذل أغراه عذله وسار به فى طريق مطلوبه ، ينادي عليه شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتني فأهنت نفسي جاهدا * مامن يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة فى هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلمني اللوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذى وقع عليه الاستفتاء والداء الذي طلب له الدواء

قيل : نعم . الجواب من أصله وما أنزل الله سبحانه من داء الا وأنزل له دواء ، علمه من علمه وجهله من جهله . والكلام فى دواء هذا الداء من طريقين : أحدهما حسم مادته قبل حصولها . والثاني قلعها بعد نزولها . وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ومتعذر على من لم يعنه الله، فان أزمة الأمور بيديه . وأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران: أحدهما غض البصر كما تقدم . فان النظرة سهم مسموم من سهام ابليس ،

ومن أطلق لحظاته دامت حسراته . وفى غض البصر عدة منافع : أحدها أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده ، وليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى ، وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره . وما شقي من شقي فى الدنيا والآخرة الا بتضييع أوامره . (الثاني) أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعل فيه هلاكه الى قلبه . (الثالث) أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعية على الله فان إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله ، وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر فانه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه . (الرابع) أنه يقوي القلب ويفرحه كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه . (الخامس) أنه يكسب القلب نوراً كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة ، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر فقال (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) ثم قال أثر ذلك (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) أي مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه . وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات اليه من كل جانب كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان . فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى واجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة فإن ذلك انما يكشفه له النور الذى فى القلب . فاذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس فى حنادس الظلام . (السادس) أنه يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل والصادق

والكاذب . وكان شاه بن شجاع الكرماني يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم . وكف نفسه عن الشهوات . واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة . وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة . والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله . ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه . فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب . وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه الذى هو ضد البصيرة فقال تعالى (١) (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل والعمه الذى هو فساد البصر . فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل . وعمه البصيرة يسكر القلب كما قال القائل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة * ومتى إفاقة من به سكران

وقال آخر :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم * العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون فى الحين

(السابع) أنه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة ، كما فى الأثر « الذى يخالف هواه يفر الشيطان من ظله » وضد هذا تجده فى المتبع هواه من

(١) في سورة الحجر

ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها ، وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه كما قال الحسن « إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فان المعصية لا تفارق رقابهم، أبى الله الا أن يذل من عصاه(١)» وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته والذل قرين معصيته فقال تعالى(٢) (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وقال تعالى (٣) (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين) والايمان قول وعمل ظاهر وباطن وقال تعالى (٤)(من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح. وفى دعاء القنوت «انه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت » ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، وله من العز بحسب طاعته . ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وله من الذل بحسب معصيته . (الثامن) أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب فانه يدخل مع النظرة وينفذ معها الى القلب أسرع من نفوذ الهوى فى المكان الخالي فيمثل له صورة المنظور اليه ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة ويلقى عليه حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل اليها بدون تلك الصورة ، فيصير القلب فى اللهب . فمن ذلك اللهب تلك الانفاس التي يجد فيها وهج النار وتلك الزفرات والحرقات. فان القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب. فهو وسطها كالشاة فى وسط

---

(١) تقدم شرحها (٢) في سورة المنافقين (٣) فى سورة آل عمران (٤) فى سورة فاطر

التنور . ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أن جعل لهم فى البرزخ تنور من نار وأودعت أرواحهم فيه الى حشر أجسادهم . كما أراها الله نبيه ﷺ فى المنام فى الحديث المتفق على صحته (التاسع) انه يفرغ القلب للفكرة فى مصالحه والاشتغال بها . وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول بينه وبينها . فتنفرط عليه أموره ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن ذكر ربه . قال تعالى(١) (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) واطلاق النظر يوجب هذه الامور الثلاثة بحسبه.(العاشر) أن بين العين والقلب منفذاً أوطريقا يوجب اشتغال أحدهما بما يشتغل به الآخر يصلح بصلاحه ويفسد بفساده.فاذا فسد القلب فسد النظر واذا فسد النظر فسد القلب . وكذلك فى جانب الصلاح فاذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد وصار كالمزبلة التى هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ . فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والانابة اليه والأنس به والسرور بقربه فيه ، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك . فهذه اشارة الى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ماورائها

فصل

الثاني اشتغال القلب بما يصده عن ذلك ويحول بينه وبين الوقوع فيه وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج ، فمتى خلا القلب من خوف مافواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب ، أو خوف ما حصوله أضر

(١) في سورة الكهف

عليه من فوات هذا المحبوب ، اومحبته ماهو أنفع له وخير له من هـذا المحبوب ، أو خوف ما فواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب لم يجد بداً من عشق الصور

وشرح هذا : أن النفس لاتترك محبوبا الالمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليها من فوات هذا المحبوب ، وهذا يحتاج صاحبه الى أمرين، إن فقدا أو أحدهما لم ينتفع بنفسه : أحـدهما بصيرة صحيحـة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما ، وهـذه خاصـة العقل ولا يعد عاقلا من كان بضد ذلك بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه . الثاني قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هـذا الفعل والترك ، فكثيراً مايعرف الرجل قدر التفاوت ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على إيثار الأنفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته. ومثل هذا لاينتفع بنفسه ولا ينتفع به غيره . وقد منع الله سبحانه إمامة الدين الا من أهل الصبر واليقين فقال تعالى . وبقوله يهتدي المهتدون (١) (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وهذا هو الذى ينتفع بعلمه وينتفع به غيره من الناس . وضد ذاك لاينتفع بعلمـه ولا ينتفع به غيره . ومن الناس من ينتفع بعلمه فى نفسه ولا ينتفع به غيره فالأول يمشى فى نوره ويمشى الناس معه فى نوره . والثانى قد طفئ نوره فهو يمشى فى الظلمات ومن معه تبعه . والثالث يمشي فى نوره وحده

(١) في سورة السجدة

فصل

اذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع فى القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدا. بل هما ضدان لا يجتمعان ، بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه . فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه . وان أحبه لم يحبه الا لاجله أوْ لكونه وسيلة له الى محبته أو قاطعاً له عما يضاد محبته وينقصها . والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب وأن لا يشرك بينه وبين غيره فى محبته . واذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك في محبته غيره ، ويمقته لذلك ، ويبعده ولا يحظيه بقربه ويعده كاذباً فى دعوى محبته، مع أنه ليس أهلا لصرف قوة المحبة اليه . فكيف بالحبيب الأعلى الذى لا تنبغي المحبة الا له وحده ، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال ؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده، فليختر العبد إحدى المحبتين. فانهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه ، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق الى لقائه ابتلاه بمحبة غيره فيعذب بها فى الدنيا وفى البرزخ وفي الآخرة . إما يعذبه بمحبة الأوثان أو بمحبة الصلبان . أو بمحبة النيران . أو بمحبة المردان، أو بمحبة

النسوان ، أو بمحبة الايمان (١) ، أو بمحبة العشراء والخلان ، أو بمحبة ما هو دون ذلك مما هو فى غاية الحقارة والهوان . فالانسان عبد محبوبه كائناً ما كان ، كما قيل :

أنت القتيل بكل من أحببته فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه ، قال تعالى (٢) (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟أفلا تذكرون؟)

فصل

وخاصية التعبد الحب مع الخضوع والذل للمحبوب ، فمن أحب شيئاً وخضع له فقد تعبد قلبه له. بل التعبد آخر مراتب الحب. ويقال له التتيم أيضاً . فان أول مراتبه العلاقة وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، قال الشاعر :

وعلقت ليلى وهي ذات تمائم(٣) * ولم يبد للاتراب من ثديها ضخم

وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعد ما * أفنان رأسك كالثغام الابيض (٤)

---

(١) أي البيع والشراء بالتجارة (٢) في سورة الجاثية (٣) جمع تميمة وهى مايعلق على الاطفال لمنع الحسد والجن وغيرها ومن ذلك مايسمى عند العامة اليوم بالحجب التى يكتب فيها بعض تعاويذ وكان ذلك من عادة أهل الجاهلية وقد جاء الاسلام بازالة ذلك ففى الحديث « التمائم والتولة شرك » (٤) الافنان الفروع . الثغام نبت ابيض الزهر والثمر يشبه به الشيب

ثم بعدها الصبابة. وسميت بذلك لانصباب القلب الي المحبوب. قال الشاعر:

يشكى المحبون الصبابة ليتني　　تحملت مايلقون من بينهم وحدى
فكانت لقلبي لذة الحب كلها　　فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

ثم الغرام وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه ، ومنه سمى الغريم غريماً لملازمته صاحبه ومنه قوله تعالى (١) (إن عذابها كان غراماً) وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب ، وقل أن تجده في أشعار العرب. ثم العشق وهو سفر إفراط المحبة(٢) ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه . ثم الشوق وهو سفر القلب الى المحبوب أحث السفر ، وقد جاء إطلاقه فى حق الرب تعالى كما فى مسند الامام أحمد من حديث عمار بن ياسر : أنه صلى صلاة فأوجز فيها فقيل له فى ذلك . فقال « أما إنى دعوت فيها بدعوات كان النبي ﷺ يدعو بهن: اللهم إني أسئلك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق. أحيني اذا كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لى . اللهم اني أسئلك خشيتك فى الغيب والشهادة . وأسئلك كلمة الحق فى الرضاء والغضب . وأسئلك القصد فى الفقر والغنى ، وأسئلك نعيماً لا ينفد، وأسئلك قرة عين لا تنقطع . وأسئلك الرضاء بعد القضاء . وأسئلك برد العيش بعد الموت. وأسئلك لذة النظر الى وجهك الكريم . وأسئلك الشوق الى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين » وفي

(١) في سورة الفرقان (٢) كذا بالاصل

أثر آخر « طال شوق الابرار الى وجهك . وأناالى لقائهم أشد شوقا(١) » وهذا في المعنى الذي عبر عنه ﷺ بقوله « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالي (٢) (من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت): لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه الى لقائه وان قلوبهم لاتهدأ دون لقائه ضرب لهم أجلا : موعداً للقائه تسكن نفوسهم به ، وأطيب العيش وألذه على الاطلاق عيش المشتاقين المستأنسين ، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة .ولاحياة للعبد أطيب ولا أنعم ولاأهنأ منها ، فهى الحياة الطيبة المذكورة فى قوله تعالى (٣) (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه فى ذلك أضعافا مضاعفة . وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة . فهو صادق الوعد الذي لايخلف وعده .وأى حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت واحدة في مرضات الله ولم يتشعب قلبه بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة ، على الله . فصار ذكره محبوبه الأعلى وحبه والشوق الى لقائه والانس بقربه وهو المتولى عليه ، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره ، بل وخطرات قلبه . فان سكت سكت بالله وإن نطق نطق بالله وإن

---

(١) هكذا بالأصل ولعله وجهي بدل وجهك . أو لقائك بدل لقائهم

(٢) في سورة العنكبوت (٣) في سورة النحل

سمع فبه يسمع وإن أبصر فبه يبصر ، وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيي وبه يموت وبه يبعث . كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال « ماتقرب الي عبدي بمثل أداء ماافترضت عليه . ولايزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها . فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لاعطينه. ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته . ولابد له منه » فتضمن هذا الحديث الشريف الالهي الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه . والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين أداء فرائضه والتقرب اليه بالنوافل ، وأخبر سبحانه ان أداء فرائضه أحب ما تقرب اليه المتقربون ثم بعدها النوافل . وان المحب لايزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله فاذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الاولى . فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وملكت عليه روحه ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة . فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلى مالكا لزمام قلبه مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى حبه كلها له . ولاريب ان هذا المحب ان سمع سمع لمحبوبه وان أبصر أبصر به وإن بطش بطش به وإن مشى مشى به . فهو في قلبه ومعه ومؤنسه وصاحبه ، فالباء هنا باء المصاحبة وهي مصاحبة لانظير لها ولاتدرك بمجرد الاخبار

عنها والعلم بها . فالمسألة خيالية لاعلمية محضة . واذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها كما قال بعض المحبين :

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب

وقال الآخر :

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
ومن عجب أني أحن اليهم فأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وهذا ألطف من قول الآخر :

أن قلت غبت فقلبي لايصدقني * إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أوقلت ماغبت قال الطرف ذا كذب * فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى من المحب لمحبوبه وربما تمكنت المحبة حتى يصير محبوبه أدنى اليه من نفسه بحيث ينسي نفسه ولاينساه كما قيل :

أريد لأنسى ذكره فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

وقال آخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فان هذه الآلات آلات الادراك وآلات الفعل ؛ والسمع والبصر يوردان على القلب الارادة والكراهة ويجلبان اليه الحب والبغض فتستعمل اليد والرجل ، فاذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظاً في آلات إدراكه فكان محفوظاً في حبه وبغضه ، فحفظ في بطشه ومشيه . وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان . فانه اذا كان

ادراك السمع الذى يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة . وكذلك حركة اليد والرجل التى لابد للعبد منها . فكيف بحركة اللسان التى لاتقع الا بقصد واختيار . وقد يستغنى العبد عنها الا حيث أمر بها . وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح فانه ترجمانه ورسوله . وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به عند سمعه وبصره الذى يبصر به وبطشه ومشيه بقوله « كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشي بها » تحقيقاً لكونه مع عبده وكون عبده فى ادراكاته بسمعه وبصره وحركته بيده ورجله . وتأمل كيف قال « بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش » ولم يقل : لي يسمع ولي يبصر ولي يبطش، وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع إذ هى أدل على الغاية ووقوع هذه الامور لله وذلك أخص من وقوعها به . وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة. فإن حركات الابرار والفجار وإدراكاتهم إنما هي بمعونة الله لهم وان الباء ههنا للمصاحبة فالمعنى إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه ومعه كقوله فى الحديث الآخر « أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » وهذه المعية هي المعية الخاصة المذكورة فى قوله تعالى (١) (إن الله معنا) وقول النبي ﷺ « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » وقوله تعالى (٢) (وإن الله لمع المحسنين) وقوله (٣) (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقوله (٤) (واصبروا إن الله مع

(١) سورة التوبة (٢) سورة العنكبوت (٣) سورة النحل (٤) سورة الانفال

الصابرين) وقوله (١) (كلا إن معي ربي سيهدين) وقوله تعالى لموسي وهارون (٢) (إنني معكما أسمع وأرى) فهذه الباء مفيدة معنى المعية دون اللام ولا يأتي للعبد الاخلاص والصبر والتوكل ونزوله فى منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية ، فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت المخاوف فى حقه أمانا، فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ويقرب كل بعيد ، وبالله تزول الاحزان والهموم والغموم ، فلا هم مع الله ولا غم مع الله ولا حزن مع الله ، وحيث يفوت العبد معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود اليه . ولما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالى فى محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه . ومطالبه فقال « ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه» أي كما وافقنى في مرادي بامتثال أوامرى والتقرب الي بمحابى فأنا أوافقه فى رغبته ورهبته فيما يسئلنى أن أفعل به ويستعيذنى أن يناله مكروه . وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته ، فمن هذه الجهة تقتضي انه لايميته ولكن مصلحته في إماتته فانه ماأماته الا ليحييه ، وما أمرضه الا ليصلحه وماأفقره الا ليغنيه ، وما منعه الا ليعطيه ، ولم يخرج من الجنة في صلب أبيه الا ليعيده اليها على أحسن الاحوال ولم يقل لأبيه (اخرج منها) الا ليعيده اليها ، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لاسواه . بل لو كان في كل منبت شعرة من العبد

(١) في سورة الشعراء (٢) فى سورة طه

محبة تامة لله لكان بعض ما يستحته علي عبده

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الارض يألفه الفتى   وحنينه أبدا لاول منزل

فصل

ثم التتيم وهو آخر مراتب الحب وهو تعبد المحب لمحبوبه يقال تيمه الحب إذا عبده ، ومنه تيم الله أى عبد الله . وحقيقة التعبد الذل والخضوع للمحبوب، ومنه قولهم طريق معبد أى مذلل قد ذللته الاقدام، فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبوبه ، ولهذا كان أشرف أحوال العبد ومقاماته فى العبودية . فلا منزل له أشرف منها . وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم اليه وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته وهي مقام الدعوة اليه ومقام التحدى بالنبوة ومقام الاسراء فقال سبحانه(١) (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا (٢)) وقال (٣) (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وقال (٤) (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى) وفى حديث الشفاعة « اذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم : عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » فقال

(١) في سورة الجن (٢) يقول كادو، يكونون عليه جماعات بعضها فوق بعض (٣) في سورة البقرة (٤) فى سورة الاسراء

مقام الشفاعة بكمال عبوديته وكمال مغفرة الله له . والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لاشريك له ، التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل. وهذا هو حقيقة الاسلام وملة ابراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى (١) (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه — الآية) ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك . والله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء

وأصل الشرك بالله الاشراك مع الله فى المحبة كما قال تعالى (٢) (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه فيتخذ الأنداد من دونه . يحبهم كحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لاندادهم . وقيل : بل المعنى أنهم أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لله فانهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين اندادهم فى المحبة ضعفت محبتهم لله ، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك . والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو فى هذه المحبة . ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شفيعا غاية الانكار، وجمع ذلك تارة وأفرد أحدهما عن الآخر تارة بالانكار . فقال تعالى (٣) (إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر مامن شفيع الا من بعد إذنه) وقال تعالى (٤) (الله الذى خلق السموات والارض

(١و٢) في سورة البقرة (٣) في سورة يونس (٤) في سورة الم السجدة

وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) وقال تعالى (١) (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) وقال في الافراد (٢) (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً) وقال تعالى (٣) (من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم) فاذا والى العبد ربه وحده واتخذه له ولياً من (دون أن يتخذ اولياء الذين يسموا) شفعاء وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله . بخلاف من اتخذ المخلوقين أولياء من دون الله . فهذا لون وذاك لون والشفاعة الشركية الباطلة لون والشفاعة الحق الثابتة التي انما تنال بالتوحيد لون . وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

والمقصود ان حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الاشراك بالله في المحبة . بخلاف المحبة لله فانها من لوازم العبودية وموجباتها . فان محبة رسول الله ﷺ بل تقديمه في الحب على الانفس وعلى الآباء والابناء لا يتم الايمان إلا بها . إذ محبته من محبة الله. وكذلك كل حب في الله ولله كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان — وفي لفظ في الصحيحين — لا يجد عبد طعم الايمان الا من كان في قلبه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب اليه

(١) في سورة الانعام (٢) في سورة الزمر (٣) في سورة الجاثية

مما سواهما . وأن يحب المرء لايحبه الا الله . وأن يكره أن يرجع الى الـكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار» وفي الحديث الذى في السنن«من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان » وفي حديث آخر « ما تحاب رجلان فى الله الا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه » فان هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها وكلما كانت أقوى كان أصلها كـذلك

فصل

وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها . وإنما ضل من ضل بعدم التميز بينها : (أحدها) محبة الله . ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه . فان المشركين وعبـاد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله . (الثاني) محبة ما يحب الله . وهذه هى التي تدخله فى الاسلام وتخرجه من الـكفر . وأحب الناس الى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها . (الثالث) الحب لله وفيه ، وهي من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة ما يحب الله الا بالحب فيه وله . (الرابع) المحبة مع الله وهى المحبـة الشركية ، وكل من أحب شيئاً مع الله لا لله ولا من أجله ولا فيه فقد اتخذه نداً من دون الله ، وهذه محبة المشركين . وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيـه وهي المحبة الطبيعية . وهي ميل الانسان الى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء والجائع للطعـام ومحبة النوم والزوجة والولد ، فتلك لا تذم الا إن ألهت عن ذكر الله وشغلتـه عن محبته كما

قال تعالى (١) (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) وقال تعالى (٢) (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)

فصل

ثم الخلة (٣) وهى تتضمن كمال المحبة ونهايتها بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجه ، وهذا المنصب خاصة الخليلين صلوات الله وسلامه عليهما : ابراهيم ومحمد كما قال ﷺ « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا » وفى الصحيح عنه ﷺ « لو كنت متخذاً من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن صاحبكم خليل الله » وفى حديث آخر « اني أبرأ الى كل خليل من خلته ». ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه فتعلق حبه بقلبه فأخذ منه شعبة غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبحه ، وكان الأمر فى منامه ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحانا . ولم يكن المقصود ذبح الولد ، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب . فلما بادر الخليل عليه الصلاة والسلام الى الامتثال وقدم محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدي بذبح عظيم ، فان الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً ، بل لابد أن يبقي بعضه أو

---

(١) في سورة المنافقون (٢) في سورة النور (٣) الخلة بضم الخاء المحبة والصداقة التي تخللت القلب

بدله كما أبقي شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة (١) وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها وقال« لايبدل القول لدي ، خمس فى الفعل وخمسون فى الاجر »

فصل

واما مايظنه بعض الظانين أن المحبة أكمل من الخلة وان ابراهيم خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله فمن جهله ، فان المحبة عامة والخلة خاصة . والخلة نهاية المحبة وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع اخباره . بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر ابن الخطاب وغيرهم . وأيضاً فان الله سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين . وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة السلام . والشاب التائب حبيب الله . وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ

فصل

وقد تقدم أن العبد لايترك مايحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه . ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة . كما أنه يفعل مايكره لحصول مامحبته أقوى عنده من كراهة مايفعله والخلاص من مكروه كراهته عنده أقوى

---

(١) التى كان مأموراً بها فى قوله تعالى فى سورة المجادلة « يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجوا كم صدقة الخ »

من كراهة ما يفعله . وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما وأيسر المكروهين على أقواهما . وتقدم أن هذا كمال قوة الحب والبغض. ولم يتم له هذا إلا بأمرين : قوة الادراك ، وشجاعة القلب . فان التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الادراك بحيث إنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ماهو عليه ، وإما لضعف النفس وعجز في القلب بحيث لا يطاوعه على إيثار الأصلح له مع علمه بأنه الأصلح .فاذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع القلب على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى فقد وافق أسباب السعادة . فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه ، فيقهر الغالب الضعيف . ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته . وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ويقدم شهوته على عقله . وتسميه الاطباء : عديم المروة (١) فهكذا أكثر مرضى القلب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوته له . فأصل الشر من ضعف الادراك وضعف النفس ودناءتها . وأصل الخير من كمال الادراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها . فالحب والارادة أصل كل فعل ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه . وهاتان القوتان في القلب أصل سعادته وشقاوته ، ووجود العقل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والارادة . وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضاه وسببه، وتارة يكون بوجود البغض والكراهة المانعة منه . وهذا متعلق الامر والنهي وهو

(١) المروة بدون همز الواو أي عديم قوة الارادة

يسمى الكف ، وهو متعلق الثواب والعقاب . وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك،هل هو أمر وجودي اوعدمي؟ والتحقيق أنهما قسمان . فالترك المضاف الى عدم السبب المقتضي عدمي ، والمضاف الى السبب المانع من الفعل وجودي

فصل

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين فانما يؤثره الحي لما فيه من الحصول والمنفعة التي يلتذ بحصولها أوزوال الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله ، ولهذا يقال : شفاء صدره وشفاء قلبه ؛ قال :

هي الشفاء لداء لوظفرت بها * وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل ، حتى الحيوان البهيم . ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحا فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم ، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها. ويشفي قلبه بما يعقب عليه غاية المرض ، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب، وخاصة العقل. النظر في العواقب، فأعقل الناس من آثر لذته نفسه وراحتها في الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة ، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء . قال بعض العلماء « فكرت في سعي العقلاء فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد ، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله ، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم

عن نفوسهم ، فهذا فى الأكل والشرب ، وهذا فى التجارة والكسب ، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والاصوات المطربة. وهذا باللهو واللعب. فقلت : هذا المطلوب مطلوب العقلاء ولكن الطرق كلها غير موصلة اليه بل لعل أكثرها إنما يوصل الى ضده وان كان أكثرها إنما بقصد الاقبال على الله وحده ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء ، ولم أر فى جميع هذه الطرق طريقاً موصلا إليه [الا طريقاً واحداً منها وهو طريق الانبياء والمرسلين الذين بعثهم الله لهداية الناس الى طريقه المستقيم (١)] فان سالك هذا الطريق ان فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه وإن حصل للعبد حصل له كل شيء ، وان فاته فاته كل شيء ، وان ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه ، فليس للعبد أنفع من هذا الطريق ولا أوصل منه الى لذته وبهجته وسعادته . وبالله التوفيق

فصل

المحبوب قسمان: محبوب لنفسه . ومحبوب لغيره، ولابد أن ينتهى الى المحبوب لنفسه دفعاً للتسلسل المحال . وكل ماسوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره ، وليس شيء يحب لنفسه الا الله وحده ، وكل ما سواه مما يحب

(١) مابين المربعين ليس فى الاصل وكمل بما يقتضيه المقام فان الكلام كان ناقصاً ومشوشا

فأما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فانها تبع لمحبة الله سبحانه . وهي من لوازم محبته فان محبة المحبوب توجب محبة مايحبه . وهذا موضع يجب الاعتناء به فانه محل فرقان بين المحبة النافعة والتي لاتنفع بل قد تضر. واعلم أنه لايحب لذاته الا من كماله من لوازم ذاته ، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته ، وما سواه فانما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها : فما كان أشد منافاة لمحابه ، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والارادات وغيرها . فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته . فاذا رأينا شخصاً يحب مايكرهه الرب تعالى ويكره مايحبه علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك ، وإذا رأينا الشخص يحب مايحبه الرب ويكره مايكرهه ، وكلما كان الشيء أحب الى الرب كان أحب اليه وآثر عنده ، وكلما كان أبغض اليه كان أبغض اليه وأبعد منه ، علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك . فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك فى نفسك وفى غيرك ، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد فى محابه ومساخطه ، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة

والمحبوب لغيره قسمان أيضاً : أحدهما مايلتذ المحب بادراكه وحصوله ، والثاني ماينألم به ولكن يحتمله لافضائه الى المحبوب ، كشرب الدواء ، قال تعالى (١) (كتب عليكم القتال وهو كره لكم

---

(١) فى سورة البقرة

وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون) فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لافضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه ،والنفوس تحب الراحة والفراغ والرفاهية، وذلك شر لها لافضائه إلى فوات هذا المحبوب. فالعاقل لاينظر الى لذة المحبوب العاجلة فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه فان ذلك قد يكون شراً له ، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة ، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وإن كانت منقطعة . فالأمور أربعة : مكروه يوصل الى مكروه ، ومكروه يوصل الى محبوب ،ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل الى مكروه . فالمحبوب الموصل الى المحبوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين ، والمكروه الموصل الى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين . بقي القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان . فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها وهو العاجل والعقل والايمان يؤثران أنفعهما وابقاهما والقلب بين الداعيين وهو الى هذا مرة والى هذا مرة . وههنا محل الابتلاء شرعاً وقدراً ، فداعي العقل والايمان ينادي في كل وقت : حي على الفلاح . عند الصباح يحمد القوم السري (١) . وفي الممات يحمد العبد التقي . فان اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والارادة يقول : يانفس اصبري فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

---

(١) السري هو السير ليلا وهذا مثل يضرب لمجد الذي لايسمع لداعي الفتور

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة فانها تمنع كمال التصديق فهي معارضة لأصل الايمان أو مضعفة له. فان قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفراً أو شركاً أكبر وإن لم تعارضه قدحت في كماله وأثرت فيه ضعفاً وفتوراً في العزيمة والطلب، وهي تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكي الراغب. فلا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه(١) (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فانهم عدو لي إلا رب العالمين) فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فان ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى (٢) (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله. كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال تعالى (٣) (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون) أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم

(١) في سورة الشعراء (٢) في سورة الممتحنة (٣) في سورة الزخرف

بعضهم عن بعض وهي كلمة : لا إله إلا الله . وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه الى يوم القيامة . وهي الكلمة التى قامت بها الأرض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد . وهي محض حق الله على جميع العباد ، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية فى هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهي المنشور الذي لايدخل أحد الجنة إلا به والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه ، وهى كلمة الاسلام ومفتاح دار السلام . وبها انقسم الناس الى شقي وسعيد ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار السلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان ، وهى العمود الحامل للفرض والسنة « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وروح هذه الكلمة وسرها إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره بالمحبة والاجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والانابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه . بل كل ما كان يحب غيره فانما هو تبعاً لمحبته وكونه وسيلة الى زيادة محبته ولا يخاف سواه ولا يرجو سواه . ولا يتوكل إلا عليه . ولا يرغب إلا اليه . ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا اليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يحتسب إلا به ، ولا يستعان فى الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا اليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا يذبح إلا له وباسمه . يجتمع ذلك فى حرف واحد وهو : أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو . فهذا

هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذ حرم الله على النار أن تأكل من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى(١) (والذين هم بشهاداتهم قائمون) فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره وفى قلبه وقالبه، فان من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون الى القيام أقرب. وهي فى القلب بمنزلة الروح فى البدن، فروح ميتة وروح مريضة الى الموت أقرب، وروح الى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن. وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت الا وجدت روحه لها روحا» فحياة هذا الروح بهذه الكلمة فكما ان حياة البدن بوجود الروح فيه وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب فى جنة المأوى وعيشها أطيب عيش، قال تعالى (٢) (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق الى لقائه والفرح به والرضى عنه وبه مأوى روحه فى هذه الدار. فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانا. والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا، والفجار فى جحيم وان اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى (٣) (من عمل

---

(١) في سورة المعارج (٢) فى سوره والنازعات (٣) في سورة النحل

صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةطيبة) وطيب الحياة جنة الدنيا ، قال تعالى (١) (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) فأي نعيم أطيب من شرح الصدر ، وأي عذاب أشد من ضيق الصدر ، وقال تعالى (٢) (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالا وأشرحهم صدراً وأسرهم قلباً، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة . قال النبي ﷺ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا وما رياض الجنة ؟ قال « حلق الذكر » ومن هذا قوله ﷺ « مابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » ومن هذا قوله ، وقد سألوه عن وصاله (٣) في الصوم وقال « إني لست كهيئتكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني » فأخبر ﷺ أن مايحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي، وأن مايحصل له من ذلك أمر مختص به لايشركه فيه غيره ، فاذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغنى عنه كما قيل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادي

---

(١) في سور الأنعام (٢) في سورة يونس (٣) الوصال هو أن يصوم أياما من غير أن يتناول شيئاً من الطعام لافطوراً ولاسحوراً وهو منهي عنه

إذا اشتكت من كلال السير أوعدها روح اللقاء فتحيي عند ميعاد

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد ، وكلما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شيء على الاطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره. وتنعمه بحبه ، و إيثاره لمرضاته. بل لاحياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة الا بذلك . فعدمه آلم شيء له وأشد عذاباً عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستغراقها فى ذلك الغير فتغيب به عن شهود ماهي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء اليها وأنفعها لها ، وهذا بمنزلة السكران المستغرق فى سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه فى السكر لايشعر بألم ذلك الفوات وحسرته ، حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والاشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها الى الله ، بل الالم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك ، فان المصاب فى الدنيا يرجو جبر مصيبته فى الدنيا بالعوض ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لابقاء له ، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه ولابدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعا فلو قضى الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به وان الموت ليعد أكبر أمنيته وأكبر حسراته ، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات ، كيف وهناك من العذاب علي الروح والبدن أمور أخرى وجودية مما لايقدر قدره ؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف

هـذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملها الجبال لو ... . فاعرض في نفسك الآن أعظم محبوب لك في الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت اليه، كيف يكون حالك هذا ومنه كل عوض ؟ فكيف بمن لا عوض عنه ؟ كما قيل :

من كل شيء اذا ضيعته عوض وما من الله ان ضيعته عوض

وفي الأثر الالهي « ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب . وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن آدم اطلبني تجدني فان وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء . وأنا أحب اليك من كل شيء »

فصل

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب مايذكر فيها في حق الله تعالى مايختص به ويليق به من أنواعها ولا يصلح الا له وحده مثل العبادة والانابة ونحوهما . فان العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وكذا الانابة . وقد ذكر (١) المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) (٢) وقوله تعالى (٣) (ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) وأعظم أنواع المحبة المذمومة المحبة مع الله التي

(١) وفي نسخة وقد تذكر (٢) في سورة المائدة (٣) في سورة البقرة

سوى (١) فيها المحب بين محبة الله (٢) ومحبته للند الذي اتخذه من دون الله (٣) وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده (٤) وهذه المحبة هى أصل السعادة ورأسها التى لاينجو أحد من العذاب الا بها . والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها التى لايبقى فى العذاب إلا أهلها، فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لاشريك له لايدخلون النار . ومن دخلها منهم بذنوبه فانه لايبقى فيها منهم أحد . ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها، وضرب الامثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص النوعين وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منهما (٥) واخباره عن فعله فى النوعين وعن حال النوعين فى الدور الثلاثة دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار . والقرآن جاء في شأن النوعين . وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إنما هى عبادة الله وحده لاشريك له المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له والاجلال والتعظيم . ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال« والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وفي صحيح البخاري (٦)عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يارسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال « لا ياعمر ، حتى أكون أحب اليك من نفسك » فقال : والذى

---

(١) في نسخة يستوي المحب فيها (٢) محبته (٣) من دونه (٤) ومحبة ما أحبه (٥) كليهما ٦) أن عمر

بعثك بالحق . لأنت أحب إلي من نفسي . (١) فقال « الآن يا عمر »
فاذا (٢) كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجوب تقديمها على محبة
النفس (٣) ووالده (٤) وولده والناس أجمعين ، فما الظن بمحبة مرسله
سبحانه وتعالى ووجوب تقديمها على محبة ماسواه ؟ ومحبة الرب تعالى
تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها . فان الواجب
له من ذلك كله أن يكون أحب الى العبد من ولده ووالده بل من
سمعه وبصره ونفسه التي (٥) بين جنبيه . فيكون إلهه الحق ومعبوده
أحب اليه من ذلك كله . والشيء قد يحب من وجه دون وجه . وقد
يحب لغيره . وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده .
ولا تصلح الالهية الا له و(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ٦ والتأله
هو المحبة والطاعة والخضوع

فصل

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة . فهي علتها الفاعلية
والغائية . وذلك لان الحركات ثلاثة أنواع : حركة اختيارية وإرادية . وحركة
طبيعية . وحركة قسرية . فالحركة الطبيعية أصلها السكون . وانما يتحرك
الجسم اذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي فهو يتحرك للعود اليه

---

١ قال ٢ اذا ٣ نفسه ٤ تقديم الولد ٥ بزيادة (هي) ٦ في سورة الانبياء

وخروجه عن مركزه ومستقره إنما يتحرك بتحرك القاسر المحرك له . فله حركة قسرية تكون بتحريك محركه وقاسره . وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود الى مركزه وكلا حركتيه تابع للمحرك القاسر . فهو أصل الحركتين . والحركة الاختيارية الارادية هي أصل الحركتين الآخرتين وهي تابعة للارادة والمحبة. فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والارادة . والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الارادية . وان لم يكن له شعور بها فاما أن يكون على وفق طبيعته الاولى، فالاولى هي الطبيعية والثانية هي القسرية . اذا فهمت هذا فما فى السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الاجنة فى بطون أمهاتها فانما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمراً والمقسمات أمراً . كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة فى غير موضع . والايمان بذلك من تمام الايمان بالملائكة فان الله وكل بالرحم ملائكة. وبالمطر ملائكة. وبالنبات ملائكة . وبالرياح ملائكة . وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم. ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة : كاتبين على يمينه وعلى شماله، وحافظين من بين يديه ومن خلفه . ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها الى مستقرها من الجنة أو النار . وملائكة بمسألته وامتحانه فى قبره وعذابه هناك أو نعيمه . وملائكة تسوقه الى المحشر إذا قام من قبره . وملائكة بتعذيبه فى النار أو نعيمه فى الجنة . ووكل بالجبال ملائكة وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أمرت به . وملائكة بالقطر تنزله

بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ، ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلاتها وفرشها وثيابها والقيام عليها . وملائكة بالنار كذلك . فأعظم جند الله الملائكة . ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره فليس لهم من الأمر شيء بل الامر كله لله . وهم يدبرون الامر ويقسمونه باذن الله وأمره، قال تعالي إخبارا عنهم (١) (وما نتنزل الا بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) وقال تعالى (٢) (وكم من ملك في السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً الامن بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لامره فى الخليقة كما قال تعالى (٣) (والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً) وقال (٤) (والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشرا فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً عذراً أو نذرا) وقال تعالي (٥) (والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً) وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الاقسام به فى كتاب (أقسام القرآن)

اذا عرف ذلك فجميع تلك الحركات والحركات والارادات والافعال هي عباداتهم لرب الارض والسموات وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها ، فلولا الحب مادارت الافلاك . ولاتحركت الكواكب النيرات . ولاهبت الرياح المسخرات . ولامرت السحاب الحاملات . ولاتحركت الأجنة في بطون الامهات . ولا انصدع عن الحب انواع

---

١ في سورة مريم ٢ فى سورة النجم ٣ فى سورة الصافات
٤ فيسورة والمرسلات ٥ في سورة والنازعات

النبات . ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ولا تحركت المدبرات والمقسمات . ولاسبحت بحمدفاطرها الارض والسموات ومافيها من انواع المخلوقات . فسبحان من تسبحه السموات والارض ومن فيهن (وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً)(١)

فصل

إذا عرف ذلك فكل حي له إرادة ومحبة وعمل يحسنه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والارادة . ولاصلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده كما لاوجود لها الا بابداعه وحده، ولهذا قال تعالى(٢)(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ولم يقل سبحانه لما وجدتا ولكانتا معدومتين ولاقال لعدمتا. اذ هو سبحانه قادر على أن يقيهما على وجه الفساد ، لكن لايمكن أن تكون على وجه الصلاح والاستقامة الا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما ، فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد ، فان كل إله يطلب مغالبة الآخر والعلو عليه وتفرده دونه بالالهية . اذ الشرك نقص في كمال الالهية والاله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهاً ناقصاً فان قهر أحدهما الآخر كان هو الاله وحده والمقهور ليس باله وان لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الالهية ، فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما

١ في سورة الاسراء ٢ في سورة الانبياء

وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما كما هو المعهود من فساد البلد اذا كان فيها ملكان متكافئان، وفساد الزوجة اذا كان لها بعلان والشول (١) إذا كان فيه فحلان . وأصل فساد العالم انما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء ، ولهذا لم تطمع أعداء الاسلام فيهم فى زمن من الأزمنة الا فى زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطلب بعضهم العلو على بعض . فصلاح السموات والارض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الادلة على انه لا إله الا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأن كل معبود من لدن عرشه الى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى . قال الله تعالى (٢) (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) وقال تعالى (٣) (أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لايسئل عما يفعل وهم يسئلون) وقال تعالى (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلا) (٤) قيل المعنى لابتغوا السبيل اليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض . ويدل عليه قوله فى الآية الاخري (ولعلا بعضهم على بعض) قال

---

١ هو تلقيح الانثى بالذكر لتحمل ٢ في سورة المؤمنون
٣ فى سورة الانبياء ٤ في سورة الاسراء

شيخنا رضي الله عنه : والصحيح أن المعنى لابتغوا اليه سبيلا بالتقرب اليه وطاعته . فكيف تعبدونهم من دونه ؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له .قال : ويدل على هذا وجوه : منها قوله تعالى (١) (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) أي هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما انتم عبادي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي . فلماذا تعبدونهم من دوني ؟ الثاني انه سبحانه لم يقل لا بتغوا عليه سبيلا بل قال(لا بتغوا اليه سبيلا) وهذا اللفظ إنما يستعمل في القرب كقوله تعالى (٢) (اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) وأما في المغالبة فانما يستعمل بعلى كقوله (٣) (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) الثالث أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه وهو سبحانه قال (قل لو كان معه آلهة كما يقولون) وهم إنما كانوا يقولون إن آلهتهم تبتغي التقرب اليه وتقربهم زلفى اليه قال :لو كان الامر كما تقولون لكانت تلك لآلهة عبيداً له فلماذا تعبدون عبيده من دونه

فصل

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت محمودة أو مذمومة نافعة أو ضارة: من الوجد. والذوق. والحلاوة. والشوق. والانس. والاتصال بالمحبوب. والقرب منه . والانفصال عنه . والبعد منه . والصد والهجران . والفرح والسرور . والبكاء والحزن . وغير ذلك من أحكامها

(١) في سورة الاسراء (٢) في سورة المائدة (٣) في سورة النساء

ولوازمها . والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته ، وهذه المحبة هي عنوان السعادة . وضدها هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته وهي عنوان الشقاوة . ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه . وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه ، فان النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها وذلك ظلم من الانسان لنفسه ، اما ان تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة . وهذا حال من اتبع هواه بغير علم ، واما عالمة بما في محبته من الضرر لكن تؤثر هواها على علمها . وقد تتركب محبتها من أمرين : من اعتقاد فاسد ، وهوى مذموم . وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الانفس . فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد وهوى غالب . أو ما تركب من ذلك فأعان بعضه بعضا فتتفق(١) شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب وشهوة تدعوه إلى وصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والايمان والغلبة لاقواهما اذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة لها حكم متبوعها . فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له حكمها حكم متبوعها ، فان بكى نفعه . وإن حزن نفعه . وإن فرح نفعه ، وإن انبسط نفعه . وإن انقبض نفعه فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة . والمحبة المضرة المذمومة وتوابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه ،

(١) تفقت السلعة أي راجت

كيفما تقلب فى آثارها ونزل فى منازلها فهو فى خسارة وبعد. وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة او معصية ، فكل ماتولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقرب ، وكل ما تولد من المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد . قال تعالى(١)(ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة(٢) فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) فأخبر سبحانه فى الآية الاولى أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح ، وأخبر فى الثانية أن أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها . والفرق بينهما أن الاول ليس من فعلهم وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح ، والثاني نفس أفعالهم فكتب لهم . فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه

سيعلم يوم العرض أي بضاعة * أضاع وعند الوزن ماكان حصلا

فصل

وكما أن المحبة والارادة أصل كل فعل كما تقدم فهي أصل كل دين سواء كان حقا أم باطلا ، فان الدين هو من الاعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والارادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق فهو الطاعة اللازمة الدائمة التى صارت خلقا وعادة ولهذا فسر الخلق بالدين

(١) في سورة التوبة (٢) النصب التعب والعناء . والمخمصة الجوع

فى قوله تعالى (١) (وإنك لعلى خلق عظيم) قال الامام أحمد عن ابن عيينة قال ابن عباس « لعلى دين عظيم » وسئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ فقالت « كان خلقه القرآن » والدين فيه معنى الاذلال والقهر وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة . فلذلك يكون من الاعلى الى الاسفل كما يقال دنته فادان أي قهرته فذل ، قال الشاعر :

هو أدنى الزمان أذكر هذا الدين فاصبحوا بغرة وصيان

ويكون من الادنى الى الاعلى كما يقال: دنت الله ودنت لله ، وفلان لا يدين الله ديناً ولا يدين الله بدين . فدان الله أى أطاع الله وأحبه واخافه ودان لله أي خشع له وخضع وذل وانقاد . والدين الباطن لا بد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل فى الظاهر ، وسمى الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لانه اليوم الذى يدين فيه الناس بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال تعالي (٢) (فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) أى هلا تردون الروح الى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين . وهذه الآية تحتاج الى تفسير فانها سيقت للاحتجاج عليهم فى انكارهم البعث والحساب ولا بد ان يكون الدليل مستلزماً لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه الى المدلول لما بينهما من التلازم فيكون الملزوم دليلاً على لازمه ولا يجب العكس . ووجه الاستدلال أنهم إذا أنكروا البعث

(١) فى سورة القلم (٢) في سورة الواقعة

والجزاء فقد كفروا بربهم وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته ، فاما أن يقروا بأن لهم رباً قاهراً متصرفا فيهم ، يميتهم إذا شاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم . ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم، واما ألا يقروا برب هذا شأنه . فان أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به . فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد . فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم وعلى رد الروح الى مستقرها إذا بلغت الحلقوم . وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته . أي فهلا يردون الروح الى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف وليسوا بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضي عليهم أحكامه وينفذ فيهم أوامره ، وهذه غاية التعجيز لهم إذ تبين عجزهم عن رد نفس واحدة الى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان . فيالها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم

والدين دينان: دين شرعي أمري ودين حسابي جزائي وكلاهما لله وحده.فالدين كله أمراً أو جزاء للمحبة أصل كل واحد من الدينين فان ماشرعه الله وأمر به فانه يحبه ويرضاه وما نهى عنه فانه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه فهو يحب ضده . فعاد دينه الأمري كله الى محبته ورضاه . ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى كما قال النبي ﷺ « ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولاً »وهذا الدين قائم بالمحبة وبها شرع ، ولأجلها شرع ، وعليها أسس . وكذلك دينه الجزائي

فانه يتضمن مجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته . وكل من الامرين محبوب للرب فانهما عدله وفضله . وكلاهما من صفات كماله وهو سبحانه يحب صفاته وأسمائه ويحب من يحبها . وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليه . فهو سبحانه على صراط مستقيم فى أمره ونهيه وثوابه وعقابه، كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه السلام إذ قال لقومه (١) (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) ولما علم نبى الله أن ربه على صراط مستقيم فى خلقه وأمره وثوابه وعقابه وقضائه وقدره ومنعه وعطائه وعافيته وبلائه وتوفيقه وخذلانه ، لايخرج فى ذلك عن موجب كماله المقدس الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والاحسان والفضل ووضع الثواب فى مواضعه والعقوبة فى موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والاضلال كل ذلك فى أماكنه ومحاله اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء أوجب له ذلك العلم والعرفان إذا نادى على رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه —الآية) ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ماسواه وذل كل شيء لعظمته فقال (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره وهو فى قبضته

---

(١) في سورة هود

وتحت قهره وسلطانه دونه، وهل هذا الأمر الا من أجهل الجهل وأقبح الظلم؟ ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم، فكل مايقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه ، فلا أخاف مادونه فان ناصيته بيده، ولا أخاف جوره وظلمه فانه على صراط مستقيم . وهو سبحانه ماض فى عبده حكمه عدل فيه قضاؤه ، له الملك وله الحمد ، لايخرج فى تصرفه في عباده عن العدل والفضل ، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته ، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته . وهو على صراط مستقيم فى هذا وهذا . وفى الحديث الصحيح « ماأصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك . ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضائك . أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت بهفى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء همي وحزنى وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله فرجا مكانه » وهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمري والقضاء الذى يكون باختيار العبد وبغير اختياره ، وكلا الحكمين ماض في عبده وكلا القضائين عدل فيه . فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما اقرب نسب . وبالله التوفيق

فصل

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة

والآجلة وإن كانت أضعاف مايذكره ذاكر ، فانه يفسد القلب بالذات وإذا فسد فسدت الارادات والاقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيدكما تقدم وسنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى . والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء ، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار اليها يوسف بصبره وعفته وتقواه . مع أن الذى ابتلي به أمر لايصبر عليه إلا من صبره الله عليه ، فان موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع ، وكان الداعي هاهنا فى غاية القوة وذلك لوجوه (أحدها) ماركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله الى المرأة كما يميل العطشان الى الماء والجائع الى الطعام حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشرب ولا يصبر عن النساء وهذا لايذم اذا صادف حلالا بل يحمد كما فى كتاب الزهد للامام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي ﷺ «حبب الي من دنياكم الطيب والنساء ، أصبر عن الطعام والشراب ولاأصبر عنهن» (الثاني) أن يوسف عليه السلام كان شابا وشهوة الشاب وحدته أقوى (الثالث) أنه كان عزبا لازوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة (الرابع) أنه كان فى بلاد غربة لايتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما يتأتى لغيره في وطنه وأهله ومعارفه (الخامس) أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو الى موافقتها (السادس) أنها غير آبية ولا ممتنعة فان كثيراً من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها لما يجد فى نفسه من ذل النفس والخضوع

والسؤال لها وكثير من الناس يزيده الاباء والامتناع زيادة حب كما قال الشاعـــر :

وزادني كلفا في الحب أن منعت * أحب شيء الى الانسان مامنعا

فطباع الناس مختلفة في ذلك ، فمنهم من يتضاعف حبه عنـد بذل المرأة ورغبتها وتضمحل عند إبائها وامتناعها ، وأخبرني بعض القضاة ان إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع زوجته أو سريته وإبائها بحيث لا يعاودها ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ويشتد شوقه بكل ما منع ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصـل من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره واللذة بادراك المسئلة بعـد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها (السابع) أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة اليها بل كانت هي الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب اليه (الثامن) أنه في دارها وتحت سلطـانها وقهرها بحيث يخشى إن لم يطاوعهـا من اذاها له ، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة (التاسع) أنه لا يخشى أن تنم عـليه هي ولا أحد من جهتها فانها هي الطالبة والراغبة وقـد غلقت الابواب وغيبت الرقباء (العاشر) أنه كان مملوكا لها في الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينـكر عليه وكان الأنس سابقاً على الطلب وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب : ماحملك على الزنا ؟ قالت : قرب الوساد وطول السواد . تعني قرب وساد الرجل من وسادتي وطـول السواد بيننا (الحادي عشر) أنها استعانت عليه بأئمـة المكر والاحتيال فأرته إياهن وشكت حالها اليهن لتستعين بهن عـليه

فاستعان هو بالله عليهن فقال (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) (الثاني عشر) أنها توعدته بالسجن والصغار وهذا نوع إكراه إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار (الثالث عشر) أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف (أعرض عن هذا) وللمرأة (إستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع وهنا لم يظهر منه غيرة. ومع هذه الدواعى كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا فقال (رب السجن أحب الي مما يدعونني إليه) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه وان ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا اليهن بطبعه وكان من الجاهلين. وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه. وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة. لعلنا إن وفقنا الله أن نفردها في مصنف مستقل

فصل

والطائفة الثانية الذين حكى الله عنهم العشق هم اللوطية كما قال تعالى(١) (وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون. قالوا أولم ننهك عن العالمين؟ قال هؤلاء بناتي

(١) في سورة الحجر

إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) فهـذا من العشق فحكاه سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ماحرم عليه من الصور ، ولم يبال بما فى عشقه من الضرر . وهـذا داء أعيي الاطباء دواؤه وعز عليهم شفاؤه ، وهو والله الداء المضال والسم القتال الذي ماعلق بقلب الاوعز على الورى إستنقاذه من إساره ، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلاوصعب على الخلق تخليصها من ناره . وهو أقسام : تارة يكون كفرا كمن اتخذ معشوقه ندا يحبه كما يحب الله . فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله فى قلبه ؟ فهـذا عشق لايغفر لصاحبـه فانه من أعظم الشرك . والله لايغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة الماحية مادون ذلك . وعلامة هـذا العشق الشركي الكفري أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه وإذا تعارض عنده حق معشوقـه وحقه وطاعـة ربه وطاعته قـدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاه على رضاه وبذل لمعشوقه أنفس مايقدر عليه وبذل لربه — إن بذل — أردأ ماعنده ، واستفرغ وسعه فى مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب اليه ، وجعل لربه — إن أطاعه — الفضلة التى تفضل عن معشوقه من ساعاته . فتأمل حال أكثر عشاق الصور . هل تجدها إلامطابقة لذلك؟ثم ضع حالهم فى كفة ، وتوحيدهم فى كفة وإيمانهم فى كفة ،ثم زن وزنا يرضي الله ورسوله ويطابق العدل. وربما صرح العاشق منهم بان وصل معشوقه أحب اليه من توحيد ربه كما قال العاشق الخبيث :

يترشفن من فمي رشفات * هن أحلى فيه من توحيد

وكما صرح الخبيث الآخر بان وصل معشوقه أشهى اليه من رحمة ربه

فعياذا بك اللهم من هذا الخذلان ، ومن هذا الحال قال الشاعر :

وصلك أشهى الي فؤادي * من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك ، وكثير من العشاق يصرح بانه لم يبق فى قلبه موضع لغير معشوقه ألبتة . بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله فصار عبداً مخلصاً من كل وجه لمعشوقه فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبوديته لمخلوق مثله ، فان العبودية هي كمال الحب والخضوع ،وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية . ولا نسبة بين مفسدة هذا الامر العظيم ومفسدة الفاحشة ، فان تلك ذنب كبير لفاعله حكمه حكم امثاله ، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك . وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لأن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب الي من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله

فصل

ودواء هذا الداء القتال أن يعرف أن ما ابتلي به من الداء مضاد للتوحيد أولا ، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه ويكثر اللجأ والتضرع الى الله سبحانه فى صرف ذلك عنه وان يرجع بقلبه اليه . وليس له دواء أنفع من الاخلاص لله وهو الدواء الذي ذكره الله فى كتابه حيث قال (١) (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء

---

(١) في سورة يوسف

إنه من من عبادنا المخلصين) فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل باخلاصه ، فان القلب اذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فانه انما تمكن من قلب فارغ كما قال :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع قد يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها فاذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران : أمر علمى ، وأمر عملى . فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفى المصلحة والمفسدة ، فاذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الأصلح له . ومن المعلوم أنه ليس فى عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية ، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف مايقدر فيه من المصلحة ، وذلك من وجوه (أحدها) الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما صاحبه ويكون السلطان والغلبة له (الثاني) عذاب قلبه بمعشوقه فان من أحب شيئاً غير الله عذب به ولابد ، كما قيل :

فما في الارض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكياً فى كل حين * مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكى ان نأوا شوقاً اليهم * ويبكي ان دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند الفراق * وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وان استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب (الثالث) ان العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان ولكن لسكرة العشق

لا يشعر بمصابه فقلبه كالعصفورة فى كف الطفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب ، فيعيش العاشق عيش الاسير الموثق ويعيش الخلي عيش المسيب المطلق، والعاشق كما قيل :

طليق برأي العين وهو أسير ۞ عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يرى فى صورة الحي غاديا ۞ وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه ۞ فليس له حتى المات حضور

(الرابع) انه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور . اما مصالح الدين فانها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله وعشق الصور أعظم شيء تشعيبا وتشتيتا له. وأما مصالح الدنيا فهى تابعة في الحقيقة لمصالح الدين فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه. فمصالح دنياه أضيع وأضيع (الخامس) ان آفات الدنيا والآخرة أسرع الى عشاق الصور من النار فى يابس الحطب ، وسبب ذلك أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بعد من الله ، فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور واذا بعد القلب من الله طرقته الآفات من كل ناحية فان الشيطان يتولاه ، ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يأله وبالا (١) ولم يدع أذى يمكنه إيصاله اليه إلا أوصله ، فما الظن من قلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على عيبه وفساده وبعده من وليه ومن لا سعادة له ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته ؟

(السادس) أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه أفسد

(١) أى لم يقصر في ايصال أنواع الهلاك اليه

الذهن وأحدث الوساوس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها . وأخبار العشاق فى ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها يشاهد بالعيان ، وأشرف ما في الانسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات فاذا عدم عقله التحق بالبهائم ، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله ، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا العشق وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم   العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه   وإنما يصرع المجنون بالحين

(السابع) أنه ربما أفسد الحواس أو أنقصها إما إفساداً معنوياً أو صورياً ، أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب فان القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعاً « حبك الشيء يعمي ويصم » فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوي المحبوب وعيوبه فلا ترى العين ذلك ويصم أذنه عن الاصغاء الى العذل فيه فلا تسمع الأذن ذلك ، والرغبات تستر العيوب فان الراغب في شيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه . فشدة الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو عليه كما قيل :

هويتك إذ عيني عليها غشاوة   فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

والداخل فى الشيء لا يرى عيوبه والخارج منه الذى لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه . ولهذا

كان الصحابة الذين دخلوا فى الاسلام بعد الكفر خير من الذين ولدوا فى الاسلام . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « إنما ينتقض عرى الاسلام عروة عروة إذا ولد فى الاسلام من لا يعرف الجاهلية » وأما إفساده للحواس ظاهراً فانه يمرض البدن وينهكه وربما أدى الى تلفه كما هو المعروف فى اخبار من قتله العشق . وقد رفع الى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلداً على عظم فقال : ما شأن هذا؟ قالوا به العشق فجعل ابن عباس يتعيذ بالله من العشق عامة يومه (الثامن) أن العشق كما تقدم هو الافراط في المحبة بحيث يستولى المعشوق على القلب من العاشق حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه ، فعند ذلك تشتغل النفس بالخواطر النفسانية فتتعطل تلك القوى فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعسر دواؤه ويتعذر فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ويختل جميع ذلك فيعجز البشر عن صلاحه كما قيل :

الحب أول ما يكون لجاجة يأتي بها وتسوقه الاقدار
حتى اذا خاض الفتى لجج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم ، وآخره عطب وقتل ان لم تتداركه عناية من الله ، كما قيل :

وعش خالياً فالحب أوله عناً وأوسطه سقم وآخره قتل

وقال آخر :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق

والذنب له فهو الجاني على نفسه ، وقد قعد تحت المثل السائر (يداك أوكتا وفوك نفخ) (١)

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء ، ومقام توسط ، ومقام انتهاء فأما مقام ابتدائه فالواجب عليه مدافعته بكل مايقدر عليه اذا كان الوصول الى معشوقه متعذرا قدراً وشرعاً . فان عجز عن ذلك وأبى قلبه الا السفر الى محبوبه وهذا مقام التوسط والانتهاء فعليه كتمان ذلك وأن لا يفشيه الى الخلق ولا يشمت بمحبوبه ولا يهتكه بين الناس فيجمع بين الظلم والشرك . فان الظلم فى هذا الباب من أعظم أنواع الظلم . وربما كان أعظم ضرراً على المعشوق وأهله من ظلمه فى ماله فانه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه الى وقوع الناس فيه وانقسامهم الى مصدق ومكذب . وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة واذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون وخبر العاشق المتهتك عن غير المتهتك عند الناس فى هذا الباب يفيد القطع

(١) هذا مثل وأصله ان رجلا كان في جزيرة من جزائر البحر فأراد أن يعبر على زق قد نفخ فيه فلم يحسن احكامه حتى اذا توسط البحر خرجت منه الريح فغرق فلما غشيه الموت استغاث برجل فقال له « يداك اوكتا وفوك نفخ » يضرب لمن يجني على نفسه . وأوكي القربة أي ربطها

واليقين بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذباً وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزماً لا يحتمل النقيض. بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقا جزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما، وجزمهم فى هذا الباب على الظنون والتخييل والشبهة والاوهام والاخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة. وبذلك وقع أهل الافك فى الطيبة المطيبة، حبيبة رسول الله ﷺ، المبرأة من فوق سبع سموات بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك. ولولا أن تولى الله سبحانه براءتها والنب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمراً آخر. والمقصود أن فى اظهار المبتلى عشق من لايحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه فان استعان عليه بمن يستميله اليه إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر وصار ذلك الواسطة ديوثاً ظالماً، واذا كان النبي ﷺ قد لعن الرائش وهو الواسطة بين الراشي والمرتشى لايصال الرشوة فما الظن بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق فى الوصلة المحرمة؟ فيساعد العاشق على ظلم المعشوق مع غيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه فى نفس أو مال أو عرض فان كثيراً ما يتوقف حصول غرضه المطلوب على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه. وكم قتيل طل دمه[1] بهذا السبب من زوج وسيد وقريب، وكم خبثت امرأة على بعلها وجارية وعبد على

---

(١) طل دمه أي أهدر فلم يقتص به ولم تؤخذ له دية

سيدها . وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك وتبرأ منه . وهو من أكبر الكبائر ، وإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه وان يسوم على سومه ، فكيف بمن يسعى بالتفريق بينه وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما ؟ وعشاق الصور ومساعدوهم من الديثة (١) لا يرون ذلك ذنباً ، فان في طلب العاشق وصل معشوقه مشاركة الزوج والسيد ففي ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة إن لم يرب عليها . ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة ، فان التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة . فان من ظلم الوالد بافساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه ، وظلم الزوج بافساد حبيبته والجناية على فراشه أعظم ممن ظلمه بأخذ ماله كله . ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله . ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه . فياله من ظلم أعظم إثماً من فعل الفاحشة . فان كان ذلك حقاً لغاز في سبيل الله أوقف له الجاني الفاعل يوم القيامة وقيل له «خذ من حسناته ما شئت» كما أخبر بذلك النبي ﷺ ثم قال ﷺ «فما ظنكم؟» أي فما تظنون يبقى له من حسناته ، فان انضاف الى ذلك أن يكون المظلوم جاراً أو ذا رحم محرم تعدد الظلم وصار ظلماً مؤكداً لقطيعة الرحم وأذى الجار . ولا يدخل الجنة قاطع رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه (٢) . فان استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين الجن إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك ضم الى الشرك والظلم كفر السحر . فان لم يفعله هو ورضي به

(١) الديثة بفتح الدال والياء (٢) أي غوائله وشروره جمع بائقة وهي الداهية

كان راضياً بالكفر غير كاره له لحصول مقصوده . وهذا ليس ببعيد من الكفر . والمقصود أن التعاون فى هذا الباب تعاون على الاثم والعدوان. وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره فأمر لا يخفى ، فانه اذا حصل له مقصوده من المعشوق فللمعشوق أمور أخرى يريد من العاشق إعانته عليها فلا يجد من إعانته بداً فيبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان . فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من اتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه ، والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفاً على ظلمه . فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التى يكون فيها ظلم الناس : فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما فى القبح لتعاونهما بذلك على الظلم . وكما جرت به العادة بين العاشق والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبغي حتى ربما يسعى له فى منصب لا يليق به ولا يصلح مثله فى تحصيل مال من غير حله وفى استطالته على غيره. فاذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا فى جانب المعشوق ظالماً كان أو مظلوماً هذا الى ما ينضم الى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم والتوصل بها الى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك . وربما أدى ذلك الى قتل النفس التى حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه .فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ عن عشق الصور ، وربما حمله على الكفر الصريح . وقد تنصر جماعة ممن نشئوا فى الاسلام بسبب العشق ، كما جرى لبعض

المؤذنين حين أبصر وهو على سطح مسجد امرأة جميلة ففتن بها ونزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت : هى نصرانيـة فان دخلت فى دينى تزوجت بك،ففعل،فرقى فى ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات ذكر هذا عبد الحق فى كتاب العاقبة له . وإذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه فى نفسها حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها ان دخل فى دينها . فهنالك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء . وفى العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبـه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه لنفسه فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه وظلمهما متعد الى الغير كما تقدم ، وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها والمعشوق إذا لم يتق الله فانه يعرض العاشق للتلف وذلك ظلم منـه بان يطمعه فى نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منـه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه فهو يسومه سوء العـذاب . والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفي نفسه منه ولا سيما إذا جاد بالوصال لغيره . وكم للعشق من قتيـل من الجانبين . وكم قد أزال من نعمة وأفقر من غني وأسقط من مرتبة وشتت من شمل ، وكم أفسد من أهل للرجل وولد ، فان المرأة إذا رأت بعلها عاشقاً لغيرها اتخذت هى معشوقاً لنفسهـا فيصير الرجل متردداً بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة ، فمن الناس من يؤثر هذا ومنهم من يؤثر هذا . فعلي العاقل أن يحكم على نفسه سد

باب عشق الصور لئلا يؤذيه ويؤديه ذلك الى الهلاك. والى هذه المفاسد وأكثرها أو بعضها . فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه والمغرور بها فاذا هلكت فهو الذى أهلكها. فلولا تكراره النظر الى وجه معشوقه وطمعه فى وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه. فان أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع . فان لم يقارنه طمع فى الوصال وقارنه الاياس من ذلك لم يحدث له العشق . فان اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به لم يحدث له ذلك . فان أطاع مع ذلك الفكر فى محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله إما خوف ديني كخوف النار وغضب الجبار واجتناب الاوزار ، وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له العشق فان فاته هذا الخوف وقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه وماله وذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه وغلب هذا الخوف على داعي العشق دفعه. وكذلك اذا خاف من فوات محبوب هو أحب اليه وأنفع له من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة المعشوق اندفع عنه العشق . فاذا انتفى ذلك كله أو غابت محبة المعشوق لذلك انجذب اليه القلب بالكلية ومالت اليه النفس كل الميل

(فان قيل) قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده ،فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التي من جملتها رقة الطبع وترويح النفس وخفتها وزوال تلفها ورياضتها وحملها على مكارم الأخلاق من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب ، وقد قيل ليحيي بن معاذ الرازي : إن

ابنك قد عشق فلانة . فقال : الحمد لله الذي صيره الى الطبع الآدمي. وقال بعضهم : العشق داء أفئدة الكرام . وقال غيره - العشق لا يصلح إلا لذي مروءة طاهرة وخليقة ظاهرة ، أو لذي لسان فاضل وإحسان كامل، أو لذي أدب بارع وحسب ناصع وقال آخر : العشق يثبت الجبان ، ويصفي ذهن الغبي ويسخي كف البخيل ، ويذل عزة الملوك ، ويسكن نوافر الأخلاق، وهو أنيس من لا أنيس له ، وجليس من لا جليس له . وقال آخر : العشق يزيل الأثقال ، ويلطف الروح ، ويصفي كدر القلب، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام ، كما قيل :

سيهلك فى الدنيا شفيق عليكم ... اذا غاله من حادث الحب غائله
كريم يميت السر حتى كأنه ... إذا استفهموه عن حديثك جاهله
يود بأن يمسي سقيما لعلها ... إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف فى طلب العلي ... لتحمد يوما عند ليلى شمائله

فالعشق يحمل علي مكارم الأخلاق. وقال بعض الحكماء . العشق يروض النفس ويهذب الأخلاق ، إظهاره طبعي ، واضماره تكلفي . وقال الآخر : من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي فهو فاسد المزاج يحتاج الى علاج . وأنشد فى ذلك المعنى :

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فما لك فى طيب الحياة نصيب

وقال آخر .

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فقم واعتلف تبنا فانت حمار

وقال آخر :

اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

وقال بعض العشاق أولي العفة والصيانة: العشاق اذا عقوا تشرفوا واذا عشقوا تظرفوا. وقيل لبعض العشاق: ما كنت تصنع بمن تهوى لو ظفرت به؟ فقال: كنت أمتع طرفي بوجهه وأروح قلبي بذكره وحديثه، وأستر منه مالا أحب كشفه، ولا أصير بقبيح الفعل الى ماينقص عهده، ثم أنشد:

أخلو به فأعف عنه تكرماً   خوف الديانة لست من عشاقه
كالماء في يد صائم يلتذه   ظمأ فيصبر عن لذيذ مذاقه

وقال أبو اسحق بن ابراهيم: أرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم رقيقة خفيفة، نزهتهم المؤانسة، وكلامهم يحيي موات القلوب، ويزيد في العقول. ولولا العشق والهوي لبطل نعيم الدنيا. وقال آخر. العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان. ان تركته ضرك، وان أكثرت منه قتلك. وفي ذلك قيل:

خليلي إن الحب فيه لذاذة   وفيه شقاء دائم وكروب
على ذاك ماعيش يطيب بغيره   ولا عيش الا بالحبيب يطيب
ولا خير في الدنيا بغير صبابة   ولا في نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطي عن أبي غسان قال: مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بجارية وهي تقول:

وهويته من قبل قطع تمائمي   متمايلاً مثل القضيب الناعم

فسألها: أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة. فقال: أتهوين؟ فتلكأت. فأقسم عليها. فقالت:

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها   قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها وبعث بها الى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب فقال: هؤلاء والله فتن الرجال. وكم والله قد مات بهن كريم، وعطب بهن سليم. وجاءت جارية الى عثمان بن عفان رضي الله عنه تستعدى على رجل من الأنصار فقال لها عثمان: ما قصتك؟ قالت. كلفت يا أمير المؤمنين بابن أخيه، فما أنفك أداعبه. فقال له عثمان: إما أن تهبها إلى ابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالي. فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

ونحن لا ننكر فساد العشق الذى يتعلق به فعل الفاحشة بالمعشوق، وإنما الكلام فى العشق العفيف من الرجل الظريف الذى يأبى له إيمانه ودينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام. وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الاعلام. فهذا عبد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ولم ينكر عليه وعد ظالماً من لامه، ومن شعره:

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم   ولامك أقوام ولومهم ظلم

فنم (١) عليك الكاشحون وقبلهم   عليك الهوى قد نم ما ينفع الكتم

فأصبحت كالنمري اذ مات حسرة   على أثر هند أو كمن شفه (٢) سقم

تجنبت إتيان الحبيب تأثما   ألا إن هجران الحبيب هو الاثم

(١) نم الحديث أفشاه (٢) شفه أي هزله حتى صار نحيلا

فذق هجرها فد كنت نزعت أنه رشد. ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه لجارية امرأته فاطمة بنت عبد الملك ابن مروان وقد كانت مشهورة. وكانت جارية بارعة الجمال وكان معجباً بها وكان يطالبها من امرأته ويحرص على أن تهبها له فتأبى ولم تزل الجارية فى نفس عمر. فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت وكانت مثلا في حسنها وجمالها ثم دخلت على عمر. وقالت: يا أمير المؤمنين إنك كنت معجباً بجاريتي فلانة فسألتني ان أهبها لك فأبيت عليك، والآن فقد طابت نفسى لك بها. فلما قالت له ذلك استبان الفرح في وجهه وقال: عجلي بها علي. فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجبا وقال: لها ألقى ثيابك، ففعلت. ثم قال لها: على رسلك، أخبريني لمن كنت؟ ومن أين صرت لفاطمة؟ فقالت: أغرم الحجاج عاملا له بالكوفة مالاً وكنت فى رقيقه ذلك. قالت: فأخذني وبعث بي الى عبد الملك فوهبنى لفاطمة. قال: فما فعل ذلك العامل. قالت: مات. قال: وهل ترك ولداً؟ قالت: نعم. قال: فما حالهم؟ قالت: سيئة. قال: شدي عليك ثيابك واذهبي الى مكانك. ثم كتب الى عامله على العراق أن ابعث الى فلان بن فلان على البريد، فلما قدم قال له: ارفع الي جميع ما أغرمه الحجاج لابيك، فلم يرفع اليه شيئاً إلا دفعه اليه، ثم أمر بالجارية فدفعت اليه، ثم قال له: إياك وإياها فلعل أباك قد وقع بها. فقال الغلام هي لك يا أمير المؤمنين، قال لا حاجة لى بها قال فابتعها مني قال: لست إذاً ممن نهى نفسه عن

الهوى ، فلما عزم الفتى على الانصراف قالت : أين وجدك بي يا أمير المؤمنين ؟ قال : على حاله ، ولقد زاد بي. ولم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات رحمه الله . وهذا أبو بكر بن محمد بن داود الظاهري العالم المشهور فى فنون العلم من الفقه والحديث والتفسير والأدب ، وله قول في الفقه وهو من أكابر العلماء، وعشقه مشهور ، قال نفطويه : دخلت عليه فى مرضه الذي مات فيه فقلت : كيف تجدك ؟ قال : حب من تعلم أورثنى ما ترى . فقلت : وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال: الاستمتاع على وجهين : أحدهما

النظر المباح ، والآخر اللذة المحظورة . فاما النظر المباح فهو الذى أورثنى ماترى . وأما اللذة المحظورة فيمنعنى منها ماحدثنى أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا على بن مسهر عن أبي يحيي القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه « من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة » ثم أنشد :

انظر الى السحر يجري من لواحظه ... وانظر الى دعج في طرفه الساج(١)

وانظر الى شعرات فوق عارضه ... كأنهن نمال دب في عاج

ثم أنشد :

مالهم أنكروا سواداً بخديه ... ولا ينكرون ورد الغصون

ان يك عيب خده بدو لشعر ... فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له نفيت القياس فى الفقه وأثبته فى الشعر ؟ فقال : غلبة الوجد

(١) الدعج سواد العينين مع سعتها وطرف ساج أي ساكن

وملكة الوجه النفس (١) دعت اليه ، ثم مات من ليلته . وبسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة . ومن كلامه فيه « من يئس ممن يهواه ولم يمت من وقته سلاه . وذلك ان أول روعات الناس تأتي القلب وهو غير مستعد لها فأما الثانية فانها « تأتي القلب وقد وطأت لها الروعة » والتقى هو وأبو العباس ابن شريح فى مجلس أبي الحسن على بن عيسى الوزير فتناظرا فى مسألة من الايلاء فقال له ابن شريح : أنت بأن تقول . من دامت لحظاته كثرت حسراته أحذق منك بالكلام على الفقه . فقال : الآن كان ذلك فاني أقول :

أنزه فى روض المحاسن مقلتى ... وأمنع نفسي أن تنال محرما

وأحمل من ثقل الهوى مالو أنه ... يصب على الصخر الاصم تهدما

وينطق طرفي عن مترجم خاطري ... فلولا اختلاس وده لتكلما

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم ... فلست أري وداً صحيحا مسلما

فقال له أبو العباس بن شريح بم تفخر علي ؟ ولو شئت لقلت :

مطاعمه كالتشهد في نغماته ... قد بت أمنعه لذيذ سناته (٢)

بصبابة وبحسنه وحديثه ... وأنزه اللحظات عن وجناته

حتى اذا ما الصبح لاح عموده ... ولى بخاتم ربه وبراته (٣)

فقال أبو بكر : يحفظ عليه الوزير ماأقر به حتى يقيم شاهدين على انه ولى

---

(١) كذا ولعله وملكة وجه النفس الخ أي تأثره من ذلك الوجه الحسن الذي ملكه (٢) جمع سنة وهي النوم (٣) أي كما رأه لم يمس بسوء . أو ببراءته

بخاتم ربه وبراءته . فقال ابن شريح : يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك :

أنزه في روض المحاسن مقلتي ... وأمنع نفسي أن تنال محرما

فضحك الوزير وقال : لقد جمعتما لطفا وظرفا . ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه . وجاءته يوما فتيا (١) مضمونها .

يا بن داود يافقيه العراق ... أفتنا في قواتل الأحداق
هل عليها بما أتت من جناح ... أم حلال لها دم العشاق ؟

فكتب تحت البيتين بخطه :

عندي جواب سائل العشاق ... فاسمعه من قرح الحشا (٢) مشتاق
لما سئلت عن الهوى هيجتني ... وأرقت دمعا لم يكن مهراق
ان كان معشوقا يعذب عاشقا ... كان المعذب أنعم العشاق

قال صاحب كتاب منازل الاحباب . شهاب الدين محمود بن سليمان ابن مهدي صاحب كتاب الانشاء . وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيبا للسائل :

قل لمن جاء سائلا عن خلاف ... عن بنان في دم العشاق
ماعلى السيف في العدا من جناح ... ان ثنى العدا دم مهراق
وسيوف اللحاظ أولى بأن ... تعفى عما جنت على العشاق
انما كل من قتل شهيد ... ولهذا يفنى فنا وهو باق

(١) بضم الفاء وسكون التاء (٢) قرح بفتح القاف وكسر الراء على وزن فعل أي جريح الحشا

ثم انقطع الصوت فلم أدر من أين جاء، واذا به قد عاد البكاء والأنين ثم أنشد يقول :

أشجاك من ريا خيال زائر	والليل مسود الذوائب عاكر
واعتادمهجتك الهوى برشيشة	واهتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت ريا والظلام كأنه	يم (١) تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسري في السماء كأنه	ملك ترجل والنجوم عساكر
وترى به الجوزاء ترقص في الدجى	رقص الحبيب علاه سكر ظاهر
ياليل طلت علي محب ماله	إلا الصباح مساعد ومؤازر
فاجابني مت حتف أنفك واعلمن	أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال : وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه الا وأنا عنده ، فرأيت شابا مقتبلاً شبابه قد خرق الدمع فى خده خرقين ، فسلمت عليه فقال : إجلس ، من أنت ؟ فقلت : عبد الله بن معمر القيسى .قال : ألك حاجة ؟ قلت . نعم . كنت جالسا فى الروضة فما راعنى الا صوتك ، فبنفسي أفديك، فما الذى تجده ؟ فقال . أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري ، غدوت يوما إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه ثم اعتزلت غير بعيد فاذا بنسوة قد أقبلن يتهادين مثل القطا ، وإذا فى وسطهن جارية بديعة الجمال كاملة الملاحة ، فوقفت علي وقالت . ياعتبة ماتقول فى وصل من يطلب وصلك ؟ ثم تركتنى وذهبت فلم أسمع لها

(١) اليم البحر

خبراً ولم أقف لها على أثر . فانا حيران أنتقل من مكان الى مكان . ثم انصرع وأكب مغشياً عليه ، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه بورس (١) ثم أنشد يقول :

أراكم بقلبي من بلاد بعيـــدة فيا هل تروني بالفؤاد على بعدي

فؤادي وطـرفي يأسفـان عليكم وعندكم روحي وذكركم عندي

ولست ألذ العيش حتى أراكم ولو كنت في الفردوس من جنة الخلد

فقلت . يابن أخي تب الى ربك واستغفره من ذنبك ، فبين يديك هول المطلع . فقال : ماأنا بسال حتى يذوب العارضان فلم أزل معه حتى طلع الصباح ، فقلت : قم بنا الى مسجد الأحزاب فلعل الله أن يكشف كربتك فقال ، أرجو ذلك ان شاء الله ببركة طاعتك ، فذهبنا حتى أتينا مسجد الأحزاب فسمعته يقول :

يالـلرجال ليوم الأربعاء أما ينفك يحدث لي بعد النهى (٢) طربا

ما إن يزال غزال منـه يقلقني يأتي الى مسجد الأحزاب منتقبا

يخبر النـاس أن الأجـر همتـه وما أتى طالبا للأجـر محتسـبا

لو كان يبغي ثوابا ماأتى صلفا (٣) مضمخا بفتيت المسك مختضبا

ثم جلسنا حتي صلينا الظهر فاذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن . فوقفن عليه وقلن له .ياعتبة ماظنك بطالبة وصالك وكاسفة بالك؟

---

١ نبت أصفر يعرف الآن بالكركم ٢ النهى العقل ٣ الصلف هو من يدعي اللطف والظرف في تكبر

الرسول ﷺ ، فلمن الخطبة منهم ؟ قال : لعتبة . قالت . والله لقد سمعت عن عتبة هذا أنه يفي بما وعد ويدرك اذا قصد. فقال : أقسمت لا أزوجك إياه أبداً ، ولقد نمى الي بعض حديثك معه . فقالت: ما كان ذلك، ولكن إذ أقسمت فان الانصار لا يردون رداً قبيحاً فأحسن لهم الرد. فقال: بأى شيء؟ قالت أغلظ عليهم المهر فانهم قوم يرجعون ولا يجيبون . فقال ما أحسن ما قلت ، فخرج مبادراً عليهم فقال : إن فتاة الحي قد اجابت ، ولكني أريد لها مهر مثلها ، فمن القائم به ؟ فقال عبد الله بن معمر : أنا فقل ما شئت ، فقال : ألف مثقال من الذهب ومائة ثوب من الأبراد وخمسة أكرسة من عنبر (١) فقال عبد الله : لك ذلك كله فهل أجبت ؟ قال : نعم قال عبد الله فأنفذت نفراً من الانصار الى المدينة فأتوا بجميع ما طلب ثم صنعت الوليمة فأقمنا على ذلك أياما ، ثم قال : خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين. ثم حملها في هودج وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف فودعناه وسرنا حتى إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرج علينا خيل تريد الغارة ، أحسبها من سليم ، فحمل عليها عتبة فقتل منهم رجالاً وجندل منهم آخرين ثم رجع وبه طعنة تفور دما فسقط الى الارض وأتانا نجدة فطردت الخيل عنا وقد قضى عتبة نحبه ، فقلنا : واعتبتاه فسمعتنا الجارية فألقت نفسها عن البعير وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت:

تصبر لا إني صبرت وإنما أعلل نفسي انها بك لاحقة

(١) كذا ولعله أكياس من عنبر

فلو أنصفت روحي لكانت الى الردي
أمامك من دون البرية سابقة
فما أحد بعدي وبعدك منصف
خليلا ولا نفس لنفس موافقة

ثم شهقت وقضت نحبها فاحتفرنا لهما قبرا واحدا ودفناهما فيه، ثم رجعت الى المدينة فأقمت سبع سنين، ثم ذهبت الى الحجاز ووردت المدينة فقلت والله لآتين قبر عتبة أزوره فأتيت القبر فاذا عليه شجرة عليها عصائب حمر وصفر فقلت لأرباب المنزل: مايقال لهذه الشجرة؟ قالوا شجرة العروسين

ولو لم يكن في العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من الأسانيد، وهو حديث سويد بن سعيد عن علي بن مسهر عن أبي يحيي القتات عن مجاهد عن ابن عباس يرفعه «من عشق وعف وكتم فمات فهو شهيد» ورواه سويد أيضاً عن ابن مسهر عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا. ورواه الخطيب عن الازهري عن المعافي بن زكريا عن عطبة عن ابن الفضل عن أحمد بن مسروق عنه. ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز الماجشون عن عبدالعزيز بن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس. وهذا سيد الاولين والآخرين ورسول رب العالمين ﷺ نظر الي زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال «سبحان مقلب القلوب» وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه فلما هم بطلاقها قال له «اتق الله وأمسك عليك زوجك» فلما طلقها زوجها الله

سبحانه من رسوله ﷺ من فوق سبع سموات فكان هو وليها وولي تزويجها من رسول الله ﷺ وعقد عقد نكاحها فوق عرشه وأنزل على رسوله ﷺ (١) (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) وهذا داود نبي الله عليه السلام لما كان تحته تسعة وتسعون امرأة ثم أحب تلك المرأة وتزوجها وأكمل بها المائة قال الزهرى : أول حب كان فى الاسلام حب النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها. وكان مسروق يسميها حبيبة رسول رب العالمين ﷺ ، وقال أبو القيس مولى عبد الله ابن عمرو : أرسلنى عبد الله بن عمرو الى أم سلمة أسألها ، أكان رسول الله ﷺ يقبل أهله وهو صائم ؟ فقالت : لا . فقال إن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يقبلها وهو صائم ، فقالت أم سلمة رضي الله عنها. إن النبي ﷺ كان إذا رأى عائشة لم يتمالك نفسه عنها. وذكر سعيد ابن إبراهيم عن عامر بن سعيد عن أبيه، قال : كان إبراهيم خليل الله يزوره جبرائيل فى كل يوم من الشام على البراق من شغفه به وقلة صبره عنه . وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما اشترى جارية رومية فكان يحبها حبا شديدا فوقعت ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها ويقبلها وكانت تكثر من أن تقول له يابطرون أنت قالون تعنى يامولاى أنت جيد . ثم أنها هربت منه فوجد عليها وجدا شديدا فقال :

---

(١) فى سورة الاحزاب

قدكنت أحسبنى قالون فانصرفت فاليوم أعلم أني غير قالون

قال أبو محمد بن حزم. وقد أحب من الخلفاء الراشدين والائمة المهتدين كثير

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه. ياأمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها، فقال: ذلك مالا يملك

فالجواب وبالله التوفيق: أن الكلام فى هذا الباب لابد فيه من التمييز بين الواقع والجائز، والنافع والضار ولا يستعجل عليه بالذم والانكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة، وإنما يتبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه، وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم. ونحن نذكر النافع من الحب والضار والجائز والحرام:

اعلم أن أنفع المحبة على الاطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته وفطرت الخليقة على تألهه، وبها قامت الارض والسموات، وعليها فطر المخلوقات، وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله، فان الاله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والاجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده، والعبادة لا تصح إلا له وحده، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل. والشرك فى هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله. والله سبحانه يحب لذاته من سائر الوجوه. وما سواه فانما يحب تبعاً لمحبته. وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ودعوة جميع رسله صلى الله عليهم وسلم أجمعين وفطرته التي فطر عليها عباده وما ركب فيهم من العقول وما أسبغ عليهم من النعم. فان القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن اليها

فكيف بمن كل الاحسان منه وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى (١) (وما بكم من نعمة فمن الله — الآية) وما تعرف به الى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته والمحبة لها داعيا الجلال والجمال ، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك ، فانه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له والجمال كله منه ، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه ، قال الله تعالى (٢) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال تعالى (٣) (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه — الآية) والولاية أصلها الحب فلا موالاة إلا بحب كما ان العداوة أصلها البغض والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه ، فهم يوالونه بمحبتهم له وهو يواليهم بمحبته لهم ، فالله يوالى عبده المؤمن بحسب محبته له . ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء ، بخلاف من والى أولياءه فانه لم يتخذهم من دونه ، بل موالاته لهم من تمام موالاته تعالى. وقد أنكر على من سوى بينه وبين غيره فى المحبة وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ، وأخبر عمن سوى بينه وبين الانداد فى المحبة انهم يقولون فى النار لمعبوديهم (٤) (تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين) وبهذا التوحيد فى المحبة أرسل الله سبحانه جميع رسله صلى الله

---

(١) في سورة النحل (٢) فى سورة آل عمران (٣) في سورة المائدة
(٤) فى سورة الشعراء

عليهم وسلم وأنزل جميع كتبه وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم الى آخرهم ، ولاجله خلقت السموات والارض والجنة والنار فجعل الجنة لأهل هذا التوحيد والنار للمشركين به وفيه .

وقد أقسم النبي ﷺ انه « لا يؤمن عبد حتى يكون الرسول أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » فكيف بمحبة الرب جل جلاله؟وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه « لا.حتى أكون أحب اليك من نفسك » أى لاتؤمن حتى تصل محبتك لي الى هذه الغاية . فاذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا بالمحبة ولوازمها ، أفليس الرب جل جلاله وتقدست اسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم؟وكل ماوصل منه الى عبده المؤمن يدعوه الى محبته ومحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه،فعطاؤه ومنعه ومعافاته وابتلاؤه وقبضه وبسطه وعدله وفضله وإماتته وإحياؤه ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه وصبره على عبده وإجابته لدعائه وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه اليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه ، كل ذلك داع للقلوب الى تألهه ومحبته ، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليها وستره حتى يقضي وطره منها وكلاءته وحراسته له . وهو يقضى وطره من معصيته وهو يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعي الى محبته، فلو أن مخلوقا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته ، فكيف لايحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن اليه على الدوام بعدد الانفاس ، مع إساءته ؟ فخيره اليه نازل ، وشره اليه صاعد ،

يتحبب اليه بنعمه وهو غني عنه ، والعبد يتبغض اليه بالمعاصي وهو فقير اليه. فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته ، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه . فألأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه ، وأيضا فكل من تحبه من الخلق أو يحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك . والرب سبحانه وتعالى يريدك لك كما في الأثر الالهي «عبدي كل يريدك لنفسه وأنا أريدك لك» فكيف لا يستحي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عنه مشغول بحب غيره وقد استغرق قلبه في محبة ما سواه . وأيضاً فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك، ولابد له من نوع من أنواع الربح والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه . فالدرهم بعشرة أمثاله الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محواً . وايضاً فهو سبحانه خلقك لنفسه وكل شيء خلق لك في الدنيا والآخرة . فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته ؟ وأيضاً فمطالبك بل مطالب الخلق كلهم جميعاً لديه وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين . ويعطي عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله . يشكر على القليل من العمل وينميه . ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه . ويسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شأن. لا يشغله سمع عن سمع ولا يغلطه كثرة المسائل . ولا يتبرم بإلحاح الملحين. بل يحب الملحين في الدعاء ويحب أن يسئل ويغضب اذا لم يسئل . فيستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه ويستره

حيث لا يستر نفسه ويرحمه حيث لا يرحم نفسه دعاه بنعمته وإحسانه وناداه الى كرامته ورضوانه. فأبى. فأرسل رسله صلى الله عليهم وسلم في طلبه، وبعث معهم اليـه عهده ثم نزل سبحـانه بنفسه وقال (١) « من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » « أدعوك للوصل فتأبي، أبعث رسلي فى الطلب، أنزل اليك بنفسي ، ألقاك فى النوم » وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هـو ، ولا يذهب بالسيئات الا هـو ، ولا يجيب الدعـوات ويقيل العثرات ، ويغفر الخطيئات ، ويستر العورات ، ويكشف الـكربات ، ويغيث اللهفات . وينيل الطلبات سواه ؟ فهو أحق من ذكر . وأحق من شكر . وأحق من حمد . وأحق من عبد ، وأنصر من ابتغي . وأرأف من ملك . وأجود من سئل . وأوسع من أعطى . وأرحم من استرحم وأكرم من قصد . وأعـز من التجئ اليه . وأكفى من توكل عـليه . أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحا بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التى عليها طعامـه وشرابه في الارض المهلكة اذ يئس من الحيـاة فوجدها . وهو الملك فلا شريك له . والفرد فلا ندله . كل شيء هـالك الا وجهه . لن يطاع الا باذنه . ولن يعصى الا بعلمه . يطاع فيشـكر . وبتوفيقه ونعمته أطيع ويعصى فيغفر ويعفو وحقه أضيع . فهو أقـرب شهيد وأدنى حفيظ . وأوفى وفي بالعهد . وأعدل قائم بالقسط . حال دون النفوس وأخذ بالنواصي . وكتب الآثار . ونسخ الآجال . فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية . والعلانية والغيوب لديه مكشوف . وكل

(١) كما في الصحيحين « ينزل ربنا كل ليلة الي سماء الدنيا فيقول الخ »

أحد اليه ملهوف ، وعنت الوجوه (١) لنور وجهه وعجزت القلوب عن إدراك كنهه، ودلت الفطرة والادلة كلها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الارض والسموات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات ، لاينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه (٢) ما انتهى اليه بصره من خلقه

ماا عتاض باذل حبه لسواه من عوض ولو ملك الوجود باسره

فصل

وههنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به وهو أن كمال اللذة والسرور والفرح ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين : أحدهما كمال المحبوب فى نفسه وجماله وأنه أولى بايثار المحبة من كل ما سواه . والامر الثاني كمال محبته واستفراغ الوسع فى حبه وإيثار قربه والوصول اليه على كل شيء . وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوته ومحبته ، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل . فلذة من اشتد ظمؤه بادراك الماء الزلال ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته . فاذا عرفت هذا فاللذة والسرور

(١) خضعت وذلت (٢) سبحات بفتح السين وضم الباء أى لو انكشف من أنوار الله التي تحجب العباد عنه شيء لهلك كل من وقع عليه ذلك النور كما خر موسى صعقاً

والفرح أمر مطلوب فى نفسه بل هو مقصود كل حي وعاقل ، واذا كانت اللذة مطلوبة فى نفسها فهى تذم اذا أعقبت ألما أعظم منها أو منعت لذة خيراً منها وأجل. فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات وفوتت أعظم اللذات والمسرات ؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستمرة لاتنغيص فيها ولا نكد بوجه ما ، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها . قال تعالى (١) (بل تؤثرون الحيوة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال السحرة لفرعون لما آمنوا (٢) (اقض ماأنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) الآية . والله سبحانه وتعالى خلق الخلق لينيلهم وينيل من أطاعه هذه اللذة الدائمة فى دار الخلد . وأما الدنيا فمنقطعة ولذاتها لاتصفو أبداً ولاتدوم بخلاف الآخرة فان لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم . وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين مع الخلود أبداً ، فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين . بل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر . وهذا المعنى الذي قصده الناصح لقومه (٣) بقوله (ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار) فاخبرهم ان الدنيا متاع يستمتع بها الى غيرها وان الآخرة هى المستقر . واذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل الى لذات الآخرة ولذلك ماخلقت الدنيا لذاتها. فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت اليها لم يذم تناولها بل يحمد بحسب ايصالها الى لذة الآخرة . اذا عرف

---

١ في سورة الاعلى ٢ في سورة طه ٣ هو الذي آمن من آل فرعون والآية فى سورة غافر

هذا فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر الى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والقرب منه . كما ثبت في الصحيح فى حديث الرؤية « فو الله ماأعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر اليه » وفى حديث آخر « إنه اذا تجلى لهم ورأوه نسوا ماهم فيه من النعيم » وفى النسائي ومسند الامام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ في دعائه « واسألك اللهم لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك » وفى كتاب السنة لعبد الله بن الامام أحمد مرفوعا « كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فاذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك » فاذا عرف هذا فأعظم الاسباب التى تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الاطلاق وهي لذة معرفته سبحانه ولذة محبته فان ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي ونسبة لذاتها الفانية اليه كتفلة فى بحر . فان الروح والقلب والبدن انما خلقت لذلك . فأطيب مافى الدنيا معرفته سبحانه ومحبته ، وألذما فى الجنة رؤيته ومشاهدته ، فحبته ومعرفته قرة العيون ولذة الارواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها واللذة القاطعة عن ذلك تنقلب آلاما وعذابا ويبقى صاحبها فى المعيشة الضنك. فليست الحياة الطيبة الا بالله . وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول : إن كان أهل الجنة فى نعيم مثل هذا ، إنهم لفي عيش طيب . وكان غيره يقول : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التى هي عذاب قلب المحب يقول فى حاله :

وماالناس إلا العاشقون ذوو الهوى فلا خير فيمن لايحب ويعشق

ويقول الآخـر :

أف للدنيـا متى ما لم يكن صاحب الدنيا محب أو حبيب

ويقول الآخـر :

ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها وأنت وحيد مفرد غير عاشق

وقال الآخـــر :

اسكن الى سكن تلذ بحبـه وصب (١) الزمان وأنت منفرد

وقال الآخـــر :

يشكى المحبـون الصبـابة ليتنى تحملت مايلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلقها قبلي محب ولا بعـدي

فكيف بالمحبة التى هي حياة القلوب وغـذاء الارواح وليس للقلب لذة ولا نعيم ولافلاح ولا حياة الا بها وإذا فقدها القلب كان ألمـه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها والأذن اذا فقدت سمعها والانف إذا فقد شمه واللسان إذا فقد نطقه . بل فساد القلب إذا خلى من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلى من الروح . وهـذا الامر لايصدق به الا من فيه حياة:ومالجـرح بميت ايلام : والمقصود أن أعظم لذات الدنيا هي السبب الموصل الى أعظم لذة فى الآخرة . ولذات الدنيا ثلاثة أنواع : فأعظمها وأكملها ما أوصل الى لذة الآخرة . ويثاب الانسان على هذه اللذة أتم ثواب . ولهـذا كان المؤمن يثاب على مايقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه وشفاء غيظه لقهر عدو الله

(١) الوصب الهم والتعب

وعدوه . فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله ومحبته له وشوقه إلى لقائه وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم ؟ النوع الثاني لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم في الحياة الدنيا ، يحبونهم كحب الله ويستمتع بعضهم ببعض كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم (١) (ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا — الآية الى قوله — يكسبون) ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الارض والعلو بغير الحق . وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات بمنزلة من قدم لغيره طعاما لذيذا مسموما يستدرجه به الى هلاكه قال تعالى (٢) (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون — الآية الى قوله — إن كيدي متين) قال بعض السلف في تفسيرها : كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة (٣) (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون — الآية الى قوله — والحمد لله رب العالمين) وقال تعالى لأصحاب هذه اللذة (٤) (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات؟ بل لا يشعرون) وقال في حقهم (٥) (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم. إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا — الآية) وهذه اللذة تنقلب آلاما من أعظم الآلام كما قيل :

يارب كائنة في الحياة لاهلها عذبا فصارت في المعاد عذابا

---

(١) في سورة الانعام (٢) في سوره ن والقلم (٣) في سورة الانعام
(٤) في سورة المؤمنون (٥) في سورة التوبة

(النوع الثالث) لذة لا تعقب لذة فى دار القرار ولا ألما يمنع وصول لذة دار القرار وإن منعت كمالها ، وهذه اللذة المباحة التى لا يستعان بها على لذة الآخرة فهذه زمانها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر ، ولا بد أن تشغل العبد عما هو خير وأنفع منها ، وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل الارميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فانهن من الحق » فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق وما لم يعن عليها فهو باطل

فصل

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم بل هو أحد أنواع الحب، وكذلك حب رسول الله ﷺ ، وإنما نعنى المحبة الخاصة وهي التى تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبوبه والا فكل مسلم فى قلبه محبة لرسول الله ﷺ ولا يدخل الاسلام إلا بها والناس متفاوتون فى درجات هذه المحبة تفاوتا لايحصيه إلا الله ، فبين محبة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ومحبة غيرهما ما بينهما . فهذه المحبة هى التى تلطف وتخفف أثقال التكاليف وتسخي البخيل وتشجع الجبان وتصفي الذهن وتروض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة ، لا محبة الصور المحرمة . وإذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل :

سيبقى لكم فى مضمر القلب والحشا ... سريرة حب يوم تبلى السرائر

(١) تبلى السرائر بالبناء للمفعول اي تختبر ويظهر الله ما كانت تخفيه

وهذه المحبة هى التى تنور الوجه وتشرح الصدر وتحى القلب ، وكذلك محبة كلام الله فانها من علامة حب الله . واذا أردت أن تعلم ما ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهى والغناء المطرب بسماعهم فانه من المعلوم أن من أحب حبيباً كان كلامه وحديثه أحب شىء اليه كما قيل :

ان كنت ترعم حبي فلم(١) هجرت كتابي   أما تأملت مافيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه « لوطهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله » وكيف يشبع المحب من كلام من هو غاية مطلوبه ؟ وقال النبي ﷺ يوما لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه « اقرأ علي » فقال : أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ فقال « إني أحب أن أسمعه من غيري » فاستفتح فقرأ سورة النساء حتى إذا بلغ قوله (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) قال « حسبك الآن » فرفع رأسه فاذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء . وكان الصحابة اذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون : يا أباموسى اقرأ علينا . فيقرأ وهم يستمعون . فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني فاذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجده وطربه وشوقه الى سماعه الأبيات دون سماع الآيات وسماع الالحان دون سماع القرآن وهو كما قيل :

تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر

وبيت من الشعر ينشد فتميل كالنشوان

---

(١) بكسر اللام وسكون الميم أصله بفتح الميم وسكن للشعر

فهذا من أقوى الادلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وتعلقه بمحبة سماع الشيطان والمغرور يعتقد انه على شيء

ففى محبة الله وكلامه ورسوله ﷺ أضعاف أضعاف ماذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه، بل لاحب على الحقيقة أنفع منه وكل حب سوى ذلك باطل ان لم يعن عليه ويسوق المحب اليه

فصل

وأما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هى من كماله، وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال (١) (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) الآية فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن اليها قلبه، وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة وقد قال تعالى، عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن (٢) (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم — الى قوله خلق الانسان ضعيفاً) وذكر سفيان الثورى في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه : كان اذا نظر الى النساء لم يصبر عنهن . وفى الصحيح من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها وقال «ان المرأة تقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان . فاذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فان ذلك يرد مافى نفسه». ففي هذا الحديث عدة فوائد (منها) الارشاد

---

١ فى سورة الروم ٢ فى سورة النساء

الى التسلي عن المطلوب بجنسه كما يقوم الطعام مكان الطعام والثوب مقام الثوب . (ومنها) الامر بمداوات الاعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الادوية وهو قضاء وطره من أهله وذلك ينقص شهوته بها. وهذا كما أرشد المتحابين الى النكاح كما في سنن ابن ماجه مرفوعا « لم ير للمتحابين مثل النكاح » ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله دواءه شرعا وقدراً ، وبه تداوي نبي الله داود ﷺ. ولم يرتكب نبي الله محرما ، وإنما تزوج المرأة وضمها الى نسائه لمحبته لها وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ، ولا يليق بنا المزيد على هذا . وأما قصة زينب بنت جحش : فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه ، وكان يستشير رسول الله ﷺ فى فراقها وهو يأمره بامساكها ، فعلم رسول الله ﷺ انه سيفارقها ولابد فأخفى في نفسه ان يتزوجها اذا فارقها زيد وخشي مقالة الناس: إن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه ، فانه كان تبنى زيدا قبل النبوة ، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعا عاما فيه مصالح عباده ، فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله اليها يخطبها لنفسه ، فجاء زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت فى صدره لما ذكر رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب : يا زينب إن رسول الله ﷺ يخطبك . فقالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي ، وقامت الى محرابها فصلت . فتولى الله عز وجل نكاحها من رسوله ﷺ بنفسه . وعقد النكاح له من فوق عرشه ، وجاء

الوحي بذلك (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) (١)فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها.فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك وتقول: أنتن زوجكن أهلوكن وزوجني الله عز وجل من فوق سبع سموات فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب.ولا ريب ان النبي ﷺ حبب اليه النساء كما في الصحيح من حديث أنس ورواه النسائي في سننه والطبراني في الاوسط عنه ﷺ قال « حبب الي من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » هذا لفظ الحديث لا ما يرويه بعضهم « حبب الي من دنياكم ثلاث » زاد الامام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث « أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن » وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك وقالوا : ما همه إلا النكاح. فرد الله سبحانه عن رسول الله ﷺ ونافح عنه فقال(٢)(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) الآية.وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها.وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة . وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة . وقد سئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس اليه قال « عائشة رضي الله عنها » وقال عن خديجة « إني رزقت حبها » فمحبة النساء من كمال الانسان قال ابن عباس « خير هذه الامة أكثرهم نساء » وقد ذكر الامام أحمد ان عبد الله بن عمر وقع

---

(١) في سورة الاحزاب (٢) في سورة النساء

في سهمه يوم جلولاء (١) جارية كأن عنقها ابريق فضة قال عبد الله : فما صبرت عنها أن قبلتها والناس ينظرون الي . وبهذا احتج الأمام احمد على جواز الاستمتاع بالمسبية قبل الاستبراء بغير الوطء بخلاف الأمة المشتركة . والفرق بينهما انه لايتوهم انفساخ الملك في المسبية بخلاف المشتركة فقد ينفسخ فيها الملك فيكون مستمتعا بأمة غيره . وقد شفع النبي ﷺ لعاشق أن يواصله معشوقه بأن يتزوج به فأبت . وذلك في قصة مغيث وبريرة فانه رآه يمشي خلفها بعد فراقها ودموعه تجري على خديه فقال لها رسول الله ﷺ «لو راجعتيه ؟» فقالت : أتأمرني ؟ فقال «لا . إنما أشفع » فقالت . لاحاجة لي به . فقال لعمه « ياعباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغضها له » ولم ينكر عليه حبها وان كانت قد بانت منه فان هذا ما لا يملكه . وكان النبي ﷺ يساوي بين نسائه بالقسم ويقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لاأملك » يعني في الحب . وقد قال تعالى ٢ (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) يعني في الحب والجماع (فلا تميلوا كل الميل) ولم يزل الخلفاء الراشدون الرحماء من الناس يشفعون للعشاق الى معشوقيهم الجائز وصلهن كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان . وكذلك علي رضى الله عنه أتي بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل فقال له : ما قصتك ؟ قال لست بسارق ولكني اصدقك :

---

(١) جلولاء بلدة في طريق خراسان من سواد العراق كانت بها وقعة مشهورة على الفرس للمسلمين في سنة ١٦ هـ ، فاستباحهم المسلمون (٢) في سورة النساء

تعلقت فى دار الرباحي خريدة ... يذل لها من حسن منظرها البدر

لها فى بنات الروم حسن ومنظر ... اذا افتخرت بالحسن عانقها الفخر

فلما طرقت الدار من حب مهجتى ... أتيت وفيها من توقدها الجمر

تبادر أهل الدار بي ثم صيحوا ... هو اللص محتوم له القتل والاسر

فلما سمع علي بن ابي طالب رضى الله عنه قوله رق له وقال للمهلب بن رباح : إسمح له بها فقال : ياأمير المؤمنين سله من هو ؟ فقال: النهاس بن عيينة . فقال : خذها فهى لك . واشترى معاوية جارية فأعجب بها إعجابا شديداً فسمعها يوما تنشد أبياتا منها:

وفارقته كالغصن يهتز فى الثرى ... طريرا وسيما بعد ماطر شاربه

فسألها فأخبرته انها تحب سيدها فردها اليه ، وفى قلبه منها . وذكر الزمخشري في ربيعه ان زبيدة قرأت فى طريق مكة على حائط :

أما فى عباد الله أو فى إمائه ... كريم يجلى الهم عن ذاهل العقل؟

له مقلة إما الماء فقريحة (١) ... وأما الحشا فالنار منه على رجل

فنذرت ان تحتال لقائلها ان عرفته حتى تجمع بينه وبين من يحبه ، فبينما هي فى المزدلفة اذ سمعت من ينشد البيتين ، فطلبته ، فزعم انه قالهما في ابنة عم له نذر أهلها أن لايزوجوها منه ،فوجهت الى الحي . وما زالت تبذل لهم المال حتى زوجوها منه ، واذا المرأة أعشق منه لها فكانت تعده من أعظم حسناتها ، فتقول : ما أنا بشيء أسر منى من جمعي بين ذلك

(١) كذا بالاصل فليحرر

الفتى والفتاة . وقال الخرائطي : وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان فكتب الغلام لها يوما :

ولقد رأيتك فى المنام كأنما أسقيتنى من ماء فيك البارد
وكأن كفك في يدي وكأننا بتنا جميعاً فى فراش واحد
فطفقت نومى كلـه متراقداً لأراك فى نومي ولست براقد

فأجابته الجارية :

خيراً رأيت وكل ما أبصرته ستناله منى برغم الحاسـد
إنى لأرجو أن تكون معانقي وتبيت منى فوق ثدى ناهـد
وأراك بين خلاخلي ودمالجي وأراك فوق ترائبي ومجاسدى

فبلغ ذلك سليمان فأنكحها الغلام وأحسن حالهما على فرط غيرته .
وقال جامع بن مرجيه : سألت سعيد بن المسيب مفتى المدينـة هل على من أحب درهما من وزر ؟ فقال سعيـد : انما تلام على ما تستطيع من الأمر . فقال سعيد والله ما سألنى أحد عن هذا ، ولو سألنى ما كنت أجيب إلا به

فعشق النساء ثلاثة أقسام : عشق هو قربة وطاعـة وهـو عشق الرجل امرأته وجاريته ، وهذا العشق نافع فانه أدعى الى المقاصد التى شرع الله لها النكاح وأكف للبصر والقلب عن التطلع الى غير أهله . ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس. وعشق هو مقت عند الله وبعد من رحمته . وهو أضر شئ على العبد في دينه ودنياه ، وهو عشق المردان

فما ابتلي به الا من سقط من عين الله وطرد عن بابه وأبعد قلبه عنه ، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله كما قال بعض السلف « إذا سقط العبد من عين الله ابتلاه بمحبة المردان » وهذه المحبة هي التي جلبت على قوم لوط ما جلبت وما أتوا إلا من هذا العشق قال الله تعالى (١) (لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون) ودواء هذا الداء الاستغاثة بمقلب القلوب وصدق اللجأ اليه والاشتغال بذكره والتعوض بحبه وقربه والتفكر بالألم الذى يعقبه هذا العشق واللذة التي تفوت به فيترتب عليه فوات أعظم محبوب وحصول أعظم مكروه. فاذا أقدمت نفسه على هذا وآثرته فليكبر على نفسه تكبير الجنازة. وليعلم ان البلاء قد أحاط به. والقسم الثالث من العشق. العشق المباح الذى لا يملك. كعشق من صورت له امرأة جميلة أو رآها فجأة من غير قصد فأورثه ذلك عشقاً لها ولم يحدث له ذلك العشق معصية فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه. والأنفع له مدافعته والاشتغال بما هو أنفع له منه، والواجب على هذا أن يكتم ويعف ويصبر على بلواه فيثيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته وترك طاعة هواه وإيثار مرضاة الله وما عنده

فصل

والعشاق ثلاثة أقسام : منهم من يعشق الجمال المطلق . ومنهم من يعشق الجمال المقيد سواء طمع بوصاله أو لم يطمع. ومنهم من لا يعشق الا من طمع بوصاله ، وبين هذه الانواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف فعاشق

---

١ في سورة الحجر

الجمال المطلق يهيم قلبه فى كل واد وله فى كل صورة جميلة مراد :

فيوما بحزوى ويوما بالعقيق وبالعذيب يوماً ويوما بالخليصاء

وتارة ينتحي بنجد واودية شعب العقيق وطوراً قصر تيماء

فهذا عشقه أوسع ولكنه غير ثابت كثير التنقل

يهيم بهذا ثم يعشق غيره ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه وأدوم محبة له ومحبته أقوى من محبة الاول لاجتماعها فى واحد ولكن يضعفها عدم الطمع فى الوصال . وعاشق الجمال الذي يطمع فى وصاله أعقل العشاق وأعرفهم وحبه أقوى لان الطمع يمده ويقويه

فصل

وأما حديث من عشق وعف فهذا مما يرويه سويد بن سعيد وقد أنكره حفاظ الاسلام عليه ، قال ابن عدي في كامله : هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد . وكذلك ذكره البيهقي وابن طاهر فى الذخيرة والتذكرة وأبو الفرج ابن الجوزي وعده من الموضوعات وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله وقال : أنا أتعجب منه . قلت : والصواب فى الحديث أنه من كلام ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه . فغلط سويد فى رفعه ، قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان : حدثنا ابو بكر بن الازرق عن سويد به فعاتبته على ذلك فأسقط ذكر النبي ﷺ وكان بعد ذلك يسأل عنه ولا يرفعه ، ولا يشبه هذا كلام النبوة

وأما ما رواه الخطيب له عن الزهرى (١) حدثنا المعافى بن زكريا حدثنا قطبة بن الفضل ، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سويد ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً . فمن أين الخطأ ولا يحمل مثل هذا عنه عن هشام عن أبيه عن عائشة من شم أدنى رائحة من العلم من الحديث . ونحن نشهد بالله أن عائشة ما تكلمت بهذا عن رسول الله ﷺ قط ولا حدث به عنها عروة ولا حدث به عنه هشام قط وأما حديث ابن الماجشون عن عبد الله بن أبي حازم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا فكذب على ابن الماجشون، فانه لم يحدث بهذا ولم يحدث به عنه الزبير بن بكار ، وانما هذا من تركيب بعض الوضاعين. ويا سبحان الله كيف يحتمل هذا الاسناد مثل هذا المتن فقبح الله الوضاعين

وقد ذكره أبو الفرج ابن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل : حدثنا يعقوب بن عيسى عن ولد عبد الرحمن بن عوف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرفوعاً . وهذا غلط قبيح فان محمد بن جعفر هذا هو الخرائطي ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة فمحال أن يدرك شيخه يعقوب بن أبي نجيح لاسيما وقد رواه في كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح ، والخرائطى هذا مشهور بالضعف في الرواية ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء

وكلام حفاظ الاسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان واليهم يرجع في هذا الشأن وما صححه بل ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه

---

١ سبق في صفحة ٣١٠ « عن الازهرى » فليحرر

ويرجع في الصحيح اليه، ولا من عادته التساهل والتسامح فانه لم يصف نفسه ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل فى أحاديث التصوف ويروي منها الغث والسمين والمنخنقة والموقوذة قد أنكره وحكم ببطلانه . ثم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه أنه سئل عن الميت عشقا فقال « قتيل الهوى لاعقل (١) ولا قود » ورفع اليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ فقال : ما شأنه ؟ فقالوا : العشق ، فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق

فهذا تفسير من قال « من عشق وعف وكتم ومات فهو شهيد » ومما يوضح ذلك أن النبي ﷺ عد الشهداء في الصحيح فذكر المقتول فى الجهاد والمبطون والحريق والنفساء يقتلها ولدها والغريق وصاحب الهدم فلم يذكر منهم العاشق يقتله العشق. وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس رضى الله عنهما، على أنه لايدخل الجنة حتى يصبر لله ويعف لله ويكتم لله وهذا لايكون إلا مع قدرته

١ أي لادية . سميت بذلك لان الابل كانت تعقل بفناء دار القتيل

على معشوقه وإيثار محبة الله ورضاه ، وهذا أحق من دخل تحت قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهي النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) وتحت قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعلنا ممن آثر حبه ورضاه على هواه وابتغى بذلك قربه ورضاه آمين يا رب العالمين وصلي الله على محمد وآله وصحبه أجمعين

أمين

م

فهرست

ج

صفحة	الموضـــــوع

الموضـــوع	صفحة
حقيقة التعبد التذلل والخضوع للمحبوب	٢٥٣
حقيقة العبودية لاتخلص مع الاشراك فى المحبة	٢٥٥
الخلة نهاية المحبة . خليلا الله محمدوابراهيم صلى الله عليهما وسلم	٢٥٧
بماذا يقدم العبد أعلى المحبوبين وأيسر المسكروهين ؟	٢٥٩
ليس للعبد أنفع ولا أهنأ من طريق المرسلين عليهم السلام	٢٦١
معترك العقل والهوى	٢٦٣
الـكلمة الباقية فى عقب ابراهيم هي لا إله إلا الله	٢٦٥
المؤمن المخلص من أطيب الناس عيشاً	٢٦٧
من فاتته محبة الله فاته كل شيء	٢٦٩
ليس شيء يحب لذاته وتصلح الألوهية له وحده إلا الله	٢٧١
وظيفة الملائكة مع بنى آدم فى الدنيا والآخرة	٢٧٣
لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا	٢٧٥
المحبة المحمودة والمحبة المذمومة	٢٧٧
الدين فيه معنى الاذلال والذل والخضوع	٢٧٩
الله على صراط مستقيم في فضله وعدله وحكمه وخلقه	٢٨١
حال يوسف الصديق وعفته مع قوة الداعى	٢٨٣
الطائفة الثانية من العاشقين	٢٨٥
أفحش العشق تقديم مرضاة معشوقه على مرضاة ربه	٢٨٧

بيان الخطأ والصواب (١)

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
٦	١	أصل	حديت	حديث
٩	٣	»	ألاجابه	الأجابة
١٥	١٨	»	وألازهاق	والأزهاق
١٥	١٩	»	ألبتة (٢)	البتة
١٨	٥	حاشية	يتداولون	بتداولونه
٢٠	١	»	يؤتى من	يؤتى من جهة الخوف
٢٠	١٢	أصل	نصيرة	بصيرة
٢١	٩	»	بالفدر تارة	بالفدر تارة
٢٢	١٥	»	إختيار	اختبار
٢٣	٢	»	مكانه	مكانة
٢٣	٩	»	والعقوبه	والعقوبة
٢٤	٣	»	وأطق	وأطاق
٢٥	١٤	»	إن	أن

١ — (ا) هـذا الخطأ واقع فى بعض النسخ دون البعض الذى تدورك أثناء الطباعة (ب) جرينا على أن السطر يعد ولو كلمة واحدة وكلمة (فصل) تعد سطراً . وفصلنا بين الاصل والحاشية والعنوان

٢ — وردت بالقطع أيضاً خطأ في بعض الصحائف فلتصحح

صفحة	سطر		الخطـــأ	صوابه
٢٥	١٤	أصل	مكفر	مكفراً
٢٦	١	عنوان	الجوا	الجواب
٢٦	٢	أصل	التفكير	التكفير
٢٦	٥،٦	»	عند حسن ظن	عند ظن (كذا في الصحيحين)
٢٨	١	»	يربه - لله	بربه — بالله
٣١	١	حاشية	لهم	زائده
٣٣	١١	أصل	أخرجى	اخرجى
٣٣	٢	حاسية	بها	بها
٣٧	٥	أصل	وفيه	وفيها
٣٧	١٥	»	صمتاً	صمتا (ألفانين)
٣٨	٨	»	المؤمنات	الموءسات
٣٨	١٢	»	وسول	رسول
٣٩	٣	حاشية	قاما	فأما
٤٣	١٩	أصل	فأيما	فأيهما
٤٥	١٠	»	تصديقو يقينهه	تصديقه ويقينه
٤٥	١١	»	سكذيبه رشكه	تكذيبه وشكه
٤٦	٤	»	غيبته	غيبته
٤٧	١٤	»	بربه	بربه

ل

صفحة	سطر		الخطـــأ	صوابه
٤٩	٢	أصل	أبـكوا	ابكوا
٥٠	٢	«	بن الحراح	ابن الجراح
٥١	٣	حاشية	هذ	هذه
٥٢	٧	أصل	إختلاف	اختلاف
٥٢	١٥	«	التقديس	والتقديس
٥٢	١٦	«	وو بلباس	وبلبـاس
٥٤	٣	«	بالفتل	بالقتل
٥٨	٢	حاشية	كلام	كلاما
٥٩	٤	أصل	لان	لئن
٦١	١	«	دينـار	ابن دينار
٦٤	٣	حاشية	حليفهم	طعـامهم
٦٧	١	عنوان	بعـ ية	تعمية
٦٧	١١	أصل	لايغير	لايغبر بالباء الموحدة
٦٧	١٣	«	حائيا	حائرا
٦٧	١٧	«	ينقض الجرح	ينتقض الجرح
٦٨	٣	«	نقدا معجل	نقداً معجلاً
٧٤	١٩	«	أمرىء	أمرى
٧٩	٥	حاشية	ان ال[illegible]	في الصلاة

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
٨٠	١	حاشية	الشيء لرطب	الشيء الرطب
٨١	٩	أصل	فانطلقنا	فانطلقنا
٨٢	١.٤.٥	«	إنطلق إنطلق	انطلق انطلق
٨٢	٦	«	أرق	ارق
٨٦	٣	«	بقية آثارها	بقيت آثارها
٨٩	٣	«	وكذلك	وكذلك
٩٠	٨	«	لسوء	بسوء
٩٠	١٢	«	والحيلء	والحياء
٩٠	١	حاشيه	(٢) كذا بالأصل الخ	(٢) فديت كرميت يقوطا النيعان نهكما بصاحبه
٩٢	٨	أصل	ولتنطر	ولتنظر
٩٣	٥	«	بيعه	و بيعه
٩٦	٧	«	ضعغت	ضعفت
٩٦	٨	«	إنقطاعا	انقطاعا
٩٦	١١	«	المكروه والوارد	المكروه الوارد
٩٦	١٧	«	إستيلا	استيلاء
٩٧	٥	«	عاقبته	عافيته
٩٨	١٤	«	فات النم	فاتوا النعيم
٩٨	٥	حاشية	شوا	شووا

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
٩٩	١١	أصل	بدا قضاء	بذا قضى
١٠٠	٣	»	العبد	البعد
١٠٠	١٥	»	ودائها	وأدواؤها
١٠٢	٨	»	الملوك أبناء	الملوك وأبناء
١٠٣	١٢	»	المتغض	المنغص
١٠٣	١٦	»	أصغر كل	أصغر من كل
١٠٤	١٥	»	الآفات . وفي الحديث	الآفات . وفي الحدث
١٠٤	١٧	»	الذباب	الذئاب
١٠٥	٣	»	الراعي كلما كانت	الراعي كانت
١٠٥	١٥	»	أسوء	أسوأ
١٠٧	١٥	»	أنه يراه ويشاهده	أنه يراه بعينه ويشاهده
١٠٧	١٦	»	وهو ـ يره وار	وهو غير متوار
١٠٨	١٦	»	لم نف به	لم يف بها
١٠٩	١	عنوان	القطبة	القطيعة
١٠٩	١١	أصل	والصاب	واتصات
١١٠	٤	»	فتطيعونه:وتوالونه	فتطيعوه : وتوالوه
١١٠	٥	»	اعد	أعدى
١١١	١٤	»	والعمل بكثرته	والعمل والعلم كثرته

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
١١٥	٦	أصل	يحتاج	يحتاج
١١٦	٤	»	منة	منه
»	٦	»	وإنكساره	وانكساره
»	١٢	»	الوفى	الوفاء
»	١٣	»	الوفى	الوفاء
»	١٩	»	وإن صغر	وإن صغر قبيح
١١٧	١	»	فأن مقاملة العطم الدى	فقاملة العطيم به . العطيم الدى
»	٣	»	وجليله من أقبح	وحليله يعد من أقبح
»	٧	»	عقوته والا لىرلرات	عقوبته لتزلزلت
١١٨	١	»	لذى النعيم	لدى النعيم
١١٩	١	عنوان	تجرئ على العبد	تجرئ العبد على
١٢٣	٧	أصل	المغبون	ال ☆ مغبون
»	١٣	»	منارل	منازل
١٢٥	١٨	»	أنا قرينك فى الديا وفى الحشر بعد * ها	أنا قريك ى الديا وفى الحشر بعدها *
١٢٦	١١	»	يتفرق	تتفرق (١)

(١) رضيعا لبان ثدي أم تقاسما الخ البيت: يقال أنه للاعشى يصف ممدوحه بأنه والندي رضيعا لبان يعنى أنه والندى توأمان من أم واحدة. تقاسما ـ أي حلفا

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
١٢٧	١٦	أصل	وعد أبيكم	وعدو أبيكم
١٢٩	٧	«	بجند	بجند
«	١	حاشيه	(٣) فى سورة الشعراء	فى سورة الصافات
١٣٠	٨	أصل	العدو والثغر خاليا	العدو الثغور حالية
١٣١	٥	«	على هذا الثغور	على هذه الثغور
«	١٨	«	البديع والتأمل ،	البديع ، والتأمل
١٣٥	١	حاشية	أى صرعهم وألفاهم	أصرعهم وألقهم (صيغة المضارع)
١٣٦	١٣	أصل	ولا تجبكم ـ ألبتة	ولا تحكم ـ البتة
١٤٠	٣	«	قلا	فلا
١٤٧	٦	«	تسجلب مراد هلاك	تستجلب هلاك
«	٦	«	لأتم	لاتم
١٥٥	٨	«	ويرجع	ويرجح
١٥٦	٦	«	لاباجملة	لاالجملة
١٥٦	١٨	«	الذي	التى

باسحم داج أي بليل بهيم مظلم وقيـل ثدى (عوض) أي ابداً لا نفرق وقد ساقه المصنف هنا لمراده وهو صالح له ومراده ان الشقى العاصى يكون هو والشيطان من شدة تقارنهما كأنهما رضيعا ثدي تحالفـا وأقسما باسحم داج (قيل هو الثدى لسواد حلمته وهو الظاهر) لا يتفرقا أبداً ؟ ابو السمح

صفحة	سطر		الخطـأ	صوابه
١٥٧	١	عنوان	٧٥١	١٥٧
«	١٣	أصل	صحى	صحا
١٦١	١٦	«	البررزخ	البرزخ
١٦٢	١٠	«	يهدى	يهدأ
١٧٠	٢	«	صغيرته	صغيرة
«	٩	«	الى من	إلى أن جراءة من
١٧١	١١	«	مصر	مصرا
١٧٢	١٣	«	به تفاصيله	به وتفاصيله
١٧٣	٢	«	خلفه	خلقه
١٧٤	٨	«	لعلي أطلع	لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع
«	١٨	«	بأسرهما	بأسرها
١٧٥	١٢-١٣	«	ان طرد قوله أن تعدو	إن طرد قوله هذا يستلزم أن
١٧٦	١٢	«	وحفظه	وحظه
١٧٨	٦	«	حيث الظلم عدل	حيث عدل
١٧٩	٩	«	اوأئك	أولئك
«	١٦	«	الذين	اللذين
١٩١	١٦	«	أته	أنه
١٩٢	٣	«	ويوم نحشرهم	ويوم يحشرهم

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
١٩٢	١٣	أصل	أمر	وأمر
»	١٤	»	بالأمر الذى	بالأمر الدينى
١٩٤	١٨	»	ارسل	وأرسل
١٩٥	٤	»	الذين	اللذين
»	١٧	»	لظلماته	لظلامته
١٩٨	٦	»	أحيي	أحيا
١٩٩	٩	»	كمن من قتل لا	كمن قتل من لا
٢٠٢	١	»	العدواة	العداوة
٢٠٦	١٦	»	المفسلين	المفلسين
»	١٧	»	الباطلين	الطالبين أو العاطلين
٢١٢	٤	»	اجلاء	امتلاء
»	٦	»	التوصل	للتوصل
»	١٠	»	فى مرضات	في مرضاة
٢٢٣	٦	»	أحيي	أحيا
٢٣١	١٢	»	لله	الله
٢٣٢	١٦	»	نخف	تخف
٢٣٤	٣	»	وهم على بين	وهم بين
»	٤	»	وهم وجوههم	وهى على وجوههم
»	٩	»	فيانا كيح	فيانا كحى

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
٢٣٤	٩	أصل	تهنكم	تهنيكم
٢٣٥	١٠.١٤	»	فاسد والاعتبار	فاسد الاعتبار
٢٣٧	٢	»	انفقوا	اتفقوا
٢٣٩	٥	»	سويداه	سويدائه
٢٤٣	١	عنوان	يفرغ للتفكر	يفرغ القلب للتفكر
»	٢	»	تنور	تنورا
»	٦	»	تعال	تعالى
»	١٤	»	ماورائها	ماوراءها
٢٤٤	١٢.١١	»	وعزيمته على إيثار	وعزيمته إيثار
٢٤٥	٩.٨	»	يشرك في محبته	يشرك محبه (فاعل)
٢٤٦	٩	»	للمبحوب	للمحبوب
»	١٥	»	بعد ما	بعيد ما
٢٤٧	١٢	»	أني	إني
»	١٢	وما بعده »	أسئلات	أسئلة (عشر مرات في حديثه)
٢٤٨	١٤	»	مرضات	مرضاة
٢٤٩	٢	»	يحيى	يحيا
٢٥٠	١٢	»	ذكره	ذكرها
٢٥١	١	»	إدراك	إدراك

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
٢٥٢	١٢	أصل	ويستعيدنى	ويستعيذنى
٢٥٥	٨	»	يسموا	يسمون ولاالروم للقوسين
»	١٩	»	قبله	قلبه
٢٥٦	١	»	بحب	يحب
٢٥٩	١٤	»	ودنائتها	ودناءتها
٢٦٠	١٤	»	آثرها	آثر
٢٦٥	١٥	»	تبعا	تبع
٢٦٧	١٨	»	حادى	حاذ
٢٧١	١	عنوان	لة	له (فى بعض النسخ غير موجودة)
»	١	حاشية	سووة	سورة
٢٧٥	٥	أصل	رالخلفاء	والخلفاء
»	١٠	»	مبعود	معبود
»	١٤	»	آتخذوا	اتخذوا
٢٧٦	١٣	»	لاآلهة	الآلهة
٢٧٧	١١	»	هو	هوى
٢٧٩	٦	»	هو آذى الزمان اذكر هذا الذى	هو ذاك الزمان اذكر هو الا بد بين
»	٨	»	وأخافه	وخافه
٢٨٠	٩	»	مربوبين	مربوبين

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
٢٨١	٣	أصل	واسمائه	وأسماءه
٢٨٥	٧	»	إستغفرى	استغفرى
»	٩	»	الزنا (وفى مواضع أخرى)	الزنى
٢٨٦	٣	»	أعي	أعيا
»	٥	»	إستنقاذه	استنقاذه
٢٨٧	٨	»	العبوديه	العبودية
»	١١	»	بالقاحشة	بالفاحشة
٢٩٠	١٥	»	فان االراغب	فان الراغب
٢٩١	١	»	خير	خيرا
»	٧	»	يتعيذ	يستعبذ
٢٩٤	١٤	»	يبق	يبقي
٢٩٥	١١	»	والمعشوقين	والمعشوق
»	١٧	»	أى	أدى
٢٩٦	٩	»	لنفسه فكل	لنفسه مافيه فكل
٢٩٨	١٢	»	العلى	العلا
٢٩٩	١	»	واذا	إذا
»	٢	»	أذا عفوا ز رفوا	اذا عفوا تشرفوا
»	٦	»	ينتص	ينقض
٣٠٢	٦	»	نجدك	تجدك

صفحة	سطر		الخطأ	صوابه
٣٠٣	٧	أصل	الآن كان ذلك	كان ذلك. أما الآن
٣٠٤	٩	»	سئلت	سألت
»	١٧	»	أنما كل من مات	كل من مات [illegible] شهيد
»	٢	حاشية	افعل	فعل
٣٠٥	٧	أصل	إن الذى [illegible] عادة [illegible]	إن الذى [illegible] عادته
»	٨	»	إن [illegible]	[illegible]
٣٠٦	٧	»	الجوازاء	الجوزاء
»	١٢	»	إجاس	اجلس
٣٠٩	١٨	»	تصبر	تصبرت
٣١٠	١٠	»	ولو لم يكن	[illegible]
٣١٤	١٦	»	وكلأته	وكلاته
٣٢٠	٩	»	قتلى	ولى
»	١٣، ١٤	»	خلى	[illegible]
٣٢٣	١٨	»	نفرأ [illegible] الخ	[illegible] بسعر
٣٢٥	٦	»	داءه	دواءه
٣٢٨	١٣	»	اما الماء	أما المعى
»	١٧	»	أعسق [illegible]	[illegible]
٣٣١	٢	»	[illegible]	[illegible]

انتهى